

تأليف دكتور عبد العزيز عبدالمعطي عرف

المليح همل
عز الدين همل

مِنْ بِلَاغَةِ النَّظْمِ الْعَرَبِيِّ

لِلدكتور
عبد العزيز عبدالمعطي عرف
دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني

الجزء الثاني

المليح همل
عز الدين همل

عالم الكتب

مِنْ بِلَاغَةِ النَّظْمِ الْعَرَبِيِّ

دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني

تأليف

دكتور عبد العزيز عبدالمطعمي عرفه

الجزء الثاني

عالم الكتب



بيروت - المزرعة بناية الايمان - الطابق الاول - ص.ب. ٨٧٢٣
تلفون : ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقية : نابعلبكي - تلکس : ٢٣٣٩٠



مكتبة

مكتبة

مكتبة

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَبَعْد ...

فيسعدني أن أقدم لأبناء اللغة العربية - الجزء الثاني من كتاب « من بلاغة النظم العربي » كسابقه الجزء الأول من هذا الكتاب - تقرباً إلى الله ، ثم خدمة للغة القرآن المجيد ، وإسهاماً صادقاً في نهضة النقد الأدبي وازدهاره .

أملنا أن يتكون الذوق الأدبي السليم ، ويعود الطبع اللغوي العربي الأصل ، فتمكن أجيالنا من تذوق الكلمة الحلوة والعبارة الجميلة التي تؤثر في النفس ، فتهمز القلوب ، وتحفز على العمل ، وترقى الأمة ، ويسعد المجتمع .

وقد اشتمل الجزء الأول على تمهيد تحدث عن تاريخ النظم العربي ، وعن مقاييس الفصاحة والبلاغة ، وعلى أربعة فصول من الباب الأول الذي يتحدث عن « علم المعاني » .

وهذا « الجزء الثاني » الذي بين يديك . يتحدث - بعون الله - عن بقية فصول الباب الأول ، وهي : الفصل الخامس الخاص بأسلوب القصر ، ويأتي بعده « الفصل السادس » الذي يتحدث عن أسلوب الإنشاء ، ثم يلقينا « الفصل السابع » ونعرض لك فيه أحوال الفصل والوصل ، وأخيراً يأتي

« الفصل الثامن » وندرس فيه ظاهرة « الإيجاز والإطناب والمساواة » وبهذا ينتهي هذا الجزء .

والله جل وعلا - يمنحنا الجزاء الأوفى بحسن نيتنا ، وشرف مقصدنا ، وهو - وحده - الهادي إلى سواء السبيل .

المؤلف

د. عبد العزيز عبد المعطي عرفه

مدينة نصر :

غرة رجب سنة ١٤٠١ هـ

٥ من مايو سنة ١٩٨١ م

الفصل الخامس

أسلوب القصر

لعل الشيخ عبد القاهر الجرجاني المتوفي سنة ٣٧١هـ أو ٤٧٤هـ هو أول من تحدّث عن أسلوب القصر حديثاً بلاغياً . فقد عرض له في كتابه القيم « دلائل الإعجاز » وهو بصدد الحديث عن « إن » إذا اتصلت بها « ما » فنقل عن أبي علي الفارسي قوله : ﴿ إِنَّ نَاساً مِنَ النّٰحْوِيِّينَ يَقُولُونَ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ ^(١) المعنى : (ما حرم ربي إلا الفواحش) أي أن « إنما » بمعنى : « ما » و« إلا » .

ونقل الشيخ أيضاً ما استدل به أبو علي الفارسي على صحة قول النحويين ، وعلّق عليه بقوله : « لم يعنوا بذلك أن المعنى في هذا هو المعنى في ذلك بعينه ، وأن سبيلهما سبيل اللفظين يوضعان لمعنى واحد ، وفُرق بين أن يكون في الشيء معنى الشيء ، وبين أن يكون الشيء الشيء على الإطلاق ، فليس كل كلام يصلح فيه « ما » و« إلا » يصلح فيه « إنما » ، ألا ترى أن « إنما » لا تصلح في مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(٢) ، ولا في نحو قولنا : « ما أحد إلا وهو يقول ذاك » إذ لو قلت : إنما من إله الله ،

(١) سورة الأعراف ، آية ٣٣ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٦٢ .

وإنما أحد وهو يقول ذاك » ، قلت : ما لا يكون له معنى ، وسبب ذلك أن لفظ « أحداً » لا يقع إلا في النفي ، وما يجري مجرى النفي من النهي والاستفهام ، وأن « من » الزيدة في : ((ما من إله إلا الله)) لا تكون إلا في النفي ، وهذا دليل على أن « ما وإلا » و« إنما » ليسا سواء ، لأنهما لو كانا سواء لكان ينبغي أن يكون في « إنما » من النفي مثل ما يكون في « ما وإلا » .

وتقول : « إنما هو درهم لا دينار » فيصلح فيه « إنما » ولا يصلح فيه « ما » و« إلا » فلا يقال : « ما هو إلا درهم لا دينار » لأن « لا » النافية لا تجامع النفي والاستثناء كما سيأتي .

ثم مضى الشيخ عبد القاهر يفضل القول في « إنما » فيوضح مواضعها وكذلك « ما وإلا » ، وطريق « العطف » ، و« التقديم » وغيرها .
وتراه يحلل الأمثلة ، ويميز الفرق بينها . كل ذلك بذوق بلاغي دقيق ، وحسن بياني منقطع النظير^(١) .

ثم جاء البلاغيون من بعده فنهلوا من منهله ، وحددوا القصر تحديداً دقيقاً ، وقسموه أقساماً غير أنهم أهملوا بعض تحليلات الشيخ لبعض الأمثلة الشعرية والنثرية .

هذا . . . والقصر فن دقيق المجرى لطيف المغزى جليل المقدار ، كثير الفوائد ، غزير الأسرار ، يستعمله الأديب ليأتي أسلوبه مصوراً قوياً يوحى إلى القارئ بمعان شتى ، فقول الأديب لمخاطب : « إنما هو أخوك » و« إنما هو صاحبك القديم » قول لا يقال لمن يجهل ذلك ويدفع صحته ، ولكن لمن يعلمه ويعترف به ، والأديب يريد أن ينبه مخاطبه بالذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب .

(١) أنظر دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني ص ٢١٤ وما بعدها بتحقيق المراعي .

وقديماً قال عبد الله بن قيس الرقيات ، وكان منقطعاً إلى مصعب بن الزبير كثير المدح له :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت في وجهه الظلماء
فابن الرقيات قد بالغ في مدح صاحبه حيث ادعى أن كون الممدوح
موصوفاً بهذه الصفة هو أمر ظاهر معلوم للجميع ، وقد نشأ هذا من استعماله
أسلوب القصر ، وجعل « إنما » طريقاً له .

وابن الرقيات قد جرى على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا في
الأوصاف التي يذكرون بها الممدوحين أنها ثابتة لهم ، وأنهم قد شهروا بها ،
وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذي لا يدفعه أحد^(١) .

وتارة تجد الأديب يرغب في تأكيد كلامه تأكيداً حاسماً ليقطع شك
المخاطب ، فيستعمل أسلوب القصر ، فيقول مثلاً : « ما هو إلا مصيب »
و« ما هو إلا مخطيء » مؤكداً ومقرراً الإصابة أو الخطأ .

وفي أسلوب القصر لون من الإيجاز ، والإيجاز هو البلاغة كلها ، وذلك
أن جملة « القصر » تقوم مقام جملتين ، بيان ذلك أن المعهود في الجملة أن
تفيد حكماً واحداً يراد به الإيجاب أو السلب ، فإذا قلنا : « انتصر الجيش
الإسلامي في حرب العاشر من رمضان » أفادت هذه الجملة حكماً إيجابياً هو
ثبوت النصر للجيش الإسلامي ، أما إذا قلنا : « لم ينتصر الجيش الإسرائيلي
في حرب العاشر من رمضان » أفادت هذه الجملة حكماً سلبياً هو نفي النصر
عن الجيش الإسرائيلي .

وترى الأديب يؤدي هذين الحكمين المختلفين إيجاباً وسلباً في جملة
واحدة فيقول : « ما انتصر في حرب العاشر من رمضان إلا الجيش

(١) دلائل الإعجاز ص ٢١٧ .

الإسلامي » ، فقد أفادت هذه الجملة معنى الجملتين السابقتين ، وهو إثبات النصر للجيش الاسلامي وفيه عن الجيش الاسرائيلي ، وواضح أن جملة واحدة أوجز من جملتين . إلى غير ذلك من الأغراض التي يرمي إليها الأديب من إيراد أسلوب القصر في قوله الفني الجميل ، والتي ستقابلنا عند تحليل أمثلة القصر بمشيئة الله .

ودراسة أسلوب القصر دراسة علمية دقيقة ، لازمة للأديب والمتلقي والناقد ليتم عملية المشاركة الوجدانية ، وتحقق المتعة والسرور ، من صياغة الأسلوب الأدبي الجميل ويأتي التأثير المنشود من مطالعة الأدب فيقبل الناس على العمل لرفعة وطنهم ودينهم وتلك ثمرة الأدب الحي .

حقيقة القصر ومعناه

القصر في اللغة : الحبس ، تقول : هذا النصر المؤزر مقصور على الجيش الإسلامي ، أي : محبوس عليه :

ومنه قوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾^(١) أي : محبوسات محجبات ، لا يتبدلن في شارع أو سوق ، والحجاب الذي يقصده الشارع ويصف به الحور العين هو البعد عن التبذل . وأنهن مقصورات على أزواجهن لا ينظرن إلى رجال غيرهن .

وفي اصطلاح المبلاغيين : تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص ، فالشيء الأول هو المقصور والشيء الثاني : هو المقصور عليه .

مثال ذلك : « لا ينجح إلا المجتهد » فهذا المثال يفيد تخصيص النجاح بالمجتهد ، بمعنى : أن النجاح خاص بالمجتهد لا يتعداه إلى غيره ، « فللنجاح مقصور ، و » المجتهد مقصور عليه » .

(١) سورة الرحمن ، آية ٧٢ .

وواضح أن منشأ هذا التخصيص أو القصر في المثال راجع إلى استعمال أداتي النفي والإستثناء في « لا ، وإلا » : وأنت إذا حذفتهما لم تجد هذا التخصيص أو القصر في المثال المذكور .

ومن هذا يتضح لنا أن الطريق المخصوص هو الطريق المعهود المعين من طرق القصر المصطلح عليها وهي : « العطف » و « النفي والاستثناء » و « إنما » و « التقديم » ، و « توسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر » و « تعريف المسند إليه أو المسند بلام الجنس » .

أقسام القصر

أولاً : ينقسم القصر باعتبار غرض المتكلم إلى حقيقي وإضافي .

فالحقيقي : أن يكون المتكلم غرضه أن يخص المقصور بالمقصور عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره أصلاً . نحو : « ما خاتم الأنبياء والرسل إلا محمد » فإن غرض القائل : تخصيص ختم الرسل والأنبياء بمحمد ﷺ ، وقصره عليه ، بحيث لا يتعداه إلى غيره أصلاً ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ ^(١) المفاتيح جمع مفتاح بفتح الميم : وهو المخزن : أي عنده مخازن الغيب ، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة ، أو جمع مفتاح بكسر الميم ، وهو المفتاح ، جعل للأمور الغيبية مفاتيح ، لتكون طريقاً إلى ما في المخازن منها ، على سبيل الاستعارة أيضاً .

والمعنى : إن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب ، أو المفاتيح التي تكون طريقاً إلى المخازن ، ومعنى « لا يعلمها إلا هو » أنه لا علم لأحد من خلقه بشيء من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها - فقد قصر علم مفاتيح الغيب على الله سبحانه وتعالى قصراً حقيقياً بمعنى أن الصفة « علم مفاتيح الغيب »

(١) سورة الأنعام ، آية ٥٩ .

لا يتصف بها أحد على الإطلاق إلا هو سبحانه .

والإضافي : أن يختص المقصور بالمقصور عليه ، بالنسبة إلى شيء آخر معين ، أي بالإضافة إليه ، بألا يتجاوز المقصور المقصود عليه إلى ذلك الشيء المعين ، وإن أمكن أن يتجاوزه إلى غيره - كما تقول : « ما شوقي إلا شاعر » فإن الغرض تخصيص (شوقي) بالشعر ، وقصره عليه بحيث لا يتعداه إلى شيء معين بالذات هو الكتابة مثلاً ، أي : أن له صفة الشعر لا صفة الكتابة ، وهذا لا ينافي أن له صفات أخرى كالخطابة ، والتجارة وغيرهما .

فالقصر في المثال المذكور : إنما هو بالنسبة إلى الكتابة فحسب ، أي : بالإضافة إليها ، ولهذا سمي قصراً إضافياً .

ثانياً : ينقسم القصر باعتبار الطرفين : المقصور والمقصود عليه .

إلى قصر صفة على موصوف ، وقصر موصوف على صفة .

فقصر الصفة على الموصوف : هو ألا تتجاوز الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر أصلاً - إذا كان القصر حقيقياً ، أو إلى موصوف آخر معين ، إذا كان القصر إضافياً .

فمثال قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً ، قولنا : « لا خالق إلا الله » قصر صفة الخلق على الله - سبحانه وتعالى - بحيث لا تتعداه إلى غيره أصلاً قصراً حقيقياً .

ومثال قصر الصفة على الموصوف قصراً إضافياً قول الشاعر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس إنني أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

فقد قصر « أشكو » صفة على « إلى الله » موصوف بحيث لا تتعداه إلى شيء معين وهو « الناس » كما في البيت ومنه قولك :

« ما جواد إلا حاتم » فقد قصرت صفة الجود على حاتم بحيث لا تتعداه

إلى رجل بعينه كزيد مثلاً .

وأما قصر الموصوف على الصفة فهو ألا يتجاوز الموصوف تلك الصفة إلى صفة أخرى أصلاً ، إذا كان القصر حقيقياً . أو إلى صفة أخرى معينة ، إذا كان القصر إضافياً .

فمثال قصر الموصوف على الصفة قصرأ حقيقياً نحو : « ما زيد إلا كاتب » إذا أريد أنه لا يتصف بغير الكتابة ، وهذا النوع لا يكاد يوجد من البلوغ لتعذر الإحاطة بصفات الشيء حتى يمكن إثبات شيء منها ونفي ما عداها نفيًا شاملاً بل ، هذا محال .

ومثال قصر الموصوف على الصفة قصرأ إضافياً قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾^(١) والمعنى أنك لا تسمع الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم أي : كما لا تسمع من مات كذلك لا تسمع من مات قلبه . وما أنت إلا رسول منذر ليس عليك إلا الإنذار والتبليغ ، والهدى والضلالة بيد الله .

فالآية قصرت الرسول ﷺ على صفة الإنذار ، دون أن يملك تحويل القلوب المشركة عما هي عليه من العناد والمكابرة .

والمراد بالصفة هنا الصفة المعنوية التي هي معنى قائم بالغير سواء كان فعلاً أو مصدرأ أو اسماً جامداً أو مؤولاً . وليس المراد بها النعت النحوي ، لأنه لا يقع قصر بين النعت ومنعوته ، فالقصر يقتضي الفصل « بإلا » لفظاً كما في طريق القصر « ما وإلا » أو معنى كما في طريق القصر الآخر « إنما » ، والصفة - كما هو معلوم - لا تنفصل عن موصوفها .

والمراد بالموصوف هنا كل ما يقوم به غيره ، وإن كان هو في نفسه صفة

(١) سورة فاطر ، آية ٢٢ و ٢٣ .

كما في قوله تعالى : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ ^(١) فقد قصرت فيه العبادة على صفة التقريب قصر موصوف على صفة - في حين أن العبادة في ذاتها صفة قائمة بالغير .

ثالثاً : ينقسم القصر بحسب الحقيقة والادعاء إلى أربعة أقسام :

١ - قصر حقيقي تحقيقي : وهو ما كان النفي فيه عاماً يتناول كل ما عدا المقصور عليه ، في حقيقة الأمر وواقع الحال وذلك مثل قولنا : « ما كامل إلا الله » فقد قصرنا صفة الكمال على الله سبحانه وتعالى ، لا يتصف بها أحد على الإطلاق إلا هو جل وعلا . وأما الموصوف وهو « الله » فيتصف بصفات أخرى كالسمع والبصر والقدرة ، وكل صفات الكمال التي تليق بجلاله .

ومعنى حقيقي : أن المقصور أي - الصفة هنا - لا تتجاوز المقصور عليه إلى غيره أصلاً .

ومعنى تحقيقي أن هذا النفي مبني على حسب الواقع ونفس الأمر . وهذا واضح في المثال السابق حيث أن صفة الكمال لا يتصف بها أحد إلا الله .

٢ - قصر حقيقي ادعائي : وهو ما كان النفي فيه عاماً يتناول كل ما عدا المقصور عليه ، على سبيل الادعاء والمبالغة .

تأمل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ^(٢) برفع لفظ العلماء على أنه فاعل - تجدد المعنى أنه لا خاشي لله إلا العلماء . فقد قصرت الآية الكريمة صفة الخشية لله على العلماء ، قصر صفة على موصوف قصرأً حقيقياً ادعائياً ، لأن غيرهم قد يخشاه ، ولكن لا اعتداد بخشيته فهي بمنزلة العدم ، ويفيد القصر أن العلماء هم الذين يراقبون الله ويعظمون شأنه من بين

(١) سورة الزمر ، آية ٣ .

(٢) سورة فاطر ، آية ٢٨ .

سائر الخلق - لظهور دلائل قدرته لهم ، ووقوفهم على أسرار حكمته
وتدبيره .

ويقول الشاعر :

لا سيف إلا ذو الفقار ر ولا فتى إلا علي

فهو يريد إثبات القوة والمضاء لذي الفقار « وهو سيف سيدنا علي » ويريد
نفي القوة والمضاء عن كل سيف آخر ، كما يريد نفي الفتوة عن كل إنسان
وإثباتها « لعلي » وحده ، فالصفة في المثالين مثبتة للموصوف ومنفية عن كل
ما سواه ، فالقصر في البيت حقيقي ولكن الواقع يخالف ذلك وينقضه ، فهناك
سيوف كثيرة ماضية نفاذة ، وهناك ألوان من الفتوة لا تقل عن فتوة علي ، فنفي
المضاء عن غير (ذي الفقار) ونفي الفتوة عن غير (علي) ، ليس إلا من قبيل
المبالغة والادعاء ، أي : « القصر الحقيقي الادعائي » . فقد تناسى الشاعر
مضاء كل السيوف ، وفتوة كل الأبطال مبالغة منه في مدح ذي الفقار وعلي ،
فلم يعتد بغيرهما ، ونزل الغير منزلة العدم مبالغة وادعاء .

وقال رسولنا محمد ﷺ « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه
على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » .

وقوله : « لا حسد إلا في اثنتين » من القصر الحقيقي الادعائي ، قصر
الموصوف على صفة ، لأنه قصر فيه « الحسد » بمعنى الغبطة « موصوف »
على « الكون في اثنتين » « صفة » ، وكان ادعائياً لأن الحسد بمعنى الغبطة
يكون في غير الاثنتين ، فنزل غيرهما منزلة العدم على سبيل الإدعاء .

وكان المراد بالحسد في الحديث - الغبطة ، لأن الحسد معناه : إماً تمنى
زوال نعمة الغير مطلقاً ، وإما تمنى زوالها لنفسه ، وهو مذموم في الحالين -
أما الغبطة ، فهي تمنى مثل ما للغير ، وهي ممدوحة بخلاف الحسد ، فهو
مذموم حتى فيما استثناه الحديث .

وأثر لفظ « الحسد » - مع أنه مذموم - على لفظ « الغبطة » - مع أنه ممدوح للإشارة إلى أنَّ في « الغبطة » شائبة من الحسد ، وهو : التطلع إلى ما عند الغير ، وبهذا يكون الحامل عليها حب المنافسة ، ومن غير شك أن المنافسة في الخير ممدوحة ، ولكن هناك درجة أرقى منها ، وهي إرادة الخير لذات الخير ، لا لمنافسة الغير فيه ، لأن المنافسة قد تحمل على الحسد عند الإخفاق فيها ، بخلاف إرادة الخير لذات الخير .

هذا . . . والتعبير عن « الغبطة » بلفظ « الحسد » من قبيل الاستعارة شبه الغبطة بالحسد بجامع ما فيهما من التطلع إلى ما عند الغير ، ثم استعير لفظ المشبه به « الحسد » للمشبه « الغبطة » على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

والقصر الحقيقي الادعائي كثير في كلام العرب ، ينطقون به لإفراغ عاطفتهم ، وإبراز ما يريدون التعبير عنه ، فيقولون : ما مؤدب إلا فلان ، وما عالم إلا فلان ، لا يقصدون أن ينفوا الأدب عن غيره في الواقع ونفس الأمر ، ولكن يريدون أن يظهروا إعجابهم بعلمه وأدبه ، لدرجة أنهم لا يعترفون بعلم غيره وأدبه إذا قورن بعلم « فلان » الذي يتحدثون عنه : أي ينزلون أدب وعلم غيره منزلة العدم .

٣ - قصر إضافي حقيقي ، وهو : أن يختص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة لمعين ، لا لجميع ما عداه ، نحو : « لا جواد إلا علي » ، فإن الجود هنا مقصور على « علي » بالنسبة إلى شخص آخر كأحمد مثلاً ، ونحو : « ما شوقي إلا شاعر » فليس المقصود أن شوقياً مقصور على الشعر وحده ، بحيث لا يتعداه إلى أي شيء آخر ، لأن الحقيقة والواقع خلاف ذلك أيضاً ، وإنما المقصود أنه مقصور على الشعر بالإضافة إلى شيء آخر معين كالكتابة مثلاً .

٤ - قصر إضافي على سبيل الادعاء والمبالغة : مثاله في قصر الموصوف

على الصفة قولك : « ما زيد إلا كاتب » فقد قصرت زيدا على صفة الكتابة بالنسبة إلى صفة الشعر ، إذا كان شاعراً أيضاً ، ولكنك تناسيت صفة الشعر ونزلتها منزلة العدم بالقياس إلى صفة الكتابة البارزة فيه .

ومثاله في قصر الصفة على الموصوف قولك : « ما كريم إلا علي » فقد قصرت صفة الكرم « علي » بالنسبة إلى « سعيد » ، إذا كان سعيد كريماً أيضاً ، ولكنك تناسيت ذلك ، ونزلت صفة « الكرم » في « سعيد » منزلة العدم بالقياس إلى كرم « علي » .

الفرق بين القصر الحقيقي الادعائي والقصر الإضافي

إذا تأملنا في هذين القصرين سنجد أن الفرق بينهما دقيق ، وذلك لأن قصر الموصوف على الصفة مثلاً إذا كان حقيقياً ادعائياً اعتبر في مفهومه سلب سائر الصفات عنه ، ولا يشترط فيه اعتقاد المخاطب على أحد الأنحاء المعتبرة في الأفراد ، والقلب ، والتعيين كما سيأتي ، وذلك السلب يقتضي عدم الاعتداد بسائر الصفات .

وإذا كان القصر إضافياً اعتبر فيه سلب بعض ما عدا تلك الصفة عنه ، ويشترط فيه اعتقاد المخاطب على أحد تلك الأنحاء المعتبرة في قصر الأفراد والقلب والتعيين كما سيأتي - وليس فيه عدم الاعتداد بسائر الصفات ، ويشارك معاً في جواز اتصاف الموصوف بصفات مغايرة للصفة التي قصر الموصوف عليها ، ولهذا الاشتراك دق الفرق بينهما^(١) .

رابعاً : يقسم القصر الإضافي فقط بحسب حال المخاطب ثلاثة أقسام :

١ - قصر الأفراد : وهو تخصيص أمر بأمر دون آخر ، ويخاطب به من يعتقد الشركة ، تقول في قصر الصفة على الموصوف : « لا شاعر إلا شوقي »

(١) أنظر حاشية السيد علي المطول ، ص ٢٠٦ .

إذا كان المخاطب يعتقد اشتراك عمرو وشوقي في الشاعرية . وفي قصر الموصوف على الصفة تقول : « ما شوقي إلا شاعر ، إذا كان المخاطب يعتقد اتصاف شوقي بالشعر والكتابة .

ويشترط في قصر الموصوف على الصفة إفراداً ، عدم تنافي الوصفين حتى يمكن اجتماعهما في زعم المخاطب ، فيرد المتكلم على المخاطب . بأن الموصوف متصف بأحدهما دون الآخر .

وعلى ذلك لا يصح في قصر الأفراد أن تقول : « شوقي شاعر لا مفحم » لأن الشاعرية والإفحام وصفان متنافيان ، ولا يمكن اجتماعهما لموصوف واحد .

٢ - وقصر القلب هو : تخصيص أمر بأمر مكان آخر ، ويخاطب به من يعتقد العكس . مثال قصر الموصوف على الصفة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾^(١) في خطاب من يعتقد أن الله ثالث ثلاثة فقلبت الآية عليه معتقده .

وفي قصر الصفة على الموصوف « إنما القائد محمد » ، لمن يعتقد أن القيادة لعللي ، فتقلب عليه اعتقاده ، وتقصر القيادة على محمد .

٣ - وقصر التعيين هو : تخصيص أمر بأمر دون آخر ، ويخاطب به المتردد بين شيئين ، تقول في قصر الموصوف على الصفة : « البارودي شاعر لا ناثر » لمن يعتقد أحد الوصفين ثابت للبارودي .

وتقول في قصر الصفة على الموصوف . « ما شاعر إلا البارودي » ، لمن يعتقد أن البارودي وعلياً أحدهما شاعر ، لكنه لا يعلم على وجه التحقيق أيهما شاعر فتعين له واحداً منهما .

(١) سورة النساء آية ١٧١

مواقع القصر

يقع القصر بين ركني الجملة : اسمية كانت أو فعلية كما يقع بين غير الركنين ، وإليك صوراً لمواقع القصر المختلفة .

قصر المبتدأ على الخبر من قصر الموصوف على الصفة مثال ذلك قولك : (ما زيد إلا أخوك) و (ما الباب إلا ساج) و (ما هذا إلا زيد) ومثل هذا فمن قصر الموصوف على الصفة تقديرًا ، إذ المعنى أنه مقصور على الاتصاف بكونه أخًا ، أو ساجًا ، أو زيدًا .

أما إذا كان الخبر اسمًا جامدًا ، والمبتدأ مشتقًا ، فإن القصر يكون من قصر الصفة على الموصوف ، مثال ذلك قولك : (ما الكاتب إلا زيد) فهذا من قصر المبتدأ على الخبر ، إذ ليس من اللازم أن يكون المشتق هو الخبر - مقدماً أو مؤخرًا - كما هو الرأي عند النحاة ، لأن المتكلم في هذا المثال يقصد الحكم على الكاتب بأنه زيد ، ولا يقصد الحكم على زيد بأنه الكاتب

وقصر الخبر على المبتدأ من قصر الصفة على الموصوف مثال ذلك قوله تعالى : **اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ** ^(١) فالصفة المقصورة هنا هي الكائنة على الرسول ، على « البلاغ » موصوف ، أي : وظيفة الرسول هي البلاغ لا غيره من الحساب والثواب والعقاب والهداية .

وقوله تعالى : **﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾** ^(٢) فيه قصر صفة متعلق الجار على الموصوف الذي هو (البلاغ) وكذلك قوله : (وعلينا الحساب) .

(١) سورة المائدة ، آية ٩٨ و ٩٩ .

(٢) سورة الرعد ، آية ٤٠ .

وقصر الفعل على الفاعل مثل قولك : (لا ينال العلا إلا المجد) من قصر الصفة على الموصوف .

وقصر الفاعل على المفعول مثل : (ما ضرب محمد إلا زيداً) .

يجوز أن يكون من قصر الصفة على الموصوف ، أي : قصر الفعل الواقع من الفاعل على المفعول ، أي : الضرب الواقع من محمد على زيد .

ويجوز أن يكون من قصر الموصوف على الصفة ، أي قصر الفاعل على الفعل الواقع على المفعول ، أي قصر محمد على الضرب الواقع على (زيد) أي على ضرب زيد .

وقصر المفعول الأول على المفعول الثاني نحو : (ما أعطيت محمداً إلا كتاباً) و (ما منحت سيفاً إلا خالداً) .

وقصر الفاعل على الظرف مثل : (ما سافر علي إلا يوم الخميس) .

وقصر الفاعل على المفعول لأجله نحو : (زرتك محبة لا لشيء آخر) .

وقصر الفاعل على المفعول المطلق المبين للنوع مثل : (ما قاتل العرب إلا قتال الأبطال) .

(وما زرت المسجد الحرام إلا مرتين) .

في قصر الفاعل على المفعول المطلق المبين للعدد :

وقصر الفاعل على التمييز مثل : (ما طاب محمد إلا نفساً) .

وقصر الفاعل على الجار والمجرور مثل : (ما عنيت إلا بأمرك) ، وكذلك كل المتعلقات التي يقع فيها القصر ، ويكون القصر فيها من قصر الموصوف على الصفة ، أو من قصر الصفة على الموصوف ، بالاعتبارات السابقة والموضحة في قصر الفاعل على المفعول .

وقصر صاحب الحال على الحال من باب قصر الموصوف على الصفة
مثل : (إنما ينتصر المسلمون متحدين) .

ومن قصر الصفة على الموصوف في نحو : (ما جاء راكباً إلا محمد) .

ولا يقع القصر بين الفعل ومصدره المؤكد ، فلا تقول : (ما ضربت إلا
ضرباً) وأما قوله تعالى : (إن نظن إلا ظناً) - فمعناه : إن نظن إلا ظناً
ضعيفاً ، فهو مصدر مبين للنوع .

وكذلك لا يقع القصر بين الفعل والمفعول معه ، لأنه لا يجيء بعد
(إلا) فلا يقال : (ما سرت إلا والنيل) .

طرق القصر

للأديب أن يؤدي معنى القصر بأساليب متنوعة :

تراه يقول : (انتصر الجيش الإسلامي وحده) وذلك باستعماله للفظ
(وحده) .

وتارة تراه يقول : (نبيل مقصور على الكتابة) فيستعمل لفظ
(مقصور) .

وأحياناً يستعمل لفظ (فقط) فيقول : (البحري شاعر فقط) .

وفي القرآن الكريم : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) فجاء القصر
بصريح لفظ (يختص) وتقول أيضاً : (زيد مخصوص بالقيام) ويقولون :
(جاء زيد نفسه) أي لا غيره .

وهذه الأساليب على الرغم من إفادتها معنى القصر نجد علماء البلاغة قد

(١) سورة البقرة ، آية ١٠٥ .

جعلوها من القصر اللغوي ، ولم يعتبروها من القصر الاصطلاحي ، لأنها لا تحقق الأغراض البلاغية التي تفاد من طرق القصر التي تواضعوا عليها - كالتأكيد والحسم والتصوير والتعريض وغير ذلك كما سنرى فيما يستقبل من البحث .

هذا !! وطرق القصر التي اصطالحوا عليها هي :

- ١ - العطف .
- ٢ - النفي والاستثناء .
- ٣ - إنما .
- ٤ - تقديم ما حقه التأخير .
- ٥ - توسط ضمير الفصل .
- ٦ - تعريف ركني الإسناد .

١ - العطف بلا ، أو بل ، أو لكن :

أسلوب القصر يتحقق بوجود النفي والإثبات في العبارة نقول : (زيد شاعر لا كاتب) فنجد أننا أثبتنا الشعر (لزيد) قبل حرف العطف (لا) ونفيها عنه الكتابة بحرف العطف (لا) المذكور ، ونقول أيضاً : (ما زيد كاتباً بل شاعراً) أو (ما زيد كاتباً لكن شاعراً) فنجد أننا نفيها الكتابة وأثبتنا الشعر . ونلاحظ أننا في هذه الأمثلة قد صرحنا بالطرفين المنفي والمثبت وهذا لا يتأتى إلا إذا كان القصر بطريق العطف ولذا درج البلاغيون على تقديم العطف على بقية الطرق وجعلوه من أقوى طرق القصر ، للتصريح فيه بالطرفين المنفي والمثبت بخلاف غيره ، فإن النفي فيه - كما سنرى - ضمني .

ونرى البلاغيين يذكرون بعده طريق (النفي والاستثناء) لأنه أصرح من طريق (إنما) ، ويؤخرون طريق (التقديم) لأن دلالة على القصر ذوقية لا وضعية .

و(لا) تفيد القصر إذا عطفت مفرداً ، ولم يتقدمها نفي أو نهي . وألا يكون ما بعدها داخلاً في عموم ما قبلها .

وهي صالحة لكل أنواع القصر . لأنه إذا كان المعطوف أي المنفي :
خاصاً نحو : (زيد شاعر لا عمرو) فالقصر إضافي ، وإذا كان المعطوف أي
المنفي عاماً نحو : (زيد شاعر لا غير زيد) فالقصر حقيقي .

والمقصود عليه مع (لا) هو المعطوف عليه بها دائماً أو بعبارة أخرى :
المقصود عليه مع (لا) هو المقابل لما بعدها .

فمثال العطف (بلا) في قصر الصفة على الموصوف ، قولنا (شوقي
شاعر لا الرافعي) فقد قصرت صفة الشاعرية على شوقي ونفيت عنها
الرافعي .

فإن كان الخطاب مع من يرى العكس فالقصر قصر قلب ، وإن كان مع
من يعتقد الاشتراك كان قصر أفراد ، وإن كان مع من يتردد فيكون قصر
تعيين .

وتأمل قول أبي تمام في فتح عمورية :

بيض الصفائح ، لا سود الصحائف في

متونهن جلاء الشك والريب

وبيض الصفائح : كناية عن السيوف . متونهن : جوانبهن . جلاء :
كشف ، والريب : الظنون . يقول : إن السيوف البيضاء هي التي تزيل الشك
وتظهر الحقيقة ، أما صحائف المنجمين السوداء ، فإنها تضيّع الحقائق وتشر
الآباطيل (وبيض الصفائح لا سود الصحائف) أسلوب قصر ، فجلاء الشك
والريب مقصور على بيض الصفائح . قصر صفة على موصوف ، وتحس في
هذا الأسلوب الحسم والرد القوي على هؤلاء المنجمين الذين شككوا في

فتح « عمورية » حصن الروم المنيع ، ومسقط رأس « إمبراطور الروم » ، وكان المنجمون قد زعموا للمعتصم الخليفة العباسي في سنة ٢٢٣هـ - أنها لن تفتح إلا في شهر صفر ، وحذروه من التعجل في الزحف عليها . ولكنه لم يعبأ بمزاعمهم ، وزحف بجيشه فاكسح أنقرة ، واتجه إلى عمورية فذك قلاعها وتركها طعاماً للنيران ، أما إمبراطور الروم فولّى مهزوماً هارباً من وجه الفتح الإسلامي الظافر ، وكان أبو تمام ممن شهدوا هذه الموقعة فصور أحداثها تصويراً رائعاً .

ويقول آخر :

عمر الفتى ذكره لا طول مدته وموته خزيه لا يومه الداني

يقول : إن حياة المرء لا تقاس بطول المدة ، ولكن بالذكر الخالد ، وأن انموت لا يكون بمفارقة الحياة ، بل بما يرضى به بعض الأحياء من خزي وهوان ، وقد جاء في كل شطر بقصر ، إذ قصر العمر على الذكر في الشطر الأول ، قصر موصوف على صفة ، وقصر الموت « موصوف » على الخزي « صفة » في الشطر الثاني ، والذي دل على القصر فيها هو العطف (بلا) في قوله : (لا طول مدته) (لا يومه الداني) ونقول : المرء بفعله لا بكلامه قصر موصوف (المرء) على صفة (بفعله) وهو قصر قلب لأنه رد على مخاطب يعتقد العكس .

ونقول : ارتقى العرب بالإسلام لا بغيره من قصر الموصوف على الصفة إذا قصرنا (العرب) على الجار والمجرور (بالاسلام) المتعلق بالفعل (ارتقى) ومن قصر الصفة على الموصوف إذا قصرنا الفعل ارتقى الحاصل بالاسلام على الموصوف « العرب » وفي كلتا الحالتين يفيد الأسلوب الحسم والقطع والتقرير والإيجاز في الموازنة .

ويقولون : الأرض متحركة لا ثابتة ، قصر موصوف على صفة حيث قصر

« الأرض » على « متحركة » فأثبت للأرض التحرك ونفي عنها الثبوت .

و (بل) تفيد القصر ، إذا وليها مفرد ، وتقدمها نفي أو نهي لأنها في هذه الحال تقرر حكم ما قبلها ، وثبتت ضده لما بعدها فتضمن النفي والإثبات وذلك عماد القصر . والمقصود عليه مع (بل) هو ما بعدها . وهي صالحة للقصر الإضافي فقط إفراداً وقلباً وتعييناً ، ولا تصلح للقصر الحقيقي ، لأن المنفي معها دائماً يكون أمراً خاصاً .

تقول : ما الفخر بالنسب بل بالعمل ، فقد نفيت أن يكون النسب سبباً للفخر ، وأثبت أن العمل هو السبب في الفخر ، وبهذا النفي للأول والإثبات للثاني يتحقق القصر ، والقصر في هذا المثال من قبيل قصر الموصوف على الصفة ، فقد قصر الفخر (موصوف) على الجار والمجرور (بالعمل) صفة وتأمل قول الشاعر :

ليس اليتيم الذي قد مات والده بل اليتيم يتيم العلم والأدب
فهو من قصر الموصوف على الصفة حيث قصر اليتيم (موصوف) على (يتيم العلم والأدب) صفة ، أي : الحرمان من العلم والأدب .

ونقول : (ليست الدنيا دائمة بل زائلة) ، فهذا من قبيل قصر الموصوف (الدنيا) على الصفة (زائلة) .

ونقول : « ليست خدمة المجتمع ذلاً بل شرفاً » قصر موصوف على صفة والمنفي مع (بل) أمر خاص كما ترى ، لذلك كان القصر معها من قبيل القصر الإضافي كما أشرنا من قبل ، وعلى ذلك إذا كان الخطاب مع من يرى العكس فالقصر قصر قلب ، وإن كان مع من يعتقد الاشتراك كان قصر إفراد ، وإن كان مع من يتردد فيكون قصر تعيين .

و (لكن) لا تكون عاطفة تتضمن القصر إلا إذا سبقها نفي أو نهي ، ووليها مفرد ولم تقترن بالواو ، وهي حينئذ تفيد تقرير نفي ما قبلها ، وإيجاب ما

بعدها ، وبالنفي والاثبات يتحقق القصر .

والمقصود عليه مع (لكن) هو المعطوف بها أي ما بعدها .

تأمل قول الشاعر :

ما نال في دنياه وإن بغية لكن أخو حزم يجد ويعمل

الواني : المتراحي : يقول : إن الدنيا كفاح وميدان يتسابق فيه الأفراد فمن جد فيه وجد ومن زرع فيه حصد ، والذي يصل إلى هدفه هو الجاد الذي يكد ويكدح ويسابق ويغالب والبيت من قصر الصفة (نيل البغية) على الموصوف (أخو الحزم) .

ونقول : « ما الفخر بالنسب لكن بالتقوى » فقد قصرنا الفخر (موصوف) على التقوى (صفة) .

ونقول : « ليست الدنيا باقية لكن زائلة » فقد نفينا البقاء عن الدنيا ، وأثبتنا لها الزوال ، وفي ذلك قصر موصوف على صفة أي قصر الدنيا على الزوال .

والقصر مع « لكن » من قبيل القصر الإضافي بأنواعه الثلاثة القلب والإفراد والتعيين بحسب اعتقاد المخاطب ، لأن المنفي معها دائماً يكون أمراً خاصاً .

٢ - النفي والاستثناء :

والنفي يكون بأي أداة من أدوات النفي كليس وما ، وإن (بسكون النون وكسر الهمزة) ، وغيرها ، ومثل النفي في هذا النهي والاستفهام .

والاستثناء يكون بإلا ، وسوى ، وغير .

ووجه إفادة (النفي والاستثناء) للقصر هو : أن النفي في الاستثناء

المفرغ^(١) متوجه إلى مقدر : هو مستثنى منه ، لأن (إلا) للإخراج والإخراج يقتضي مخرجاً منه .

وهذا المستثنى منه لا بد أن يكون عاماً ليتناول المستثنى وغيره فيتحقق الإخراج .

هذا المستثنى منه العام يشترط فيه أن يكون مناسباً للمستثنى في جنسه وصفته بأن يقدر في نحو : (ما ضرب إلا زيد) ما ضرب أحد ، وفي نحو ما كسوته إلا جبة (ما كسوته لباساً إلا جبة) وفي نحو : (ما جاءني إلا راكباً) ما جاءني كائن على حال من الأحوال إلا راكباً ، وفي (ما سرت إلا يوم الجمعة) ما سرت وقتاً من الأوقات إلا يوم الجمعة ، وفي (ما صليت إلا في المسجد) ما صليت في مكان من الأمكنة إلا في المسجد ، وكذلك الصفة الإعرابية فيأتي المقدر العام فاعلاً أو مفعولاً أو حالاً على حسب العوامل .

وإذا كان النفي متوجهاً إلى هذا المقدر العام المناسب للمستثنى في جنسه وصفته ، فإذا أوجب من ذلك المقدر شيء (بإلا) جاء القصر ، لأن ما عدا هذا المثبت يظل باقياً على صفة الانتفاء وكل قصر يفيد إثباتاً ونفيّاً ، أي إثبات المقصور للمقصور عليه ، ونفيه عمّا سواه على الإطلاق في القصر الحقيقي وعمّا سواه لمعين كما في القصر الإضافي .

والمقصور عليه - إذا كان القصر (بما وإلا) بعد أداة الاستثناء ، تقدم أو تأخر .

يقول زهير بن أبي سلمى :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

(١) الاستثناء المفرغ هو : الذي ترك فيه المستثنى منه ففرغ الفعل الذي قبل (إلا) وشغل عنه بالمستثنى المذكور بعد (إلا) .

ذقتم : جريتم . الحديث المرحم : هو المظنون .

المعنى : إن مساوىء الحرب معروفة لكم يقيناً والحديث عنها ليس رجباً بالغيب يعتمد على الظن ، فقد ذقتم مرارتها .

والبيت من معلقة زهير المشهورة قالها في مدح (هرم بن سنان ، والحرث بن عوف) حينما قاما بالصلح بين (عبس وذبيان) ، وتحملتا ديات القتلى التي بلغت ثلاثة آلاف جمل .

بدأ زهير المعلقة بوقفه بين الأطلال ، ثم مدح السيدين ، وحذر من الغدر وذلك عبر أساليب طلبية تكشف عن تعجبه وحيرته وحنينه إلى الصلح وأساليب خبرية توحى بالأفعال الجميلة الثابتة ، ثم أساليب شرطية تفيد تأكيد غرضه ، حتى إذا ما وصل إلى التفسير من الحرب وويلاتها تجده قد استعمل أسلوب القصر ، ليؤكد معرفة قومه للحرب ومساوئها في قوله : وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ، وأتى بـ (ذقتم) بعد علمتم ليدل على الممارسة والتجربة العملية ، وتحسن أن الشاعر باستعماله لأسلوب القصر أفرغ ما في نفسه وأعاد صورة الحرب وويلاتها أمام قومه ، ليصل إلى تحقيق غرضه^(١) .

والقصر في البيت من قبيل قصر الموصوف على الصفة .

ويقول قعنب ابن أم صاحب في قوم يناصبونه العداء فيصف أرضهم :
لا نوم إلا على خوف وزلزلة فيها ولا مال إلا السيف والبدن

الزلزلة : التخويف والتحذير ، والزلازل : الشدائد والأحوال .

والبدن : الدرع .

والمعنى : يقول : إن هؤلاء الذين نزلت عندهم صاحبتهم لا نوم لهم ولا

(١) أنظر ديوان زهير شرح ثعلب ص ٤ - ١٨ طبعة دار الكتب نشر الدار القومية .

راحة إلا على أهواء الخرب وشدائدها ، ولا مال لهم إلا أسلحة الهلاك والدمار ، شأن الدول التي في حرب مستمرة .

وأسلوب القصر في قوله : « لا نوم إلا على خوف وزلزلة » من قصر الموصوف على الصفة ، أي : قصر النوم على الخوف قصرأ حقيقياً ادعائياً ، أيضاً والقصر من قبيل قصر الموصوف على الصفة^(١) .

وتدبر قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) . تتحدث الآية عن التوابين الذين إذا فعلوا فعلة فاحشة أي : معصية أو ظلموا أنفسهم باقتراف ذنب من الذنوب ذكروا وعد الله ووعيده فطلبوا المغفرة لذنبهم من الله سبحانه . وقوله (ومن يغفر الذنوب إلا الله) أسلوب قصر أي قصر مغفرة الذنوب « صفة » على لفظ الجلالة « موصوف » قصرأ حقيقياً تحقيقاً وطريقه « النفي والاستثناء » لأن الاستفهام « بمن » بمعنى النفي والتعبير بالاستفهام في مكان النفي يحرك المشاعر ، ويفيد الإنكار مع ما يتضمنه من الدلالة على أنه المختص بذلك سبحانه دون غيره : أي لا يغفر جنس الذنوب أحد إلا الله ، وهذا الأسلوب تحس فيه الترغيب لطلب المغفرة من الله جلّت قدرته ، والدعوة للجادة للمذنبين أن يقفوا في مواقف الخضوع والتذلل لخالقهم ، تطهيراً لنفوسهم وطمعاً في التوبة والغفران .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾^(٣) والمعنى ما جزاء من أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة ، قصرت الآية الكريمة جزاء الإحسان « موصوف » على الإحسان « صفة » فليس جزاء

(١) أنظر فن التعبير في مختارات شعراء العرب لابن الشجري للمؤلف ص ٢٨ طبع المحمدية .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٣٥ .

(٣) سورة الرحمن ، آية ٦٠ .

الإحسان شيئاً من الأشياء إلا الإحسان . وجزاء الإحسان قد يكون إحساناً ، وقد يكون إساءة ، ولكن الآية تقصر جزاء الإحسان على الإحسان ، وتنفيه عن كل ما عدا الإحسان من ضروب الجزاء ، وأن غير الإحسان لا ينبغي أن يسمى جزاء للإحسان ، وجاء القصر بالنفي والاستثناء ليؤكد هذه الحقيقة ويقررها في نفوس المنكرين والقصر حقيقي ادعائي مبني على المبالغة ، ولعلك لاحظت أن الاستفهام « بهل » بمعنى النفي ، والتعبير بالاستفهام في مكان النفي يحرك المشاعر ، ويدعوك للبحث عن الجواب ، وفي الآية لن تجد جزاء إلا الإحسان .

ويقول المتنبي في مدح أبي شجاع فاتك :

لا يدرك المجد إلا سيد فطن لما يشق على السادات فعال

يشق : يصعب ، والسادات جمع سيد ، والمعنى : يقول : لا يدرك المجد والسيادة ، وعلو القدر إلا من يفعل ما يشق على الكرماء ، والقصر في قوله : « لا يدرك المجد إلا سيد فطن » قصر إدراك المجد « صفة » على السيد العاقل المدبر « موصوف والقصر حقيقي ادعائي مبني على المبالغة »^(١) . وإذا قرأت القصيدة تحس إحساساً قوياً عند قراءة هذا البيت أن المتنبي أفرغ عاطفته نحو الممدوح بواسطة أسلوب القصر كما ترى .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾^(٢) والخطاب في الآية موجه إلى أصحاب سيدنا عيسى عليه السلام حين ذهبوا إلى أهل أنطاكية يدعونهم إلى عبادة الله ،

(١) أنظر ديوان المتنبي ص ٢٧٦ - ٢٧٩ ج ٢ المجلد الثاني نشر دار المعرفة بيروت . وأبو شجاع فاتك هو : فاتك الكبير المعروف بالمجنون ، كان رومياً أخذته الإخشيد كرهاً من سيده بلا ثمن ، وأعتقه وأبقاه عنده حراً في عداد مماليكه ، وكان شجاعاً كثير الإقدام ، ولذلك سمي بالمجنون توفي سنة ٣٥٠ هـ .

(٢) سورة يس ، آية ١٥ .

فاجاب اهل انطاكية الرسل بقولهم : ما أنتم إلا بشر مثلنا : أي مشاركون لنا في البشرية ، فليس لكم مزية علينا تختصون بها ، إذ كانوا يعتقدون أن الرسل يجب أن يكونوا من جنس الملائكة ، ثم صرّحوا بجحود إنزال الكتب السماوية فقالوا : ﴿ وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ مما تدعونه أنتم ويدعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل وأتباعهم ﴿ إن أنتم إلا تكذبون ﴾ أي : ما أنتم إلا تكذبون في دعوى ما تدعون من ذلك .

فقولهم : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ أسلوب قصر من قبيل قصر الموصوف على الصفة قصر قلب باعتبار اعتقاد المتكلمين حيث اعتقدوا أن الرسل بادعائهم الرسالة جعلوا أنفسهم من جنس الملائكة وأخرجوا أنفسهم من جنس البشرية فقبلوا هذا الاعتقاد فقالوا : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ أي مقصرون على البشرية لا تتعدونها إلى جنس الملائكة .

وفي قولهم : ﴿ وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ إن أنتم إلا تكذبون ﴿ قصر آخر من قبيل قصر الموصوف على الصفة قصر تعيين ويكون المعنى : لستم في دعواكم للرسالة عندنا بين الصدق والكذب كما يكون ظاهر حال المدعي إذا ادعى أمراً ، بل أنتم عندنا كاذبون فيها ، فالقصر على الكذب قصر تعيين وهذا يصح بتنزيل المشركين للرسل منزلة المترددين بين الصدق والكذب مبالغة في انكارهم لدعواهم وإعراضهم عنها .

وتأمل الآية الكريمة : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

في هذه الآية تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى ، ولهذا قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، أي : العليم بكل

(١) سورة البقرة ، آية ٣٢ .

شيء ، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ، ومنعك ما تشاء لك
الحكمة في ذلك والعدل التام .

والقصر في ﴿ لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ قصر علمهم على ما علمهم الله ،
من قصر الصفة على الموصوف قصرأ حقيقياً تحقيقاً ، لأن صفة العلم لا أحد
يستطيع أن يعلمها إلا الله .

وبلاغة القصر هي إظهار قدرة الله وتأكيدها تأكيداً حاسماً .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا
الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) أي أنزلنا إليك علامات واضحات دالة على نبوتك فلا يكفر
بهذه الآيات إلا الفاسقون . فالكفر بالآيات مقصور « صفة » ، والمقصود عليه
هم الفاسقون « موصوف » ، والصفة منفية عن كل ما عدا الموصوف بحسب
الواقع ونفس الأمر فالقصر حقيقي تحقيقي .

ومن قصر الصفة على الموصوف قوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا
الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) فقد قصر الاختلاف
« صفة » على الذين أوتوا الكتاب « موصوف » أي أن الاختلاف في الكتاب
مقصود على الذين أوتوا الكتاب لا يتجاوزهم إلى أحد غيرهم فيكون قصرأ
حقيقياً ، وهو مبني على المبالغة ، لأن الآية نزلت اختلاف غيرهم منزلة العدم
بالنسبة إلى اختلافهم لأنهم كانوا يعرفون النبي محمداً ﷺ ، كما يعرفون
أبناءهم فلما اختلفوا فيه عُدَّ هذا الاختلاف فظيعاً ونزل غيره منزل العدم ،
والقصر تصوير دقيق لحال أهل الكتاب وموقفهم من دين الإسلام .

ومن قصر الصفة على الموصوف قصرأ إضافياً : « ما عادل إلا أهل

(١) سورة البقرة ، آية ٩٩ .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢١٣ .

الدعوة إلى الله « فإن كان الخطاب مع من يزعم : أن العادل طائفة أخرى غير الدعاة إلى الله كان قصر قلب - وإن كان الخطاب مع من يزعم أن طائفة أخرى تشترك مع أهل الدعوة إلى الله في صفة العدالة كان قصر أفراد .

ومثاله في قصر الموصوف على الصفة قولنا : « ما زيد إلا شاعر » قصر أفراد ، إذا كان الخطاب لمن يعتقد اتصافه بالشعر وغيره .

وقلباً « ما زيد إلا قائم » لمن يعتقد أن زيداً قاعد .

وطريق القصر في هذه الأمثلة هو النفي والاستثناء كما رأيت .

وأما الاستثناء من الإثبات مثل جاء القوم إلا زيداً ، فسيرى جمهور البلاغيين أنه ليس بقصر ويجعلون القصر في النفي والإثبات من هذا النفي ، أي الاستثناء من هذا المنفي العام وقيل : إنه قصر أيضاً ، لأنك إذا قلت : « قام القوم إلا زيداً » قصرت عدم القيام على زيد ، ومن يذهب إلى أنه ليس بقصر يرى أنه قيد مصحح للحكم لا غير ، فكأنك في هذا المثال قلت : قام القوم المغاibرون لزيد ، وهذا بخلاف قولك : « ما جاءني إلا زيد » فإن الغرض منه النفي والإثبات المحققان للقصر ، ولهذا يستعمل النفي والاستثناء عند الإنكار بخلاف الاستثناء من الإثبات^(١) .

٣- إنما :

ومن طرق القصر « إنما » المركبة من « إن » - بكسر الهمزة وتشديد النون - التي هي لتأكيد النسبة ، و« ما » الكافة .

فمثال قصر الموصوف على الصفة أفراداً ، « إنما زيد كاتب » لمن يعتقد أنه كاتب وشاعر ، وقلباً نحو : « إنما زيد قائم » لمن اعتقد أنه قاعد ، وتعييناً نحو : « إنما شوقي شاعر » لمن يتردد بين كونه شاعراً أو كاتباً .

(١) أنظر عروس الأفراح وحاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ج ٢ ص ١٩١ طبع الحلبي .

ومثال قصر الصفة على الموصوف إفراداً « إنما قائم زيد » لمن يعتقد قيامه مع عمرو ، وقلباً لمن اعتقد قيام عمرو دون زيد وإذا كان المخاطب متردداً كان القصر قصر تعيين .

ويكون المقصور عليه مع « إنما » مؤخراً دائماً .

وتفيد « إنما » القصر لتضمنها معنى « ما . وإلا » ويدل على هذا التضمن ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : قول مفسري الصدر الأول : إن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ ^(١) بنصب الميته . معناه ما حرم عليكم إلا الميته ، وهذا المعنى هو المطابق لقراءة الرفع أي : رفع الميته . وقراءة رفع « الميته » تفيد القصر بتعريف المسند كما علمنا في مبحث تعريف المسند وإذا كانت قراءة « الرفع » تفيد القصر فقراءة النصب تفيده أيضاً .

ووجه صحة هذه الدعوى أن في الآية ثلاث قراءات .

القراءة الأولى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ بنصب الميته وحرم مبنياً للمعلوم .

القراءة الثانية : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ برفع الميته وحرم مبنياً للمعلوم .

القراءة الثالثة : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ برفع الميته وحرم مبنياً للمفعول .

والقراءات مهما تعددت فالغرض والمقصود من الآية واحد .

وإذا تأملنا في القراءة الثانية التي هي برفع « الميته » وحرم مبنياً للمعلوم

(١) سورة النحل ، آية ١١٥ .

سنجد أن « ما » المركبة مع « إن » موصولة والعلائق محذوف و« الميتة » بالرفع خبر لمبتدأ محذوف ، إذ لا يصح أن يكون فاعلاً للفعل « حَرَّمَ » المبني للمعلوم ، لأن فاعل « حرم » هو « الله » كما لا يخفى ، وعلى ذلك يكون المعنى : « إن الذي حَرَّمه الله عليكم هو الميتة » ، فجملة هو الميتة ، من مبتدأ وخبر - والخبر مُعَرَّفٌ . فهي تفيد القصر على ما مر بنا في مبحث تعريف المسند ، من أن نحو : « المنطلق زيد » و« زيد المنطلق » يفيد قصر الانطلاق على زيد .

وإذا رجعنا إلى القراءة الأولى : وهي فيها قصر لأن القراءة الثانية تفيد القصر كما علمنا ، لكننا سنجد أن « ما » المركبة مع « إن » في هذه القراءة الأولى التي بنصب الميتة وحرم مبنياً للمعلوم - لا تصلح أن تكون موصولة ، إذ لو كانت موصولة لبقيت « إن » بلا خبر والموصول بلا عائد : إذن لا بد أن تكون « ما » كافة أي كفت « إن » عن العمل ، وفاعل « حَرَّمَ » هو ضمير لفظ الجلالة ، و« الميتة » مفعول ، والمعنى ما حرم الله عليكم إلا الميتة .

وإذا كانت القراءة الأولى التي بنصب الميتة وحرم مبنياً للمعلوم لا يجوز فيها أن تكون « ما » موصولة ، وكان لفظ « الميتة » منصوباً وليس مرفوعاً ، وهما - كما علمت - أساساً القصر في القراءة الثانية . إذن لا بد أن يكون القصر في القراءة الأولى من طريق آخر غير تعريف المسند ، ولا ينتظر أن يكون إلا إذا كانت « إنما » متضمنة معنى « ما وإلا » ويكون معنى الآية « ما حَرَّمَ عليكم إلا الميتة » وبذلك تطابقت القراءتان الأولى والثانية وتحقق قول مفسري الصدر الأول أن « إنما » متضمنة معنى « ما وإلا » .

أما القراءة الثالثة برفع الميتة وحَرَّمَ مبنياً للمجهول فيحتمل أن تكون « ما » كافة وتكون « إنما » متضمنة معنى « ما وإلا » والمعنى « ما حَرَّمَ عليكم إلا الميتة » ، ويحتمل أن تكون « ما » موصولة أي إن الذي حَرَّمَ عليكم هو الميتة فتفيد القصر بطريق تعريف الطرفين .

والوجه الثاني : قول نحاة الصدر الأول : أن « إنما » لإثبات ما يذكر بعدها ونفي ما سواه ، أي لإثبات الحكم المتضمن لما بعدها ونفي ما سوى ذلك الحكم ، وهذا الكلام من النحويين يقتضي تضمينها لإثبات ونفي « كما وإلا » : أما في قصر الموصوف على الصفة ، نحو : « إنما زيد قائم » فهو لإثبات قيام زيد ونفي ما سواه من القعود ونحوه ، وأما في قصر الصفة على الموصوف ، نحو : « إنما يقوم زيد » فهو لإثبات القيام لزيد ونفي ما سواه من قيام عمرو وبكر وغيرهما . وهذا ما تفيد « ما وإلا » أو هو معنى القصر كما علمنا .

والوجه الثالث : صحة انفصال الضمير مع « إنما » نحو . « إنما يقوم أنا » .

ووجه صحة هذه الدعوى : أن انفصال الضمير لا يجوز إلا عند تعذر الإلتصال ، وفي مثال . « إنما يقوم أنا » لا نجد مانعاً من اتصال الضمير إلا إذا كان المعنى . « ما يقوم إلا أنا » لما علمنا في دراستنا النحوية أن « إلا » لا يليها إلا الضمير المنفصل .

وفصل الضمير عن عامله يجوز إذا كان لغرض ، وما دام أن الضمير فصل عن عامله بعد « إنما » فهي بمعنى « ما وإلا » أي بمعنى « النفي والاستثناء » وتؤدي غرضاً بلاغياً كما سيتضح من خلال الأمثلة التي سنعرضها عليك .

وانفصال الضمير عن عامله بعد « إنما » صحيح ووارد في اللغة ، والشاهد على ذلك قول الفرزدق الشاعر الأموي وهو من الذين يستشهد بشعرهم على صحة التراكيب وبلاغتها على خلاف في ذلك .

أنا الذائد الحامي الذمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

الذائد : من الذود وهو الدفع والطرده ، والذمار : ما يلزم الشخص حمايته

من أهل ومال ونحوهما . مأخوذ من الذم ، وهو الحث ، لأن ما يجب عليهم حمايته كانوا يتذامرون أي يحث بعضهم بعضاً على حمايته ، والأحساب : جمع حسب ، وهو ما يعده الشخص من مفاخر نفسه وآبائه .

يريد الشاعر أن يقصر الدفاع عن الأحساب على نفسه لا يتعداه إلى غيره لذلك فصل الضمير وأخره ، فكأنه قال . ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا أو مثلي ، قصر صفة « الدفاع » على الموصوف « أنا » قصراً حقيقياً ادعائياً ، أي أنه لا يوجد من يدافع عن الأحساب ، إلا هو ، أما غيره فلا يعتد بدفاعه أو في منزلة العدم ، ولذلك كان أبلغ من قولنا مثلاً : « إنما أدافع عن أحسابهم » من غير أن يفضل الضمير « أنا » لأن المعنى يصير « أنه يدافع عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم ، قصر موصوف على صفة أي أنه من جملة المدافعين أي : أنه يدافع عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم . وهو ليس بمقصود الشاعر لأنه قال هذا البيت في مقام الفخر ، والفخر يقتضي من الشاعر أن يقصر صفة الدفاع على نفسه وينزل غيره من المدافعين منزلة العدم أي لا يعتد بدفاعهم .

ونقول : « إنما يفهم البلاغة علي » فنجد أنه أبلغ من « إنما علي يفهم البلاغة » إذا كان المقام مقام فخر - لأن المثال الأول يقصر فهم البلاغة على « علي » لا يتعداه إلى غيره ، وفي المثال الثاني يقصر « علي » على فهم البلاغة أي أنه من جملة الفاهمين للبلاغة لا يتعدى فهمه إلى غيرها من العلوم كالنحو والصرف ونحوهما .

وقد يقال : إن القصر هنا بطريق تعريف ركني الإسناد . فما في « إنما » موصولة و « أنا » خبره ، وليست « إنما » بمعنى « ما وإلا » ، فيكون الداعي إلى فصل الضمير هنا وقوعه خبراً - وليس وقوعه بعد « إنما » التي بمعنى : « ما وإلا » وهذا لا يصح أيضاً لأن « ما » لغير العاقل .

والمقام مقام فخر كما وضحنا ، فهو يقتضي « مَنْ » الموصولة التي للعاقل ولا ضرورة تقتضي العدول عن لفظ « ما » فلو عُبِّرَ « بمن » هنا لم يحدث في الوزن أي تغيير . فواضح أنه يريد من « إنما » أن تكون بمعنى « النفي والاستثناء » أي « إنما » في البيت مركبة من « إن » و « ما » الكافة ، وليست مركبة من « إن » و « ما » الموصولة .

وقال السكاكي : وهناك وجه لطيف لإفادة « إنما » القصر ، يسند إلى علي بن عيسى الربيعي ، وهو أنه لما كانت كلمة « إن » لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه ، ثم اتصلت بها « ما » المؤكدة ، وليست « ما » النافية كما يظنه من لا وقوف له على علم النحو - ناسب أن يُضمَّن معنى القصر ، لأن القصر ليس إلا تأكيداً على تأكيد^(١) .

وإن كان هذا ليس مطرداً في كل الأساليب التي يجتمع فيها مؤكدان مثل « إنَّ زيداً لقائم » .

ومن القصر « بإنما » قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصْذِّكُمُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾^(٢)

توضح الآية الكريمة أن مفسد الخمر الدنيوية هي إيقاع العداوة والبغضاء وأن مفسادها الدينية هي : الصَّدَّ عن ذكر الله وعن الصلاة .

والقصر في الآية يجوز أن يكون من قصر الصفة على الموصوف ، بمعنى أنه قصر مراد الشيطان على إيقاع العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويجوز أن يكون من قصر الموصوف على الصفة بمعنى أنه قصر الشيطان على إيقاع العداوة والبغضاء والصد عن ذكر

(١) ص ١٥٨ - الفتاح .

(٢) سورة المائدة ، آية ٩١ .

الله وعن الصلاة - في الخمر والميسر .

والقصر حقيقي مبني على المبالغة ، وجاء القصر « بإنما » لتشير بأن هذا الأمر من الأمور المعلومة التي لا ينكرها أحد ، ولا يدفعها مدافع .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١) .

والمعنى : إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه ، وأغلظ من كل ذلك : القول على الله بلا علم ، والقصر في الآية يحتمل أن يكون قصر موصوف على صفة أي أن الشيطان « موصوف » مقصور على الأمر بالسوء والفحشاء والقول على الله بلا علم صفة قصرأ حقيقياً .

ويجوز أن يكون « صفة » الأمر بالسوء والفحشاء مقصورة على « الشيطان » موصوف .

وتقول الآية الكريمة في شأن الوصية : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٢) والمراد : أن من بدل الوصية وحرفها فغير حكمها وقع عليه الإثم ، والله مطلع عليه وكاشف أمره .

والقصر في الآية من قصر الصفة على الحوصوف ، أي : صفة الإثم أو العقاب على الذين بدلوا حكم الوصية والقصر حقيقي تحقيقي .

ومن قصر الموصوف على الصفة قول شوقي :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

(١) سورة البقرة ، آية ١٦٩ .

(٢) ر سورة البقرة ، آية ١٨١ .

فشوقي ينادي بإصلاح المجتمع بنفس جياشة وعاطفة قوية ، ورأى أن أهم شيء يجب البدء به : هو سلامة الأخلاق فجعل بناء الأمم وقوتها واستحقاقها للحياة أساسه : تقويم الأخلاق ونزل غيره منزلة العدم من القوة في الحرب والصناعة وغيرهما مثلاً منزلة العدم قصراً حقيقياً ادعائياً مبنياً على المبالغة في قيمة الأخلاق .

ومن قصر الموصوف على الصفة قول الشاعر :

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

يقرر الشاعر أن المرء عما قليل سيفنى ويندثر ، وسيصبح حديثاً يروى ، وإذا كان الأمر كذلك فعلى المرء أن يخط لنفسه صحيفة عطرة في حياته لتكون بعد مماته ذكراً طيباً ، فقد قصر المرء « موصوف على أنه سيكون خيراً يروى » صفة « والقصر حقيقي ، وتلمح فيه العاطفة القوية والدعوة الجادة إلى عمل الخير الذي سيقى بعد الممات .

وأما « أنما » بفتح الهمزة : عَدَّها من طرق القصر الزمخشري والبيضاوي فقالا في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ (١) .

أنما لقصر الحكم على شيء ، أو لقصر الشيء على حكم ، نحو : « أنما زيد قائم » و « إنما يقوم زيد » ، وقد اجتمع الأمران في هذه الآية ، لأن « إنما يوحى إلي » مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد ، وأنما إلهكم بمنزلة إنما زيد قائم .

وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إلى الرسول ﷺ مقصور على استئثار الله بالوحدانية :

وصرح التنوخي في الأقصى القريب بكونها للحصر ، فقال : كل ما

(١) سورة الأنبياء ، آية ١٠٨

أوجب إنمّا - بالكسر للحصر أوجب - أنمّا - بالفتح للحصر ، لأنها فرع عنها ،
وما ثبت للأصل ثبت للفرع ما لم يثبت مانع منه ، والأصل عدمه .

ورد أبو حيان على الزمخشري ما زعمه بأنه يلزمه انحصار الوحي في
الوحدانية ، وأجيب بأنه حصر مجازي باعتبار المقام ^(١) .

٤ - التقديم :

ومن طرق القصر تقديم ما حقه التأخير كتقديم الخبر على المبتدأ .

كما تقول : « مسلم أنا » من قصر الموصوف على الصفة . والمقصود
عليه هو المقدم .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي يفيد القصر إذا ولى حرف النفي
مثل قول المتنبي :

وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضمرت في القلب ناراً

أمّا إذا لم يل المسند إليه المقدم على خبره الفعلي - حرف النفي - فقد
يفيد القصر مثل « أنا سعت في حاجتك » و « أنت سعت في حاجتي » من
قصر الصفة على الموصوف أفراداً وقلباً وتعييناً بحسب اعتقاد المخاطب .

وقد يفيد التقوي مثل : « زيد يعطي الجزيل » ^(٢) .

وكذلك تقديم النكرة على الخبر الفعلي مثل : « رجل جاءني » يفيد قصر
الجنس ويكون المراد : رجل جاءني لا امرأة ، أو العدد ويكون المعنى :
« رجل جاءني لا رجلاً » .

وتقديم المعمولات على الفعل من مفعول وظرف وجار ومجرور يفيد

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن ح ١ ص ١٨٥ نشر دار الفكر العربي .

(٢) وقد استوفينا هذا الكلام في الجزء الأول من هذا الكتاب انظر ص ١٨٩ - ٢٠٦ .

القصر غالباً ، والمقصود عليه هو المقدم كماوضحنا قبل .

ومثاله في المفعول به قوله تبارك وتعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١) .

فتقديم المفعول «إياك» على الفعل «نعبد ، نستعين» لقصد الاختصاص أي : القصر ، والمعنى : نخصك بالعبادة ونخصك بالاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه - والعبادة أقصى غايات الخضوع لله والتذلل له وحده ، قصر موصوف «العبد» على صفة «العبادة لله والاستعانة به» .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢) .

قصر موصوف «ملك السموات والأرض» على الجار والمجرور «لله» صفة قصرأ حقيقياً تحقيقاً .

ومنه قول شوقي في مدح الرسول ﷺ :

بك يا ابن عبدالله قامت سمحة
بالحق من ملل الهدى غراء
قصر صفة على موصوف قصرأ حقيقياً .

وتقول : «راكباً حضرت إليكم» في تقديم الحال ، وفي المسجد صليت ، وظهرأ وصلت ، وكله من قصر الموصوف على الصفة ، قصرأ إضافياً ويكون من قصر الأفراد والقلب والتعيين بحسب اعتقاد المخاطب .

٥ - ضمير الفصل :

ومن طرق القصر «تعقيب المسند إليه بضمير الفصل لتخصيصه ، بمعنى

(١) سورة الفاتحة ، آية ٥ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٨٩ .

جعل المسند مقصوراً على المسند إليه بحيث لا يتعداه إلى مسند آخر ، وذلك مثل قولنا : « شوقي هو الشاعر » ضمير الفصل « هو » يفيد أن المسند وهو « الشاعر » مقصور على المسند إليه وهو « شوقي » بحيث لا يتعداه إلى أن يكون غير شوقي شاعراً .

والفصل هو صورة ضمير واقع بين المبتدأ والخبر أو ما أصلهما كذلك^(١) . والمقصور هو « الخبر » والمقصور عليه هو « المبتدأ » .

وإذا كان الطرفان معرفتين فالراجع أن السابق منهما مبتدأ واللاحق خبر .

وقد اتفق جمهور النحاة على أن « ضمير الفصل » حرف لا اسم والقائلون بأنه اسم أكثرهم على أنه لا محل له من الإعراب .

وضمير الفصل كما يفيد القصر يفيد أيضاً التأكيد ، والدلالة على أن ما بعده خبر للمبتدأ لا صفة^(٢) .

تأمل قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾^(٣) . ﴿ فلما توفيتني ﴾ قيل هذا يدل على أن الله سبحانه توفي سيدنا عيسى عليه السلام قبل أن يرفعه ، وليس بشيء ، لأن الأخبار قد تضافرت بأنه لم يمض ، وأنه باق في السماء على الحياة التي كان عليها في الدنيا حتى ينزل إلى الأرض آخر الزمان ، وإنما المعنى : فلما رفعتني إلى السماء ، قيل الوفاة في كتاب الله سبحانه جاءت على ثلاثة أوجه : بمعنى الموت ، ومنه قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾^(٤) - وبمعنى النوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ

(١) عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ضمن شروح التلخيص ج ١ ص ٣٨٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨٧ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ١١٧ .

(٤) سورة الزمر ، آية ٤٢ .

الَّذِي يَتَوْفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ﴿١﴾ أَي يَنِيْمُكُمْ ، وبمعنى الرفع ، ومنه (فلما توفيتني) - ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ (٢) - ﴿ كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أصل المراقبة : المراجعة ، أي كنت الحافظ لهم والعالم بهم والشاهد عليهم » (٣) .

وضمير الفصل « أنت » للقصر ، قصر صفة « المراجعة والحفظ والعلم على الموصوف ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ولولم يكن ضمير الفصل « أنت » للقصر لما حسن ، لأن الله لم يزل رقيباً عليهم - في جميع الأحوال - وإنما الذي حصل بتوفيته لعيسى عليه السلام - وقد كان شهيداً عليهم يراقبهم ويأمرهم بعبادة الله لم يبق لهم رقيب غير الله تعالى ، وينبغي لهذا أن يتعين إعرابه فصلاً (٤) .

وإذا جعلنا القصر حصل من تعريف الخبر « الرقيب » يكون ضمير الفصل لتأكيد القصر .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٥) تنفي الآية الكريمة التساوي بين أهل النار وأهل الجنة ، وتقرر أن أهل الجنة هم الظافرون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه .

وما دامت الآية الكريمة تقرر عدم الاستواء بين أهل النار وأهل الجنة فذلك لا يحسن إلا بأن يكون ضمير الفصل « هم » للاختصاص وهو من قصر

(١) سورة الأنعام ، آية ٦٠ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٥٥ .

(٣) فتح القدير للشوكاني المجلد الثاني ص ٩٥ نشر دار المعرفة - بيروت .

(٤) عروس الأفراح ص ٣٨٧ ضمن شروح التلخيص .

(٥) سورة الحشر ، آية ٢٠ .

الصفة على الموصوف أي قصر الفوز على أصحاب الجنة وتعين إعراب الضمير فضلاً ، ولا يجوز أن يعرب تأكيداً أو مبتدأً ثانياً .

وإذا جعلنا القصر حصل من تعريف الخبر « الفائزون » كان ضمير الفصل « هم » لتأكيد القصر .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾^(١) . والمعنى لا رازق سواه ولا معطي غيره ، فهو الذي يرزق مخلوقاته ، ويقوم بما يصلحهم ، فلا يشغلون بغير ما خلقوا له من العبادة ، ففي الآية قصر صفة « الرازق » على الموصوف وهو : « الله » سبحانه وتعالى وطريق القصر : ضمير الفصل « هو » ويجوز أن يكون طريق القصر في الآية الكريمة تعريف المسند « الرزاق » بالجنسية ، وعلى ذلك يكون ضمير الفصل « هو » لتأكيد القصر .

وتأمل الآية الكريمة : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ * وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٢) والمعنى : بل أأخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام يعبدونها ؟ فالله هو الحقيق بأن يتخذوه ولياً ، فإنه الخالق الرازق الضار النافع وهو يقدر على كل مقدور والحقيق بتخصيصه بالالوهية ، وإفراده بالعبادة ، ففي الآية الكريمة قصر ، وهو من قصر الصفة « الولي » على الموصوف « الله » وأداة القصر توسط ضمير الفصل « هو » بين المسند والمسند إليه .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٣) والمعنى : أن المتقين على نور من ربهم وبرهان واستقامة

(١) سورة الذاريات ، آية ٥٨ .

(٢) سورة الشورى ، آية ٩ .

سورة البقرة ، آية ٥ .

وسداد ، بتسديد الله إياهم وتوفيقه لهم ، وهم المفلحون المدركون ما طلبوا
عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله . وفي الآية قصر صفة
« المفلحون » على موصوف « المشار إليه بأولئك أي : « المتقون » .

وطريق القصر توسط ضمير الفصل « هم » بين المبتدأ والخبر ،

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾^(١) والمعنى : أن الذي
قصه الله على رسوله من نبأ عيسى لهو الحق ، والقصص التابع ، يقال :
فلان يقص أثر فلان ، أي يتبعه ، فأطلق على الكلام الذي يتبع بعضه بعضاً ،
وضمير الفصل للقصر ، ودخول اللام عليه لزيادة التأكيد . والمقصود
« القصص الحق » والمقصود عليه « المشار إليه بهذا وهو نبأ عيسى عليه
السلام » قصر صفة على موصوف .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾^(٢) والمعنى : إن عدو رسول
الله ﷺ هو المحروم من رحمة الله ، فقد قصرت الآية صفة « الأبر » على
الموصوف « شائئك » ، وطريق القصر هو « ضمير الفصل » - والقصر - في كل
ما عرضنا عليك - بلاغته في إيجازه وتقريره وحسمه .

٦ - تعريف المسند أو المسند إليه « بأل » الجنسية :

قالوا : إذا كان المبتدأ والخبر معرفتين فالراجح أن السابق منهما مبتدأ
واللاحق خبر وقد قيل : إن الإخبار بالمعلوم عن المعلوم لا يفيد أصلاً ، مثل
« زيد المنطلق » وأجيب بأن العلم بالمسندين بمعنى تحقق حصول مدلولهما
في الخارج الذي هو المراد هنا ، لا يستلزم العلم بنسبة أحدهما إلى الآخر ،
فإنك تعلم أن الشخص الفلاني يسمى « زيداً » . وأن هناك رجلاً موصوفاً

(١) سورة آل عمران ، آية ٦٢ .

(٢) سورة الكوثر ، آية ٣ .

بالانطلاق ، ولا تعلم أن الموصوف بذلك الانطلاق هو ذلك الشخص المسمى « يزيد » .

فالكلام المعروف الجزئين يفيد أي فائدة ، وهذه الفائدة المحصلة عند تعريف الجزئين إذ اقتضاها المقام لكونها هي التي يترقبها السامع ، أو كالمتروك لها صارت نكتة يطابق بها مقتضى الحال ، فالمراد أن متناول هذا التركيب يؤتى به عند مناسبة المقام ، ولا يعدل عنه إلى غيره^(١) .

ولا يقال : « زيد » في قولك : « زيد المنطلق » أنه دال على الذات فهو متعين للابتداء تقدم أو تأخر ، والمنطلق دال على أمر نسبي فهو متعين للخبرية تقدم أو تأخر ، لانا نقول : « المنطلق » لا يجعل مبتداً إلا بمعنى الشخص الذي له الانطلاق ، وأنه بهذا المعنى لا يجب أن يكون خبراً ، و« زيد » لا يجعل خبراً إلا بمعنى صاحب اسم « زيد » وأنه بهذا المعنى لا يجب أن يكون مبتداً .

مثال ذلك : أن يكون للسامع أخ يسمى « عادلاً » وهو يعرف « عادلاً » هذا بعينه واسمه ، ولكن لا يعرف أنه أخوه ، ويعرف في الوقت نفسه أن له أخاً ، ولا يعلم ثبوت الأخوة لذلك الشخص المسمى « بعادل » فنقول له : « عادل أخوك » فأنت بهذا المثال تفيد به أن « عادلاً » هذا هو أخوه ، ومن أجل هذا أتيت بالاسم « عادل » الذي يدل على الذات المعينة له - أولاً - وجعلته مسنداً إليه ، ثم أتيت بما يدل على صفة الأخوة - التي هي في المثال المذكور - « أخوك » وجعلته مسنداً .

وإن عرف السامع أن له أخاً في الجملة ، وأردت أن تعينه له باسمه وعينه ، وكان يعرف « عادلاً » بعينه واسمه ، ولكن يجهل أن أخاه يسمى

(١) راجع مواهب الفتاح ج ٢ ص ٩٥ .

« بعادل » قلت له : « أخوك عادل » فانت تفيد به أن أخاه هذا هو « عادل » ومن أجل ذلك أتيت « بأخوك » الذي يدل على الذات المعنية له - أولاً - وجعلته مسنداً إليه ، ثم أتيت بما يدل على الصفة المسماة « بعادل » وجعلته مسنداً ، وعادل على هذا مؤول بالصفة ، وإن كان « عادل » اسماً جامداً ، والتقدير « أخوك مسمى بعادل » .

وعلى ذلك ، فالمعروف بلام الجنس يجوز أحياناً أن يكون مبتدأ إذا قدم ويجوز أن يكون خبراً إذا تأخر ، فإذا قدم كان طريق القصر « تعريف المسند إليه » بآل الجنسية ، وإن تأخر كان طريق القصر « تعريف المسند » بآل الجنسية ، والقصر حينئذ يكون من قصر الجنس على المسند إليه ، تحقيقاً مثل : « خالد الأمير » إذا لم يكن ثمة أمير سواه .

ومبالغة مثل « محمد الشجاع » أي الكامل في الشجاعة ، فتخرج الكلام في صورة توهم أن الشجاعة لم توجد إلا فيه ، لعدم الاعتداد بشجاعة غيره لقصورها عن رتبة الكلام . قصر صفة « الشجاعة » على الموصوف « محمد » .

فالمعروف « بآل » الجنسية هو : المقصور على أي حال - تقدم أو تأخر ، والآخر هو المقصور عليه .

وإذا عرف الطرفان « بآل الجنسية » مثل . « العالم المنطلق » فالسياق يعين المراد ، فإذا كان مراد المتكلم قصر صفة « العلم » على المنطلق كان طريق القصر « تعريف المسند إليه بآل الجنسية » وإذا كان غرضه قصر صفة « الانطلاق » على « العالم » كان طريق القصر « تعريف المسند » بآل الجنسية .

وتقول : « القائد أنت » و« أنت القائد » « فالقائد مقصور » ، و« أنت » مقصور عليه ، وأداة القصر « أل » فالمراد قصر القيادة على المخاطب ، قصر

صفة على موصوف . البطلان كالمقصور

والمقصور مطلقاً قد يبقى على إطلاقه دون قيد كما في قولنا : « زيد البطل » أو « البطل زيد » فالمقصور هنا هو مطلق البطولة .

وقد يُقيد بوصف ، أو حال ، أو ظرف ، أو مفعول ، أو نحو ذلك ، فيكون المقصور حينئذ : الجنس باعتبار قيده . كقولك : « محمد القائد الجريء » فالمقصور على « محمد » وصف القيادة المتسمة بالجرأة لا مطلق قيادة .

ومثال المقيد بظرف قولهم : « هو الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيراً » فالمقصور الوفاء في هذا الوقت . لا الوفاء مطلقاً .

ومثال المقصور المقيد قول الأعشى :

هو الواهب المائة المصطفاة إما مخاضاً وإما عشارا
والمخاض : الحوامل من النوق ، والعشار جمع عشاء : وهي التي مضى لحملها عشرة أشهر .

وترى الشاعر قد قصر هبة المائة من الإبل في إحدى الحالتين - المصطفاة والحوامل - ولم يرد لا هبة النوق مطلقاً ، ولا الهبة مطلقاً .

أي : هو وحده الذي من عادته أن يهب المائة المصطفاة ، ولا يريد الشاعر أن يقول : هو وحده الذي من عادته أن يهب ، أي : مطلق هبة .

على أن تعريف « المسند » بسلام الجنس قد لا يفيد قصره على المسند إليه كقول الخنساء :

إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلاً
والمراد : إذا قبح البكاء على أي قتيل ، وقد جاء لفظ « الحسن » معرباً

« بآل » لتقرر للبكاء على أخيها صفة الحسن ، وأن تفيد أن حسنه حسن ظاهر لا ينكره أحد ، ولا يشك فيه شك .

وإنما لم يفد تعريف الحسن « بآل الجنسية » - القصر ، لأن كلامها للرد على من يتوهم قبح البكاء على قتلها كغيره ، والرد على ذلك المتوهم يكفي فيه إخراج بكائه من القبح إلى كونه حسناً ، وليس هذا الكلام وارداً في مقام من يسلم حسن البكاء عليه إلا أنه يدعي أن بكاء غيره حسن أيضاً ، حتى يكون معناه : أن بكاءك هو الحسن الجميل فقط دون بكاء غيرك فإنه ليس بحسن ، فليس المعنى على الحصر كما توهم إذ لا يلائمه « إذا قبح البكاء على قتيل » المذكور في أول البيت .

وإنما الملائم له إذا ادَّعي حسن البكاء عليك وعلى غيرك ، فيقال حينئذ : « فإن البكاء هو الحسن الجميل » ، فليست فائدة التعريف في البيت « القصر » .

وبلاغة القصر في الأمثلة التي عرضناها عليك تظهر في إرادة المبالغة في اتصاف المقصور عليه بالصفة مع الإيجاز .

وجوه الاختلاف بين طرق القصر

وهذه الطرق - بعد اشتراكها في إفادة معنى القصر - تختلف من عدة وجوه ، إليك بيانها :

١ - فدلالة التقديم ، وتعريف المسند إليه أو المسند أو هما معاً ، وضمير الفصل - على القصر ، إنما هي بفحوى الكلام ومفهومه فصاحب الذوق السليم ، والطبع العربي الأصيل ، إذا تأمل أساليب : التقديم ، وتعريف الطرفين « بآل الجنسية ، وضمير الفصل - فهم منها القصر^(١) وإن لم يعرف

(١) قال السيوطي ومن تعريف المسند إليه والمسند في القرآن الكريم فيما ذكره الزمكاني في =

اصطلاح البلغاء في ذلك .

فإذا قال شوقي :

بالحق يفتح كل هاد مصلح ما ليس يفتح بالقنا المغوار

فصاحب الذوق السليم يحس بأن في البيت قصراً ، ومعناه : أن الهادي المصلح يفتح فتحاً مبيناً بالحق لا بغيره ، ولا تجد في الكلام ما يدل على النفي ، وليس التقديم متضمناً معنى يدل على النفي والإثبات ، وإنما فهم القصر من التأمل والبحث لمعرفة سر التقديم ، وتساعد على ذلك القرائن .

وتقول : زيد المنطلق ، تريد قصر الانطلاق على زيد وتنفيه عن غيره وليس في الكلام ما يدل على النفي وإنما فهم من الغرض الذي قيل من أجله هذا التركيب ومثله قولك : زيد هو المنطلق .

وأما دلالة الثلاثة الباقية على القصر ، فإنما هي بأصل وضعها اللغوي ، إذ هي تفيد بوضعها اللغوي الإثبات والنفي اللذين يقوم عليهما القصر ، « فما » وما أشبهها موضوعة للنفي ، والاستثناء موضوع للإخراج من حكم المنفي ، وإنما متضمنة معنى « ما وإلا » .

والعطف فيه ما قبل « لا » موجب ، وما بعدها منفي بطريق الوضع ، وما قبل « لكن » و« بل » منفي ، وما بعدهما موجب بطريق الوضع .

٢ - الوجه الثاني من وجوه الاختلاف : أن الأصل في طريق العطف النص على المثبت والمنفي معاً ، فإذا قلت في قصر الموصوف على الصفة : « شوقي شاعر لا كاتب » فقد نصصت على الشاعرية المثبتة لشوقي كما نصصت على الكتابة المنفية عنه .

= أسرار التنزيل . الحمد لله ، قال إنه يفيد الحصر كما في إياك نعبد ، أي الحمد لله لا لغيره .
- أنظر الاتقان ص ٥٠ ج ٢ الطبعة الثالثة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م طبع الحلبي .

وإذا قلت في قصر الصفة على الموصوف : « علي شجاع لا عمرو » فقد نصصت على الذي أثبت له الشجاعة وهو « علي » كما نصصت على الذي نفيت عنه هذه الشجاعة وهو « عمرو » وكذلك الحال في العطف « ببل » و« لكن » .

ولا يترك النص على المثبت والمنفي في « طريق العطف » إلا لكراهة الإطناب ، وذلك كما إذا قيل : « زيد يعلم النحو والبلاغة والصرف والعروض » ، أو قيل : « زيد يعلم النحو وعمرو وبكر وخالد » فنقول في هذين المقامين على سبيل القصر : « زيد يعلم النحو لا غير » .

أما في الأول فمعناه : لا غير النحو : أي لا الصرف ولا البلاغة ولا العروض .

وأما في الثاني فمعناه : لا غير زيد : أي لا عمرو ولا بكر ولا خالد ، فحذفنا المنفي الذي هو مضاف إليه مع « غير » وبني « غير » على الضم كما عرفنا في دراستنا النحوية .

والأصل في الثلاثة الباقية النص على المثبت فقط دون المنفي ، فنقول في قصر الموصوف على الصفة بطريق « النفي والاستثناء » : « ما محمد إلا شجاع » فقد نصصت على الذي أثبت له ، وهو : « الشجاعة » ولم تنص على الذي انتفى عنه ، وهو : « الكرم » مثلاً .

ونقول في قصر الصفة على الموصوف « ما شجاع إلا محمد » فقد نصصت على الذي أثبت له الشجاعة ، وهو « محمد » ، ولم تنص على الذي نفى عنه ، وهو « زيد » مثلاً .

ونقول في « إنما » في قصر الصفة على الموصوف : « إنما ينجح المجتهد » .

وفي قصر الصفة على الموصوف قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١) .

ويجوز أن يكون القصر في الآية من قصر الموصوف على الصفة كما
وضحنا فيما سبق ^(٢) .

ونقول في التقديم : « على الله توكلنا » قصر صفة على موصوف ،
ونقول : في ضمير الفصل : « زيد هو الكريم » قصر صفة على موصوف وفي
طريق « تعريف المسند إليه أو المسند بأل الجنسية » : « زيد الكريم » قصر
صفة على موصوف - ففي كل هذه المثل نص على المثبت فقط كما تبين
لك .

وأما النفي فمفهوم من القصر .

٣ - أن « النفي » بلا العاطفة لا يجمع « النفي والاستثناء » ، فلا يصح أن
يقال في قصر الموصوف على الصفة : « ما علي إلا شجاع لا جبان » ، لأن
شرط المنفي « بلا » العاطفة ألا يكون ذلك المنفي منفيّاً قبلها بغيرها من
أدوات النفي ، لأنها موضوعة لأن تنفي بها ما أوجبه للمتبوع ، لا لأن تعيد بها
النفي في شيء قد نفите ، وهذا الشرط مفقود في النفي والاستثناء ، لأننا إذا
قلنا : « ما زيد إلا قائم » فقد نفيت عنه كل صفة وقع فيها التنازع حتى كأننا
قلنا : « ليس هو بقاعد ولا نائم ولا مضطجع ونحو ذلك » ، فإذا قلنا : « لا
قاعد » فقد نفينا عنه « بلا » العاطفة شيئاً هو منفي قبلها بما النافية ، وكذلك لا
يقال في قصر الصفة على الموصوف : « ما كريم إلا زيد لا عمرو » . لأن
عمراً قد نفى بأداة أخرى قبل نفيه « بلا » .

(١) سورة المائدة ، آية ٢٧ .

(٢) أنظر ص ١٩ ، ٢٠ من هذا البحث .

أما طريق القصر «إنما» و«التقديم» و«التعريف بأل» فيجاء معها النفي «بلا» فيقال : «إنما أنا عربي لا امريكي» ، ويقال : (إلى الله أشكوا لا إلى غيره) ، ويقال : «الكريم محمد لا عمرو» ذلك : أن النفي في هذه الطرق غير مصرح به ، فلم يكن النفي «بلا» منفيًا بغيرها من أدوات النفي . وطريق القصر فيها «إنما» و«التقديم» و«التعريف بأل» أما العطف «بلا» فتأكيد لهذا القصر .

٤ - الوجه الرابع من وجوه الاختلاف أن أصل «النفي والاستثناء» بأن يستعمل في أمر مجهول من شأنه أن يكون مجهولاً .

وأن الأصل في «إنما» أن يستعمل في أمر مجهول من شأنه أن يكون معلوماً فمثال «النفي والاستثناء» وقد جاء فيما شأنه أن يجهل وينكر قولك لصاحبك وقد لمحتما شبحاً من بعيد . «ما القادم إلا فرس» إذا اعتقده المخاطب حماراً ، وأصر على اعتقاده ، فيكون قصر قلب ، أو اعتقده فرساً وكلباً فيكون قصر إفراد ، وبعد الشيء من مرأى العين يجعل الحكم عليه مجهولاً .

وقد ينزل الحكم المعلوم منزلة المجهول لاعتبار مناسب فيستعمل لذلك المعلوم «النفي والاستثناء» .

تأمل قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾^(١) قصر موصوف على صفة ، أي : أن الرسول ﷺ مقصور على الرسالة غير جامع بينها وبين التبري من الموت .

فالمخاطبون - وهم الصحابة رضوان الله عليهم - يعلمون يقيناً أنه ﷺ مقصور على الرسالة غير جامع بينها وبين الخلود في الدنيا ، لكن لما كانوا

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٤٤ .

يعنون موته أمراً خطيراً ، وحادثاً جليلاً صاروا كأنهم يشنون له - عليه السلام - صفتين « الرسالة والخلود » فقصرت الآية الكريمة « الرسول » على الرسالة قصر أفراد ، ونزل هذا المعلوم للصحابة - وهو أنه ﷺ رسول لا غير - منزلة ما شأنه أن يجهل وينكر ، فاستعمل له « النفي والاستثناء » والبسر البلاغي هو تصوير حال الصحابة عند وفاة النبي ﷺ وقد استعظموا هذا الأمر في نفوسهم ، مع شدة حرصهم على بقاءه عليه الصلاة والسلام بينهم .

ومثاله في قصر القلب قوله جل شأنه حكاية عن بعض الكفار : ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ (١) .

فالمخاطبون وهم الرسل عليهم السلام - لم يكونوا جاهلين بكونهم بشراً ، ولا منكرين لذلك ، ولكنهم نُزِّلُوا منزلة المنكرين . لاعتقاد القائلين - وهم الكفار - أن الرسول لا يكون بشراً مع إصرار المخاطبين على دعوى الرسالة ، فنزلهم القائلون منزلة المنكرين للبشرية لما اعتقدوا اعتقاداً فاسداً من التناقض بين الرسالة والبشرية ، فقلبوا هذا الحكم بأن قالوا : « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا » ، أي : مقصودون على البشرية ليس لكم وصف الرسالة التي تدعونها .

فصار المخاطبون كأنهم ينكرون البشرية ، فقصروا عليها قصر قلب ، ونزل المعلوم لهم : « وهو أنهم بشر » منزلة ما شأنه أن يجهل وينكر ، فاستعمل فيه « النفي والاستثناء » والقصر من قبيل قصر الموصوف على الصفة . وفيه تصوير لحال الكفار وقد خيم عليهم الجهل وأعمتهم الاعتقادات الفاسدة .

وأما قوله تعالى حكاية عن الرسل : ﴿ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ

(١) سورة إبراهيم ، الآية ١٠ .

يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿١﴾ وذلك بعد حكاية قول الكفار في الآية السابقة - فمن مجارة الخصم والتبكيك والإلزام والإفحام ، فإن من عادة من ادعى عليه خصمه الخلاف في أمر هو لا يخالف فيه ، أو هو لا ينكر - أن يعيد كلامه على وجهه ، كما إذا قال لك من ينظارك : « أنت من شأنك كيت وكيت » ، فتقول : « نعم أنا من شأني كيت وكيت ، ولكن لا يلزمي من أجل ذلك ما ظننت أنه يلزم » .

فالرسل - عليهم السلام - كأنهم قالوا : إن ما قلمت من أنا بشر مثلكم هو ما قلمت لا ننكره ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون الله تعالى قد مَنَّ علينا بالرسالة .

فالرسل - عليهم السلام - قد اعترفوا بمقدمة صحيحة وهي ثبوت البشرية لهم ، ليبينوا أنها لا تستلزم مقصود الخصم ، فالقصر في قول الرسل (إن نحن إلا بشر مثلكم) الخطاب فيه موجه إلى الكفار ، وهم لا ينكرون هذه البشرية ، فعلى هذا يكون القصر صوري يقصد منه المشاكلة اللفظية لقول المشركين ، لتكون أقوى في المجارة ، ولا يراد منه إلا أصل الإثبات والتجريد .

ويمكن أن يكون المراد حقيقة القصر ، لأن المشركين يريدون من قصرهم « إن أنتم إلا بشر مثلنا » أن الرسل بشر لا ملائكة ومن ثم ينكرون رسالتهم فجاءهم الرسل بتسليم أنهم بشر ، ويكون المقصود من القصر هذه المجارة وليس الرد عليهم ، لأن المشركين لا ينكرون بشرية الرسل بل هي ثابتة عندهم .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنْتَ إِلَّا

(١) سورة إبراهيم ، الآية ١١ .

نَذِيرٌ ﴿١﴾ قصر موصوف على صفة قصر أفراد ، أي : قصر النبي ﷺ على صفة الإنذار غير جامع بينها وبين صفة الهداية ، وذلك أمر معلوم له عليه السلام - غير أنه لما كان شديد الحرص على إيمان قومه وهدايتهم ، ملحاً في توجيه الدعوة إليهم صار في حكم من ظن أنه يملك مع صفة الإنذار صفة الهداية ، لهذا قصر على الإنذار قصر أفراد ، ونزل هذا المعلوم وهو « أنه غير ملزم بحمل الناس على الهداية قصراً » منزلة ما شأنه أن يجهل وينكر فاستعمل فيه « النفي والاستثناء » على ما هو الأصل فيهما ، وسر بلاغته تسلية الرسول عليه السلام ، وتصوير حاله وهو حريص على هداية قومه ، وإلحاحه في دعوتهم إلى الإيمان بالله وبما أنزل .

أما « إنما » فإن الأصل فيها - كما ذكرنا - أن الحكم معها يكون من شأنه ألا يجهله المخاطب ولا ينكره .

ومنه قول القائل : « إنما هو أخوك » لا يقال هذا لمن يجهل هذا ويدفع صحته ، ولكن لمن يعلمه ولا ينكره إلا أن القائل أراد أن ينبه مخاطبه لما يجب عليه من حق الأخوة وحرمتها .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (٢) طلب الكفار من الرسول ﷺ - غير الآيات التي أتى بها - فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى . فقال الله تعالى لرسوله (إنما أنت منذر) تنذرهم بالنار ، وليس إليك من الآيات شيء ، وهذه مكابرة من الكفار وعناد ، وإلا فقد أنزل الله على رسوله من الآيات ما يغني البعض منه .

(ولكل قوم هاد) أي نبي يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم ورشادهم .

(١) سورة فاطر ، آية ٢٢ و ٢٣ .

(٢) سورة الرعد ، آية ٧ .

والقصر في (إنما أنت منذر) والرسول الكريم يعلم ذلك ولا ينكره ،
ويعلم أيضاً أنه لا يملك هداية من أحب ، لكن لما كان عليه السلام شديد
الحرص على إيمان قومه شديد الأسف لإعراضهم عن الدعوة والإيمان - أراد
الله أن يخفف عنه هذا الحرص ، وذلك الأسف ، فقصره على صفة الإنذار ،
وألزمه بأن دعوته تتحقق بالإنذار .

والقصر من قصر الموصوف على الصفة قصر أفراد ، وفيه تصوير لحال
النبي ﷺ وموقفه الرحيم من قومه وحب الخير لهم ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ
رَحِيمٌ ﴾ (١) .

ومثال ما نزل فيه الحكم المنكر منزلة ما شأنه ألا يكون منكراً لنكتة قوله
تعالى حكاية عن اليهود : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (٢) .

ادعوا أن كونهم مصلحين أمر ظاهر من شأنه ألا يجهره المخاطب ولا
ينكره وبالغوا في ذلك ، حتى صور لهم الوهم : أن نفوسهم قد قصرت على
الإصلاح قصراً ، فهي لا يمكن أن تلم بفساد ، واختاروا من أدوات القصر
« إنما » التي تدل على أن الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل ولا
برهان مبالغه منهم في التمويه والخداع ، لذلك كان الرد عليهم من الله
قاسياً ، قال سبحانه : (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) فقد
استفتحته « بآلا » ليسترعي الأذهان إليه حتى تنبه إلى الرد ، ولا يفوتها منه
شيء ، وبدأ الجملة بأداة التأكيد « إِنَّ » لأنه في مقام يريد أن يقتلع من
الأذهان دعواهم العريضة في الإصلاح و« هم » الثانية ضمير فصل يؤكد
الإسناد في الجملة ، وتعريف الطرفين (هم المفسدون) يفيد قصر المسند

(١) سورة التوبة ، آية ١٢٨

(٢) سورة البقرة ، آية ١١ .

على المسند إليه ، فكأن الإفساد مقصور عليهم ، لا يبرحهم إلى سواهم ، وجاء « ولكن » يريد أن يخبرنا بخبر جديد عن هذه الطائفة التي انحصر الإفساد فيما بينها ، وأنه كان خليقاً بهم أن يدركوا هذه الحقيقة لو كان عندهم قدر من شعور ، أما وهم قوم لا يشعرون ، فذاك هو السرفي خفاء هذه الحقيقة عنهم^(١) .

وعلى ذلك قول المتنبي :

إنما أنت والد والأب القسا طع أخنى من واصل الأولاد

فالشاعر لم يرد أن يخبر كافوراً أنه والد ، فكافور يعلم أنه بهذه المنزلة ولكن المتنبي أراد أن يذكّرهُ بالأمر المعلوم الذي لا ينكره ليلفته بلطف إلى حق الوالد من العطف والبر .

ومثله قولهم : « إنما يعجل من يخشى الفوت » وذلك أن من المعلوم الثابت في النفوس : أن من لم يخش الفوت لم يعجل .

ومنه قول ابن قيس الرقيات في مدح مصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهاب من اللـ ه تجلت عن وجهه الظلماء

ادعى في كون الممدوح موصوفاً بهذه الصفة - أنه أمر ظاهر معلوم للجميع على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا في الأوصاف التي يذكرون بها الممدوحين - أنها ثابتة لهم وأنهم قد شهرروا بها ، وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذي لا يدفعه أحد .

ويؤيد هذا المعنى قول الحطيثة في مدح بغض من بني أسد :

وتعذلني أفناء سعد عليهم وما قلت إلا بالذي علمت سعد

(١) أنظر دلائل الإعجاز ص ٢٣١ - ٢٣٢ للشيخ عبد القاهر الجرجاني طبعة رشيد رضا الطبعة السادسة .

الأفناء : العلمة من الناس . قرر أن ما قاله معلوم وثابت لدى الناس ومثله قول البحتري :

لا أدعي لأبي العلاء فضيلة حتى يسلمها إليه عداه
ومثله قولهم : « إنما هو أسد » ، و « إنما هو نار » ، « إنما هو سيف صارم » ، إذا أدخلوا « إنما » جعلوا ذلك في حكم الظاهر المعلوم الذي لا ينكر ولا يدفع ولا يخفى ^(١) .

ومن التنزيل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذُّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ ﴾ ^(٣) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا ﴾ ^(٤) .

كل ذلك تذكير بأمر ثابت معلوم ، وذلك أن كل عاقل يعلم أنه لا تكون استجابة إلا ممن يسمع ويعقل ما يقال له ويدعى إليه ، وأن من لم يسمع ولم يعقل لم يستجب ، وكذلك معلوم أن الإنذار إنما يكون إنذاراً ويكون له تأثير إذا كان مع من يؤمن بالله ويخشاه ، ويصدق بالبعث والساعة فأما الكافر الجاهل فالإنذار وترك الإنذار معه سواء ، فهذا مثال ما الخبر فيه خبر بأمر يعلمه المخاطب ولا ينكره بحال ^(٥) .

جمال التعريض «إنما»

علمنا : أن الحكم الذي تستعمل فيه «إنما» من شأنه أن يكون معلوماً لا يجهله أحد ، ولا ينكره ، لذلك امتازت عن بقية الطرق بأنها تستعمل في كلام

(١) دلائل الإعجاز ص ٢١٧ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٦ .

(٣) سورة يس الآية ١١ .

(٤) سورة النازعات، الآية ٥ .

(٥) دلائل الاعجاز ص ٢١٧ .

لا يكون الغرض منه إفادة الحكم للعلم به ، وإنما يكون الغرض التلويح به إلى معنى آخر على سبيل التعريض .

وعليه قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ^(٢) .

والمعنى : إنما يتعقل الحق أرباب العقول ، فليس الغرض من الآيتين أن يعلم السامعون هذا المعنى الظاهر أي إثبات التذكر لذوي العقول السليمة فهذا أمر معلوم ، ولكن الآيتين ترميان من وراء هذا المعنى إلى ذم الكفار الجاهلين الذين يعرضون عن آيات الله ، والعلم بالأمور الدينية التي تصلح معاشهم ومعادهم ، والتعريض بغباوتهم ، وأنهم من شدة عنادهم وطغيان الهوى على عقولهم في حكم من ليس بذي عقل فالذي يطمع فيهم أن يتذكروا ويتدبروا كمن يطمع من غير ذوي العقول في ذلك ، وترى أن الأسلوبين وردا بعد مقارنة وموازنة بين العالم بآيات الله وأمور دينه وبين الأعمى الجاهل .

ولما كانت آيات الله واضحة كالشمس في كبد السماء ، كان إنكارها حسرة وندامة تستحق التوبيخ واللوم ، والقرآن المعجز يوجه هذا المراد بطريق التعريض عبر أسلوب القصر « بإنما » فسيحان من أنزله .

وكذا قوله تعالى : (إنما أنت منذر من يخشاها) ، وقوله : (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) المعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فكأنه ليس له أذن تسمع ، وقلب يعقل ، فالإنذار معه كلا إنذار .

(١) سورة الرعد ، الآية ١٩ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٩ .

قال الشيخ عبد القاهر^(١) : مثال ذلك من الشعر قول العباس ابن الأحنف :

أنا لم أرزق محبتها إنما للعبد ما رزقا
فإنه تعريض بأنه قد علم أنه لا مطمع له في وصلها . فيش من أن يكون
منها إسعاف .

وقوله أيضاً :

يلوم في الحب من لم يدر طعم الهوى
وإنما يعذر العشاق من عشقا
يقول : ينبغي للعاشق ألا ينكر لوم من يلومه ، فإنه لا يعلم كنه بلوى
العاشق ، ولو كان قد ابتلى بالعشق مثله لعرف ما هو فيه فيعذره .
ومنه قول الشاعر :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب
فالיום حاجتنا إليك وإنما يدعى الطبيب لساعة الأوصاب
يقول في البيت الأول : إنه ينبغي أن أنجح في أمري حين جعلتك
السبب إليه ، وفي البيت الثاني : إنا قد طلبنا الأمر من جهته حين استعنا بك
فيما عرض لنا من الحاجة ، وعولنا على فضلك ، كما أن مَنْ يُعَوَّل على
الطبيب فيما يعرض من السقم كان قد أصاب فعله .

ولا يحصل التعريض بدون « إنما » فلو قلنا : « يتذكر أولو الألباب » لم
يدل على التعريض كما دلت عليه الآية (إنما يتذكر أولو الألباب) ولا فرق
بين التركيبين إلا أن الآية ذكر فيها « إنما » والسبب في ذلك أن هذا

(١) أنظر دلائل الإعجاز ص ٣٢٠ - ٣٣١ .

التعريض ، إنما وقع لأن من شأن « إنما » أن الكلام معها يتضمن معنى النفي من بعد الإثبات ، والتصريح بامتناع التذكر ممن لا يعقل .

وإذا اسقطنا « إنما » من الكلام فقلنا : « يتذكر أولو الألباب » كان مجرد وصف لأولي الألباب بأنهم يتذكرون ، ولم يكن فيه معنى نفي للتذكر ممن ليس من أولي الألباب ، ومحال أن يقع تعريض لشيء ليس له في الكلام ذكر ، ولا فيه دليل عليه .

ويجوز أن يقع التعريض بقولنا : « يتذكر أولو الألباب » بإسقاط « إنما » إذا أردنا به مدح إنسان بالتيقظ ، وبأنه فعل ما فعل ، وتنبه لما تنبه له لعقله ولحسن تمييزه ، كما يقال : « كذا يفعل العاقل » . و« هكذا يفعل الكريم »^(١) . والله أعلم .

(١) أنظر دلائل الإعجاز ص ٢٣١ .

مجلسه اول: ۱۳۹۸/۰۱/۰۱
موضوع: آشنایی با محیط و اهداف دوره

مجلسه دوم: ۱۳۹۸/۰۱/۰۸
موضوع: مبانی و اصول مدیریت

مجلسه سوم: ۱۳۹۸/۰۱/۱۵
موضوع: روش‌های تحقیق و جمع‌آوری داده‌ها

مجلسه چهارم: ۱۳۹۸/۰۱/۲۲
موضوع: مدل‌های نظری و مفهومی

مجلسه پنجم: ۱۳۹۸/۰۱/۲۹
موضوع: روش‌های تحلیل داده‌ها

مجلسه ششم: ۱۳۹۸/۰۲/۰۵
موضوع: کاربرد روش‌های آماری

مجلسه هفتم: ۱۳۹۸/۰۲/۱۲
موضوع: روش‌های مدل‌سازی

مجلسه هشتم: ۱۳۹۸/۰۲/۱۹
موضوع: روش‌های شبیه‌سازی

مجلسه نهم: ۱۳۹۸/۰۲/۲۶
موضوع: روش‌های بهینه‌سازی

الفصل السادس

أسلوب الإنشاء

يحتاج الأديب أو البليغ لإبراز عاطفته نحو معانيه إلى التصرف في بناء الجملة أو العبارة ، حتى تتأكد معانيه في ذهن سامعه .

فتراه يستعمل صور التشبيه ، ويتفنن في إيرادها ، تحقيقاً لغرضه بأسلوب موجز مقنع .

ويأتي بأسلوب الاستعارة والكناية لقصد المبالغة ، والتخييل ، وإقامة الدليل على معانيه التي يرغب في تأكيدها .

وتراه أيضاً يورد العبارة بأسلوب خبري يمتاز بالهدوء والثبات والتجدد والحركة والتصوير ، ليعبر بها عن تصوراته التي يحس بها ، ويطمئن لها السامعون ، وأحياناً أخرى يلقي إلى السامع بأساليب إنشائية تنقل ما في نفسه من تحير وشك وتعجب ، وحنين ورجاء وأمنيات .

والعبارة إذا ألفاها الأديب ، وكانت معبرة عن المعنى المراد أتم تعبير وأدقه ، تراها دخلت على القلب دخول المأنوس به ، وحققت التأثير المطلوب من العبارة البليغة التي تحفز المتلقي على العمل الجاد المثمر فتتحقق أهداف الدين التي هي قوام بناء المجتمع الفاضل المثالي الذي نسعى إليه جميعاً ، لنحقق قول الله سبحانه - في أمة الإسلام : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

لِلنَّاسِ»^(١) . فالكلمة الطيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء
تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

وإذا كانت العبارة الأدبية تحقق أهداف الأمم الدينية والدنيوية ، فهي
جديرة بعناية البلاغيين وغيرهم .

وتراثنا غني بالبحوث التي تدور حول الجملة وبنائها ، والذي يعيننا منها
الآن - بحثهم الذي يتصل بركنيها وقيودها ، وذلك ليتسنى لنا معرفة الأساليب
الإنشائية والخبرية والفرق بينهما فتقف على أسرار الجمال فيها ، ويكون هذا
البحث منطلقاً إلى الوقوف على التفنن في إيرادها مطابقة لمقتضى الحال أو
الاعتبار المناسب الذي هو النظم البلاغي كما علمنا .

يقول البلاغيون : الجملة لها ركنان : محكوم عليه أو مخبر عنه ،
ويسمى « مسنداً إليه » وذلك كالفاعل ونائبه ، والمبتدأ الذي له خبر ، واسم
« إن » و« كان » وأخواتهما ، والمفعول الأول من « باب ظن » وأخواتها .

والركن الثاني : محكوم به أو مخبر به ، ويسمى « مسنداً » ، وذلك
كالفعل وخبر المبتدأ ، وخبر « كان » وأخواتها ، وخبر « إن » وأخواتها ،
والمبتدأ المتكثفي بمرفوعه ، واسم الفعل ، وما زاد على ذلك فهو قيد في
الجملة ، كأدوات الشرط ، والاستفهام والنفي والنواسخ ، والمفعولات ،
والحال والتمييز ، والتوابع ، وضمير الفصل .

فإذا قلنا : « سافر محمد اليوم إلى الريف طلباً للراحة » كان « سافر » هو
المسند و« محمد » هو المسند إليه ، وما بعد ذلك فهو قيد في الجملة ، وليس
ركناً أساسياً .

هذه الجملة : إما أن تتضمن أمراً له واقع يطابقه أو يخالفه ، ويتضح لنا

(١) سورة آل عمران ، آية ١١٠ .

ذلك إذا تأملنا أبيات الغنوي :

أخ كان يكفيني وكان يعينني على نائبات الدهر حين تنوب
عظيم رماذ القدر رحب فناؤه إلى سند لم تحتجبه غيوب
حليف الندى يدعو الندى فيجيبه سريعاً ويدعوه الندى فيجيب

سند الجبل : ما ارتفع عن الوادي ، وسفل عن الجبل . والغيب : البطن المنخفض من الأرض . والندى : الكرم ، وحليف الندى : أي بينه وبين الكرم حلف وعهد .

فالشاعر يريد : أن يخبر بأن أخاه كان يأخذ بيده في أوقات الشدة وكان كريماً يقصده الكثير من الضيوف فلا يحتجب عنهم ، فالكرم خلقه والبذل من شيمه لا يفترق أحد منهما عنه ، ولا يفترق هو عنهما .

وهذا الذي يعرضه لنا الغنوي في حديثه قد تضمن أحكاماً لها في حياتنا واقع ، وهذه الأحكام تكون صادقة ، إذا كان الواقع يوافقها ويؤيدها . وتكون كاذبة : إذا كان الواقع يخالفها ويخالفها .

ومثل هذا الأسلوب الذي يصح أن يوصف بالصدق أو الكذب - لأنه يحتمل الأمرين - يسمى « الخبر » ، على أنه في بعض الأحيان قد يوصف الخبر بالصدق فحسب ، أو يوصف بالكذب ليس إلا ، ولكن ذلك لا لذاته من حيث هو كلام خبري ، وإنما باعتبار أسباب أخرى خارجة عن نطاق العبارة ، تؤيد صدقه أو كذبه .

فأخبار القرآن الكريم لا تحتمل إلا الصدق باعتبارها كلام الله المجيد ، وإن كانت تحتمل الصدق والكذب ، من حيث هي أخبار ، بصرف النظر عن قائلها .

وكذلك الأخبار التي تتضمن أخباراً ثابتة كقولنا : « الأرض تحتنا » (و) (السماء فوقنا) (و) (الواحد نصف الاثنين) وغيرها .

وكذلك الأخبار التي لا تحتل إلا الكذب مثل : أقوال مسيلمة الكذاب
فإنها لا توصف إلا بالكذب فحسب . نظراً لقائلها بصرف النظر عن ذاتها .

وإذا قال سعد بن ناشب :

فيا لرزام رشحوا بي مقدماً إلى الموت خواضاً إليه الكتائب
فيا لرزام أي : فيآل رزام . ورزام أبو حي من تميم ، ورشحوا بي : هيثوا
وأعدوا بإعدادي رجلاً مقدماً إلى الموت ، والمراد بالرجل نفسه كأنه قال
أعدوني ..

والترشيح : تربية الشيء وتهيته لما يراد منه ، والكتائب : الجيوش
المجموعة ، واحديثها كتيبة .

فهو يخاطبنا بأسلوب النداء والأمر في قوله : (يا بني رزام ، أعدوني
لأعدائكم أقتحم جيوشهم وأبدد جموعهم ، وأحرز لكم النصر عليهم) .

وهذا النداء (و الأمر) اللذان تضمننا طلباً ، لا يصح أن يوصف
أسلوبهما بالصدق أو الكذب ، لأنهما لم يكونا حاصلين وقت الطلب ، وليس
لهما واقع يطابقهما أو يخالفهما .

ومثل النداء والأمر في تضمنهما الطلب : النهي والاستفهام والتمني فكل
هذه الأساليب تستدعي أموراً لا وجود لها وقت الطلب .

ومن ثم كان الطلب بصورة المعروفة لا يحتمل صدقاً ولا كذباً ،
والأسلوب الذي لا يصح أن يوصف بالصدق أو الكذب يسمى : « الإنشاء » .

ومن هنا ساغ للبلاغيين أن يقسموا الكلام إلى نوعين : الأول : الخبر
والثاني : الإنشاء .

وقالوا : إن الخبر : يفيد حصول شيء أو عدم حصوله ، ويصح أن يقال
لقائله : إنه صادق فيه أو كاذب ، فإن كان الكلام مطابقاً للواقع ، كان قائله

صادقاً ، وإن كان غير مطابق له كان قائله كاذباً .

أما الإنشاء : فلا يفيد حصول شيء أو عدم حصوله ، بل يفيد إيجاد شيء ابتداء ، فليس لمفهومه واقع يوافقه - أو لا يوافقه ، ولا يصح أن يقال لقائله : إنه صادق فيه أو كاذب .

تقسيم الإنشاء إلى طلبي وغير طلبي

ينقسم الإنشاء إلى إنشاء طلبي ، وإنشاء غير طلبي ، تأمل ما كتبه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، إلى ابنه عبد الله : (يا بني اتق الله فإن من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكره زاده) .

فعمر ينادي ابنه ، وفي النداء طلب الإقبال ، وهو : أمر غير حاصل في أثناء طلبه ، وقد استعمل لهذا النوع من الطلب أداة النداء (يا) ، ثم يطالبه ثانياً بتقوى الله ، وهي إما أن تكون غير حاصلة وقت الطلب ، أو حاصلة ، وهي بالطبع حاصلة عند (عبد الله بن عمر) ووالده يأمره بالدوام عليها ، والأمر حينئذ مجازي ، وقد استخدمت في هذا النوع من الطلب صيغة الأمر (اتق) .

ويقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (١) .

فالله سبحانه وتعالى : يطلب منا عدم التجسس على المؤمنين ، وقد استعمل في هذا الطلب صيغة النهي ، وهي : « لا » الداخلة على المضارع ، وفي النهي طلب الكف عن الفعل .

(١) سورة الحجرات ، آية ١٢ .

ويقول حافظ ابراهيم في حادث دنشواي :
ليت شعري أمحكمة التفتيش عا دت أم عهد نيرون عاذا ؟

فحافظ يتمنى أن يعلم سبب ما حدث لهذه القرية من عذاب على يد المستعمرين ، متسائلاً أمحاكم التفتيش التي نصبها الأسبان للمسلمين في الأندلس تعذبهم ، عادت إلى هذه القرية تعذيبها أيضاً أم أن (نيرون) الذي حرق (روما) بعث من جديد وجاء إلى مصر لينكل بهؤلاء الآمنين ، وفي التمني لون من الطلب على سبيل المحبة ، وهذا الذي يطلبه الشاعر متهمكماً بالاستعمار « وهو العلم بسبب ما حدث » ، غير حاصل في أثناء طلبه ، والصيغة المستعملة في هذا الطلب صيغة التمني (ليت) .

وقال شوقي في رثاء شاعر النيل حافظ ابراهيم :
ماذا حشدت من الدموع (لحافظ) وذخرت من حزن له وبكاء^(١)

فشوقي يطلب أمراً غير حاصل وقت الطلب ، وقد استعمل لذلك صيغة الاستفهام (ماذا) وفي الاستفهام لون من الطلب .

فهذه الأمثلة : إنشائية ، لأنها لا تحتمل صدقاً ولا كذباً ، وإذا تدبرتها وجدتها يطلب بها حصول شيء لم يكن حاصلًا وقت الطلب ، ولذلك يسمى الإنشاء فيها طلبياً ، وأنه يكون بالنداء ، والأمر ، والنهي ، والتمني ، والاستفهام .

وهناك وسائل للإنشاء كثيرة ، ولكن لا يطلب بها شيء ، ولذلك يقول البلاغيون عنها : إن الإنشاء فيها غير طلبي .

وجعلوا منها صيغ التعجب كقول الصمة بن عبد الله القشيري :
بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا

(١) الشوقيات ح ٣ ص ٢ .

الربا : ما ارتفع من الأرض ، والمصطاف : مكان الصيف ، والمتربع : مكان التربع - والمعنى أفدى بنفسه تلك الأرض لطيب ربها العجيب ، وحسن فصلها ، صيفاً وربيعاً ، والشاهد في البيت صيغة التعجب ، « ما أحسن » .

أو بصيغ المدح والذم ومنه قوله جل شأنه : ﴿ وَالْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ يَبْسُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) وكذلك بصيغ العقود كعبت أو اشترت .

ويقول البلاغيون : إن أنواع الإنشاء غير طلبي ليست من مباحث علم المعاني ، لذلك سيكون بحثنا - بمشيئة الله وعونه - في أنواع الإنشاء الطلبي التي هي : الأمر : والنهي ، والاستفهام ، والتمني والنداء .

أسلوب الأمر

الأمر هو : طلب حصول الفعل على سبيل التكليف والإلزام من الأعلى إلى الأدنى ، وقد جعل له علماء اللغة صوراً أربع هي :

- ١ - فعل الأمر كقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ^(٣) .
- ٢ - فعل المضارع المقرون بلام الأمر كما في قوله تعالى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ ^(٤) وقوله تعالى : ﴿ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ ^(٥) .

(١) سورة الذاريات ، آية ٤٨ .

(٢) سورة الجمعة ، آية ٥ .

(٣) سورة الأنفال ، آية ٦٠ .

(٤) سورة الطلاق ، آية ٧ .

(٥) سورة الحج آية ٢٩ .

٣ - اسم فعل أمر كقول معاوية لابنه يزيد : « عليك بالحلم والاحتمال حتى تتمكنك الفرصة ، فإذا أمكنتك ، فعليك بالصفح ، فإنه يدفع معضلات الأمور ، ويقيك مصارع المحذور » .

فمعاوية يأمر ابنه بالحلم والصفح ، وقد دل عليه باسم الأمر وهو « عليك » بمعنى : الزم .

٤ - المصدر النائب عن فعل الأمر كقوله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (١) .

وكقول قطري بن الفجاءة :

فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاع
ونحوه : « سعيًا بالخير » ، « ورفقًا بالضعفاء » و « صبراً على البأساء » . مما تقدم يتضح لنا أن لأسلوب الأمر صيغاً هي :

١ - فعل الأمر .

٢ - الفعل المضارع المقترن بلام الأمر .

٣ - اسم فعل الأمر .

٤ - المصدر النائب عن فعل الأمر .

وإذا استعمل أسلوب الأمر لطلب حدوث شيء لم يكن حاصلاً وقت الطلب على سبيل التكليف والإلزام من الأعلى للأدنى ، كان مستعملاً في معناه الحقيقي .

وترى الأديب يخالف هذه القاعدة وهذه المخالفة جائزة لغوياً - ليعبر عن عواطفه وخوالبه التي تدور في نفسه وتكشف خبايا ما يدور في أحشائه

(١) سورة البقرة ، آية ٨٣ .

فيستعمل هذه الأساليب في غير معناها الحقيقي - فيأتي تعبيره حياً موحياً
يدخل إلى القلوب ويخاطب العواطف ، فيتأثر السامع ، وتحقق الفائدة
المرجوة من الأدب الحي ، وإليك توضيح ذلك فيما يلي :

الأغراض البلاغية التي يخرج إليها أسلوب « الأمر »

الإباحة : وذلك إذا استعملت « صيغة الأمر » في مقام توهم فيه السامع
أوالقارئ عدم جواز الجمع بين أمرين ، فيؤذن له بالجمع بينهما مع عدم
الحرص في الترك . مثل قولنا : « جالس الحسن أو ابن سيرين » .

فالسامع كان قد توهم عدم جواز مجالستهما لما كان بينهما من سوء
المزاج ، فأباح له المتكلم أن يجالس أحدهما أو كليهما ، أو لا يجالس ،
فصيغة الأمر « جالس » في هذا المثال نجدها قد استعملها الأديب ، ولم يرد
منها طلب الفعل استعلاء ، ولكنه أراد منها الإباحة .

وابستعمال كلمة مكان كلمة ، أو صيغة مكان صيغة لا بد من علاقة أو
صلة بين الاستعمالين ، وإلا كان الاستعمال باطلاً أو بعيداً مبهماً .

والكلمة أو الصيغة إذا استعملت في غير مكانها كان الاستعمال مجازياً^(١)
فإن كانت « العلاقة المشابهة » كان اللفظ أو الصيغة استعارة ، وإن كانت
العلاقة بينهما « غير المشابهة » كان اللفظ أو الصيغة مجازاً مرسلأ .

والعلاقة هنا في استعمال صيغة الأمر مكان الإباحة هي : علاقة غير
المشابهة ، وبين الأمر والإباحة علاقة هي : مطلق الإذن ، فهو من استعمال
اسم الأخص في الأعم مجازاً مرسلأ .

(١) سنوضح هذا البحث بتوسع في الجزء الثالث بمشيئة الله .

لأن صيغة الأمر وضعها الواضع للمأذون فيه المطلوب طلباً جازماً ،
فاستعملت في المأذون فيه من غير قيد بطلب ، ويجوز أن تكون العلاقة بين
الأمر والإباحة « التضاد » لأن إباحة كل من الفعل والترك تضاد إيجاب^(١) .

ومن أحسن ما جاء فيه قول كثير بن عبد الرحمن المعروف بكثير عزة :

أسيء بنا أو أحسنى لا ملومة لديننا ولا مقلية إن تقلت

الخطاب لعزة . لا ملومة : لا لوم عليك . ولا مقلية . لا مبغوضة فهو
بيح لعزة أن تسيء إليه أو تحسن ، فهو في غاية الرضا بالأمرين ، ويطلب
منها أن تعامله بهما ثم تنظر ، هل تفاوت حاله معها في الحالين ؟ وسر بلاغة
التعبير بصيغة الأمر في مقام « الإباحة » في هذا البيت أن الشاعر إذ يطلب منها
الإساءة كما يطلب الإحسان ، ويلح في ذلك إلحاحاً ، كأنه أمر مطلوب ، فإنه
بهذا الاستعمال يكشف لنا عما أصابه من الحب ، وأنه وصل به إلى نهايته ،
والإنسان إذا أفرط في الحب صار كل فعل يصدر عن حبيبه لا يرى فيه إلا
جمالاً . فاستعمال الشاعر لصيغة الأمر في مكان الإباحة كشف عن مستور
نفسه بأنحصر طريق وأجمله .

تأمل قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ
الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾^(٢) فالله جل وعلا ، يبيح للناس الأكل والشرب في
ليالي الصوم إلى الفجر ، والتعبير بصيغة الأمر في مكان الإباحة للحث على
تناول السحور ، كأنه أمر مطلوب .

هذا والفرق بين الإباحة والتخيير أن الإباحة هي إذن في الفعل ، وإذن
في الترك ، فهي إذن معاً ، أما التخيير فهو إذن في أحدهما من غير تعيين .

(١) أنظر حاشية الدسوقي على شرح السعدح ٢ ص ٣١٣ ضمن شروح التلخيص طبع الحلبي .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٨٧ .

التهديد : وتارة تخرج « صيغة الأمر » من معناها الحقيقي إلى « التهديد » وذلك إذا استعملها البليغ في مقام عدم الرضا بالمأمور به . وذلك كما نسمع من الرئيس يقول لمرءوسه : « افعل ما بدا لك » أو « دم علي عصيانك فالعصا أمامك » فهو لا يريد منه الامتثال أي : أي فعل ما أمره به ، ولكنه يريد من هذا الأمر التهديد ، وكأن هذا الرئيس لرغبته القوية في إنزال العقوبة بالمرءوس يطلب منه أن يخالفه ، فإذا خالفه فعاقبه كان العقاب مرأ والإيذاء شديداً .

تدبر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ^(١) والمعنى : إن الذين يميلون عن الحق فيعاندون ويشاقون ويحرفون القرآن الكريم عن جهة الصحة والاستقامة لا يخفون على الله العلي القدير فيجازيهم على عصيانهم ، وفي هذا وعيد لهم وتهديد ، واعملوا ما شئتم ، ليس المراد أمرهم بكل عمل شاءوا بل الأمر هنا يفيد التهديد ، بدليل قوله سبحانه (إنه بما تعملون بصير) ، وسر بلاغة التعبير بالأمر في مقام التهديد أن الله سبحانه لشدة غضبه عليهم كأنه يأمرهم بما يوجب عقابهم لينكل بهم أشد تنكيل .

ومن الأمر المراد به التهديد قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ ^(٢) والمعنى : ومن أفضح جرائم الظالمين أنهم جعلوا لله الواحد الصمد نظراء ، واتخذوهم من الأصنام شركاء لله تعالى في العبادة ، فأمر الله رسوله أن يهددهم بقوله : « تمتعوا بشهواتكم قليلاً فإن نهايتكم النار خالدين فيها » فليس المراد أمرهم بالتمتع بل تهديدهم

(١) سورة فصلت ، آية ٤٠ .

(٢) سورة ابراهيم ، آية ٣٠ .

وزجرهم بأسلوب موجز مقنع .

وعلى ذلك قول الرسول ﷺ : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » فالأمر في قوله : « فاصنع » مراد به « التهديد » ، بدليل قوله : « إذا لم تستح » فليس المراد أمرهم بكل صنع شاءوا ، بل الأمر يفيد التهديد .

وفرق واضح بين قوله : هذا ، وقوله ﷺ في أهل بدر : « لعل الله أطلع على أهل بدر فقال : « اصنعوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم » فقوله : « فإني قد غفرت لكم » يحدد المعنى المراد من صيغة الأمر « اصنعوا ما شئتم » فليس المراد أمرهم بكل صنع شاءوا ، بل الأمر يفيد التبشير والإشارة إلى ما أعدّه الله لأهل بدر من الجزاء العظيم ، وهذا من بدائع اللغة .

واستعمال الأمر في مقام « التهديد » مجاز مرسل علاقته ما بين الطلب والتهديد من نسبة التضاد ، وذلك لأن المأمور به : إما واجب أو مندوب ، والمهذؤ عليه : إما حرام أو مكروه ، ولهذا يقال : التهديد لا يصدق إلا مع المحرّم والمكروه .

هذه العلاقة التي هي : نسبة التضاد ، هي التي جوزت استعمال الطلب مكان التهديد استعمالاً مجازياً .

التعجيز : وقد يراد من صيغة الأمر « التعجيز » كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ (١) فليس المراد بالأمر في هذه الآية أمرهم حقيقة على وجه التكليف بالإتيان بسورة من مثله . وإنما المراد إظهار عجزهم عن الإتيان ، لأنهم إذا حاولوا ذلك الإتيان بعد سماع صيغة « الأمر » ، ولم يمكنهم ، ظهر عجزهم .

(١) سورة البقرة ، آية ٢٣ .

وسر بلاغة التعبير بالأمر في مقام التعجيز قوة التحدي والتسجيل عليهم ،
ليتعضلوا : ويقنعوا عما هم فيه من العناد والمكابرة .

فواضح من معنى الآية الكريمة أن صيغة الأمر قد تستعمل للتعجيز ،
وذلك يكون في مقام إظهار عجز من يدعى أن في وسعه وطاقته أن يفعل مثل
الأمر الفلاني ، إلا أنه إذا حاول فعله بعد سماع « صيغة الأمر » ، ولم يمكنه
فعله ظهر عجزه حينئذ .

والعلاقة بين الطلب والتعجيز ما بينهما من شبه التضاد في متعلقهما ، فإن
التعجيز في المستحيلات ، والطلب في الممكنات ، أو السببية ، لأن إيجاب
شيء لا قدرة عليه يلزم التعجيز عنه .

ونسمع نداء المهلهل لآل بكر :

يا لبكر انشروا لي كليباً بالبكر أين أين الفرار ؟

وذلك حين غدر جساس بن مرة بكليب شقيق المهلهل بن ربيعة . فأخذ
المهلهل يهددهم بالويل والثبور ، وعظائم الأمور إن لم يعيدوا كليباً إلى
الحياة ، وإعادة الحياة إلى كليب أمر فوق قدرتهم . فالأمر في قوله :
« انشروا » أي : أعيدها - مراد به : التعجيز ، وسر بلاغة التعبير بأسلوب
الأمر : إشعارهم بأن لا منجى لهم من الأخذ بثأره منهم .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ
دُونِهِ ﴾ (١) فالله جل وعلا يطلب من المشركين أن يثبتوا لآلهتهم التي يعبدونها
من دون الله خلقاً مثل خلق الله ، وهذا طلب فوق طاقة البشر ، فالأمر في
الآية الكريمة (فأروني) يراد منه التعجيز عما أمروا به .

وسر بلاغة التعبير بصيغة الأمر مكان « التعجيز » في هذه الآية : قوة

(١) سورة لقمان ، آية ١١ .

التسجيل على المشركين بالعجز ، وفي ذلك لفهم إلى النظر في حالهم ، وما هم عليه من العناد وسوء التقدير وعماية الضلالة .

ويقول الشاعر :

أروني بخيلاً طال عمراً ببخله وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل

فالشاعر يتحدى من يخاطبه ، ويأمره أن يأتي بإنسان بخيل قد طال عمره ، لأنه بخيل ، ويأمره أيضاً أن يأتي بكريم مات من الإنفاق . ولا شك أن هذا أمر خارج عن طاقة المخاطب .

فالأمر « أروني » و« هاتوا » مراد به التعجيز ، وترى الشاعر يدعو إلى الكرم وينفر من البخل بأسلوب موح وموجز ومقنع ، ويحاول أن يكشف أمر البخل فيقلع البخلاء عن بخلهم ، وتطيب نفس الكريم ، ويزداد اقتناعاً بسلامة مسلكه .

التسخير : وأحياناً تأتي « صيغة الأمر » ويراد بها « التسخير » ، وذلك في مقام يكون المأمور به منقاداً للأمر ، ويكون الاستعمال مجازياً .

والعلاقة بين الأمر وبين التسخير هي : السببية ، وذلك أن طلب شيء لا قدرة للمخاطب عليه مع إيجاده بسرعة من غير توقف يتسبب عنه تسخير المخاطب ، والتسخير هو : التبديل من حال إلى حال فيها مهانة وذلة ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِثِينَ ﴾^(١) أي : صاغرين ، مطرودين عن الخير والعز ، فالأمر في الآية الكريمة « كونوا » مراد به التسخير ، وسر بلاغته ما فيه من الإيحاء إلى أن هذا الأمر ينزل بهم في أسرع لحظة ، وأنهم طائعون لما يطلب منهم ، صاغرون أمام ما يفعل بهم .

الإهانة : وقد تأتي صيغة الأمر ، ويراد منها الإهانة ، وذلك إذا استعملت

(١) سورة البقرة ، آية ٦٥ .

في مقام عدم الاعتداد بشأن المأمور على أي وجه كان .
والعلاقة بين الأمر والإهانة اللزوم ، لأن طلب الشيء من غير قصد
حصوله لعدم القدرة عليه يستلزم الإهانة ، خاصة إذا كان هذا الفعل من
الأفعال الخسيسة ، فلا شك أنه يفيد الإهانة .

تأمل قوله تعالى : « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً »^(١) فالأمر في الآية
الكريمة « كونوا » لا يراود به حقيقته ، وإنما المراد منه « الإهانة » ، لأن الفعل
ليس في طاقة المخاطبين ، وطلب أن يكونوا حجارة أو حديداً فيه إهانة لهم .
وسر بلاغة التعبير إظهار التهكم بهم حتى يلتفتوا إلى ما هم فيه من
المهانة والذلة فيقلعوا عن عنادهم وتكبرهم .

ومنه قوله تعالى : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ »^(٢) ، فالأمر في الآية
الكريمة « ذق » ليس المراد منه طلب ذوق العذاب ، لأن الكافر الأثيم حيث
في حال لا يمكنه الذوق ، لأنه يعاني غصص العذاب وآلامه ومحنه ، ولا
شك أنك تحس في الآية الكريمة بقوة التحدي والإهانة والتهكم والاستهزاء
بهؤلاء الذين انحرفوا عن الحق ولم يؤمنوا به .

التسوية : وقد يكون المراد من صيغة الأمر « التسوية » ، وذلك إذا كان
المتلقي أو المخاطب يتوهم رجحان أحد الأمرين أو الأمور على الآخر .
والعلاقة بين الأمر والتسوية : « التضاد » ، لأن التسوية بين الفعل والترك
تضاد إيجاب .

وذلك كقوله تعالى : « قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَّخَذَ مِنْكُمْ »^(٣) .

(١) سورة الإسراء الآية ٥٠ .

(٢) سورة الدخان ، آية ٤٩ .

(٣) سورة التوبة ، آية ٥٣ .

أي : يستوي عدم القبول منكم ، سواء أكانت النفقة منكم صادرة عن طوعية أو كراهية ، وذلك أن الله علم من حالهم عدم الاهتداء .

ومن هذا القبيل قوله سبحانه : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾^(١) ، بالإضافة إلى ما سبق نجد في هذه الآية معنى الاحتقار والازدراء ، وقلة الشأن ، أي : فقد آمن به من هم أفضل وأعظم منكم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾^(٢) ، أي : صبركم أو عدمه في عدم النفع سواء ، وذلك أنه ربما يتوهم أن الصبر نافع للكفار في عذاب يوم القيامة ، فدفع ذلك بالتسوية بين الصبر وعدمه .

فليس المراد بصيغة الأمر « اصبروا » الأمر بالصبر ، بل المراد كما دلت عليه خاتمة الآية ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُتُمْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ - التسوية بين الأمرين .

التمني : وقد يكون الأمر مراداً به « التمني » ، وهو طلب الأمر المحبوب الذي لا طماعية فيه ، والعلاقة بين الأمر والتمني الإطلاق والتقييد لأن الأمر طلب على وجه الاستعلاء ، فأطلق عن قيده ، ثم قيد بالأمر المحبوب الذي لا طماعية فيه ، ويمكن أن نقول : إن العلاقة بين الأمر والتمني السببية ، لأن طلب وجود الشيء الذي لا إمكان له سبب في تمنيه .

وذلك مثل قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

لقد كثرت الهموم على الشاعر حتى أصابه الأرق ، وهجره النوم ، وطال عليه الليل ، فتخيل أن الليل مارد جبار ، ينكل به ، وتخيله جسماً حياً ، فابتدأ الشاعر ينبهه فاستعمل « ألا » الاستفتاحية ، ثم ناداه كما ينادي الأحياء

(١) سورة الإسراء الآية ١٠٧ .

(٢) سورة الطور ، الآية ١٦ .

ثم طلب منه الانجلاء ، ولكن الليل لا يقبل أن يطلب منه الانجلاء ، ولذلك كان الأمر « انجلي » مراداً به التمني .

فالشاعر يتمنى أن ينجلي ذلك الليل ، وينأى بظلامه عنه ، حتى يستقبل الصباح ، وينعم بضيائه ، ثم عاد على ذلك بالنقض فقال : إنك أنت والصباح سواء ، فقد تحالفت الهموم عليه من كل جانب صباح مساء .

فليس الغرض من صيغة الأمر « انجلي » طلب الانجلاء من الليل ، لأن الليل ليس مما يخاطب ويؤمر ، وإنما يتمنى الشاعر ذلك تخلصاً مما يعاينه من لواعج الشوق وتباريح الهوى .

ومنه قول أبي العلاء المعري :

فيا موت زر إن الحياة ذميمة ويا نفس جدي إن دهرك هازل
فالشاعر قد استعمل صيغة الأمر « زر » مكان التمني إذ أن الموت لا يقبل أن يطلب منه الزيارة ، ولكن الشاعر يرى أن الموت قد تأخر تأخراً مملاً ، ولذا يتمنى أن يلبي زيارته فالحياة أصبحت جحيماً لا يطاق فالشاعر يتمنى الموت تخلصاً مما يعاينه من قسوة الحياة .

وهذا المعنى شائع بين الناس ، يقال : عند الأزمات وعند عدم تحمل نوائب الدهر ومصائبه .

الدعاء : وقد يأتي الأمر « للدعاء » وهو : الطلب على سبيل التضرع والخضوع ، ويكون من أدنى إلى أعلى ، نحو قوله عز وجل : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾^(١) .

فليس من المعقول أن يكون الأمر في قوله تعالى : (اغفر لي) على

(١) سورة ابراهيم ، الآية ٤١ .

حقيقته وعلى أصله الذي عرفت له ، لأن الله جل وعلا لا يأمره أحد من خلقه ، إذ الأمر في الآية مجازي ، خرج عن معناه الأصلي إلى غرض الدعاء .

وسر بلاغة التعبير بالأمر في مقام « الدعاء » إظهار كمال الخضوع للمولى عز وجل وبيان شدة رغبة العبد في الغفران والتوبة ، كأنهما أمران مطلوبان من الله جل وعلا .

والعلاقة بين الأمر والدعاء الإطلاق والتقيد .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ ^(١) فالأفعال . « فاعفِر » و « كفر » و « توفنا » خرجت عن معناها الحقيقي إلى « الدعاء » لإظهار كمال الخضوع للمولى جل وعلا ، واستمطار رحماته .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ^(٢) يدعو سيدنا إبراهيم عليه السلام - ربنا تبارك وتعالى : وأن يجعل مكة بلداً آمناً لأهله من ذريته وغيرهم ، ويرزق من آمن منهم بالله واليوم الآخر .

فالفعل « جعل » وهو أمر يفيد معنى الدعاء . ويعبر عن الحب والرغبة والحنان لدى سيدنا إبراهيم عليه السلام لأمه وأهله .

ويقول المتنبي يخاطب سيف الدولة :

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك ولا تعطين الناس ما أنا قائل

(١) سورة آل عمران ، آية ١٩٣ .

(٢) سورة البقرة ، آية ١٢٦ .

فالممتني يمدح سيف الدولة بالكريم ، ويجعله ملازماً له . ثم يخاطبه بصيغة الأمر « اعط » ، ومعلوم أن الملك لا يأمره أحد من رعاياه ، ولكن إيراد صيغة الأمر في مقام « الدعاء » في هذا البيت توحى بأن سيف الدولة رجل معطاء وكريم ، وتوحى أيضاً بأن الشاعر نسي كل شيء ما عدا شدة حرصه ورغبته في أن يحقق سيف الدولة أمله ورجاءه ، ويكثر عطاء الناس من أمواله ، حتى يفوز بالثناء الجميل ، والعز الأصيل .

ويخاطبه أيضاً فيقول :

أزل حسد الحساد عني بكتبهم فأنت الذي صيرتهم لي حسداً

فالممتني يطلب من سيف الدولة أن يكتب حساده ، لأنه السبب في إيفار صدورهم عليه حسداً ، من جراء اتصاله به ، وتقريبه إياه دونهم .

فالشاعر يخاطب سيف الدولة خطاب المتوسل ، لا خطاب الأمر . إذ أن « سيف الدولة » لا يأمره أحد من رعاياه ، واستعمال « الأمر » مقام الدعاء ، يوحى بأن الممتني كانت عاطفته قوية ، لا يهتم إلا بتحقيق ما يريد كأنه أمر مطلوب من سيف الدولة .

الالتماس : وأحياناً يخرج « الأمر » إلى غرض « الالتماس » ، وذلك إذا استعمل من زميل إلى زميله ، أو من ندد لنده على سبيل التلطف ، وبدون التضرع والاستعلاء . كقول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وسقط اللوى ، والدخول ، وحومل . أسماء أماكن .

فامرؤ القيس يخاطب صاحبيه ، ويطلب منهما الوقوف في هذا المكان العزيز على نفسه ، ليزدرفوا معه الدمع قضاء لحق هذه الذكرى الغالية ، وهو طلب من زميل لزميله ، بصيغة الأمر .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه يراد بهذه الصيغة « الالتماس » لا الإلزام والتكليف ، لما نعرف من أن خطاب الندم مع نده لا يراد به معنى الإلزام .

وتعبير امرئ القيس بصيغة الأمر مقام « الالتماس » توحى بأن جلال هذه الذكرى ، وشدة عملها فيه سيطرت عليه ، وأنسته كل شيء ما عدا رغبته في أن يشاركه الزميلان في الوقوف ساعة في هذه الديار ليكون جميعاً على تلك الأيام التي مضت ، كأن هذا الأمر مطلوب منهم جميعاً .

هذا . . والأمر لا يكون مقبولاً بين الزملاء إلا إذا كان بينهم تواضع جم وحب شديد .

تأمل قول كثير عزة :

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا قلو صيكما ثم ابكيا حيث حلت

الربع : الدار ، والقلوص : الناقة الشابة ، وعقل البعير : قيده .

يطلب الشاعر من رفيقه أن يقفا معه ساعة في منزل حبيبته وفاء لها وقياماً بحقه من البكاء فيه لخلوه من ساكنيه .

وتعبير الشاعر بصيغة الأمر مقام « الالتماس » يوحي بأن الشاعر في نفسه ذكريات عزيزة لهذا المكان أهاجته ، وسيطرت عليه وأنسته كل شيء ما عدا رغبته في أن يعقل زميلاه قلوصيهما ، ثم يبكيان معه كأن هذا الأمر مطلوب منهم جميعاً .

الإرشاد والنصح : وقد يراد من صيغة الأمر النصيح والإرشاد ، وذلك إذا تضمن الأمر نصيحة لم تكن على وجه الإلزام ، كقوله ﷺ لعلي كرم الله وجهه ، « إن أردت أن تسبق الصديقين ، فصل من قطعك ، واعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك » ينصحه صلى الله عليه وسلم بتلك الفضائل الثلاث ، والتعبير بالأمر يدل على حرص النبي عليه السلام على أن يكون

سيدنا « علي » متحلياً بتلك الفضائل .

ومن هذا القبيل تلك الأوامر التي ترد على ألسنة الوعاظ والمرشدين والموجهين ، فإنهم يريدون منها النصح والإرشاد ، وتنقل لنا صورة ما يكنه هؤلاء الوعاظ والمرشدون لأتباعهم من حب وإخلاص .

تصوير حال المتكلم وما هو فيه من حيرة وتخطب : وقد تكون صيغة الأمر دليلاً على الحيرة والتخطب ، تأمل قوله تعالى حكاية عن الكفار : ﴿ أَفَيُضْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ (١) فهم يعلمون يقيناً أن ما في الجنة مُحَرَّمٌ عليهم ، وأن الماء لن يصل إليهم ، ولكنهم لفرط حيرتهم وشدة ما هم فيه من الهم والحزن والعذاب الأليم ، كأنهم فقدوا عقولهم ، وصاروا يطلبون ما لا سبيل إلى تحقيقه .

والامتنان : وقد تأتي صيغة الأمر ، ويكون المراد منها الامتنان ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً ﴾ (٢) . والمعنى أنكم لما آمنتم بربكم ، وتركتم الكفر ، فكلوا الحلال الطيب وهو الغنيمة واتركوا الخبائث .

والتعبير بصيغة الأمر في مقام الامتنان ، تحس فيه الكرم الرباني لعباده حيث يدفعهم دفعاً إلى التمتع بما رزقهم به ، فالنصر من عنده ، والرزق بيده ، ومع ذلك فهو كريم لا يبخل على عباده ويذكرهم بنعمه صلاحاً لمعاشهم ومعادهم .

الإكرام : وقد تأتي صيغة الأمر مقام « الإكرام » كما في قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ ﴾ (٣) ، « وقد قيل : إنهم إذا كانوا في جنات وعيون

(١) سورة الأعراف ، الآية ٥٠ .

(٢) سورة النحل ، الآية ١١٤ .

(٣) سورة الحجر ، الآية ٤٦ .

فكيف يقال لهم بعد ذلك (ادخلوها) على قراءة الجمهور ؟ فإن الأمر بالدخول يشعر بأنهم لم يكونوا فيها ، وأجيب بأن المعنى أنهم لما صاروا في الجنات . فإذا انتقلوا من بعضها إلى بعض ، يقال لهم عند الوصول إلى التي أرادوا الانتقال إليها : ﴿ ادخلوها ﴾ (١) ، ونرى أن تكون صيغة الأمر هنا مراداً بها « الإكرام » من الله جل وعلا لعباده المؤمنين وهذا الأسلوب شائع بين الناس فنحن نقول للضيف ، وهو مستمر في الأكل والشرب « كل واشرب » وأحياناً نقسم عليه أن يأكل ، ولا نقصد من هذا الأسلوب إلا زيادة في كرمه ، وترجمة عما نكن له من الاحترام والسرور بضيافته وأكله وشربه ، فهذا الأسلوب تصوير لخلجات النفس الكريمة التي تحب الضيف وتهش له .

الدوام : وترى صيغة الأمر قد استعملت في مقام « الدوام » كقوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٢) ومعنى طلب الهداية - وهم مهتدون طلب زيادة الهدى والدوام عليها والتثبت عليها ، وفي هذا المعنى تصوير لنفس المؤمن وحرصه على الهداية لما ظهر له فيها من فلاح في الدنيا والآخرة .

التكوين : وأحياناً يأتي الأمر في مقام « التكوين » مثل قوله تعالى : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٣) وهو قريب من التسخير إلا أن هذا أعم (٤) .

الاحتقار : وتأتي صيغة الأمر في مقام « الاحتقار » وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ (٥) وهو قريب من الإهانة أو هماً بمعنى واحد .

(١) فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) سورة الفاتحة الآية ٦ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١١٧ .

(٤) عروس الأفراح ح ٢ ص ٣٢١ ضمن شروح التلخيص .

(٥) سورة الشعراء ، آية ٤٣ .

التفويض : وأحياناً يأتي الأمر في مقام التفويض كما في قوله تعالى : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (١) هذا جواب السحرة لفرعون ، والمعنى : فاصنع ما أنت صانعه ، فإنما سلطانك علينا ونفوذ أمرك فينا في هذه الدنيا ، ولا سبيل لك علينا فيما بعدها .

واستعمال صيغة الأمر « فاقض » مكان التفويض - تصوير لحال السحرة بعدما رأوا الآيات البينات ومس الإيمان شغاف قلوبهم - فحالهم أصبحت تهكماً بفرعون واستهانة بجبروته من ناحية ، وتشوقاً للجهاد في سبيل الله والدعوة للإيمان وضرب المثل الأعلى له من ناحية أخرى .

إلى غير ذلك من الأغراض التي يطول حصرها .

والحق أن الأسلوب الإنشائي من أهم ما يمتاز به القول الفني الجميل ،

فهو لا يعطيك الحقيقة مجردة جافة ، بل إذا تأملت وجدته أعطاك من خلال الأمر - صوراً رائعة خلاصة غنية بالمعاني ، تعمل على تأكيد المعنى في ذهن السامع .

وإذا كان أسلوب الأمر كما وقفنا عليه فخليق بالأديب والمتلقي أن يحتفلا به ، وذلك يحقق المشاركة والتأثير .

أسلوب النهي

النهي : هو كل أسلوب يطلب الكف عن شيء على طريق الاستعلاء والإلزام ، وله صيغة واحدة هي : المضارع المقرون بلا الناهية كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ (٢) وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا

(١) سورة طه ، آية ٧٢ .

(٢) سورة الأعراف ، آية ٥٦ .

تَلِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ .

ففي الآية الأولى طلب الكف عن الفساد في الأرض ، واستعمل لذلك صيغة النهي وهي : « المضارع المقرون بلا الناهية » ، وكذلك في الآية الثانية .

الأغراض البلاغية

التي يخرج إليها أسلوب « النهي »

والنهي أيضاً يخرج عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي ، ويؤدي أغراضاً بلاغية يعرفها القارئ أو السامع بمعونة القرائن ، منها :

التهديد : وتأتي صيغة النهي في مقام « التهديد » وذلك مثل قول الرئيس لمرءوسه : « ولا تطع أمري » ، و« لا تقلع عن عنادك » .

وإنما كان هذا تهديداً ، لأن من المعلوم أن الرئيس لا يطلب من مرءوسه ترك الامتثال لأوامره ، لأن المطلوب من المرءوس الامتثال لا عدمه .

والتهديد خبر في المعنى إذ كأنه قال له : سترى ما يلزمك على ترك الأمر .

واستعمال صيغة « النهي » في مقام « التهديد » من باب المجاز المرسل ، والعلاقة بين النهي والتهديد السببية ، لأن النهي عن الشيء يتسبب عنه التخويف والتهديد لمخالفته .

الدعاء : وقد تستعمل صيغة النهي في مقام « الدعاء » وذلك إذا كانت على وجه التخضع والتذلل . كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ

(١) سورة البقرة ، آية ٤٢ .

أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا ﴿١﴾ ففي الآية ابتهاج إلى الله من المؤمنين الصادقين والنهي فيها على سبيل التضرع والتذلل والمقصود منه :
« الدعاء » .

وسر التعبير بصيغة النهي في مقام « الدعاء » في الآية الكريمة بيان رغبة العبد في الغفران ، وإظهار كمال الضراعة إلى الله جل وعلا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (٢) ، يدعو المؤمنون الذين أنعم الله عليهم بهدايته أن يثبت الله قلوبهم على الإيمان .

واستعمال صيغة « النهي » في مقام « الدعاء » تصوير حي وتعبير صادق عن رغبة هؤلاء المؤمنين في الثبات على الهداية ، وحبهم القوي للإيمان بالله ، وبما جاء على ألسنة الرسل عليهم السلام .

وعليه قول مسلم بن الوليد في الرشيد :

لا يعدنك حمى الإسلام من ملك أقمت قتلته من بعد تأويد
فمسلم بن الوليد لا يقصد من النهي إلا « الدعاء » للخليفة الرشيد لتأييد الإسلام وإعلاء كلمته .

وعبر بصيغة النهي في مقام « الدعاء » لإظهار ما يكنه الشعب والشاعر من حب وحرص على بقاء الرشيد يحمي حمى الإسلام .

والعلاقة بين النهي والدعاء الإطلاق والتقييد على جهة المجاز المرسل .

الالتماس : وقد يراد من النهي « الالتماس » ، وذلك إذا كان من المساوي بدون استعلاء وتخضع ، كقولك لنظيرك : « لا تفعل هذا » .

(١) سورة البقرة ، آية ٢٨٦ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٨ .

والعلاقة بين النهي والالتماس الإطلاق ، لأن النهي موضوع لطلب الكف استعلاء فاستعمل في مطلق طلب الكف على جهة المجاز المرسل .

ومنه قوله تعالى على لسان هارون يخاطب أخاه موسى : ﴿ قَالَ يَا بَنِي آدَمُ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ ^(١) ، فالنهي في قوله : « لا تأخذ » ليس على حقيقته ، وإنما هو للالتماس ، لأنه ليس فيه استعلاء ولا إلزام . والمعنى : نسبه إلى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه ، استعطافاً له ، وترقيقاً لقلبه . والتمس منه عدم إنزال العقوبة به لأنه خشي إن خرج عليهم أن يتفرقوا .

وسر بلاغة التعبير بصيغة النهي مقام « الالتماس » في الآية الكريمة ، إظهار الحرص على ترقيق الأخ على أخيه ، والأصل القوي في العفو والتسامح فقد كان لهارون عذر .

ومن هذا القبيل قول المتنبي في سيف الدولة :

فلا تبلغاه ما أقول فإنه شجاع متى يُذكر له الطعن يشتق

فهو يلتمس من صاحبيه أن يكتما عن سيف الدولة ما سمعاه في وصف شجاعته وفتكه بالأعداء ، وحسن بلائه في الحروب .

وسر بلاغة التعبير بصيغة « النهي » مقام « الالتماس » إظهار شدة حرص أبي الطيب على كتمان هذا الأمر عن سيف الدولة ، وفي ذلك تهويل بشجاعة الممدوح وتفخيمها .

الحث : وقد يكون « النهي » مراداً به « الحث » كقول اسماعيل صبري :

لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملاً فماؤه العذب لم يخلق لكسلان

(١) سورة طه ، الآية ٩٤ .

فهو ينهى المصريين - على لسان فرعون - عن الشرب من ماء النيل إن لم يُقدّموا عملاً عظيماً يصبحون به جديرين أن يشربوا منه .

فالغرض من النهي « الحث » ، والتعبير بالنهي مقام « الحث » إظهار عاطفة الشاعر نحو تقدّم مصر ، وأنه لا يستحق الحياة من لا يعمل لوطنه وأمته ويساعد على تقدمها وازدهارها .

التحقير : وقد يأتي « النهي » للتحقير . تأمل قول الحطيئة :
دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
فهو يحقر المخاطب ، فيقول له : « لا ترحل » إلى طلب المعالي ، فأنت لست أهلاً للكفاح ، واقعد ، وسيأتيك الطعام والشراب والكساء .

فالغرض من « النهي » التحقير . لأن المخاطب لا يمثل لهذا النهي ولا ينتظر المتكلم منه أن يمثل ، وإنما يريد أن يظهر احتقاره فحسب .
وسر بلاغة التعبير بصيغة « النهي » مقام « التحقير » ما فيها من التحقير وعدم الاعتراف بالمخاطب ما لا يحيط به الوصف .

التوبيخ : وقد يأتي « النهي » دليلاً على « التوبيخ » تأمل قول أبي الأسود الدؤلي :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
نجد أن الشاعر يقصد توبيخ من ينهى الناس عن السوء ، ولا ينتهي عنه .
النصح والإرشاد : وقد يأتي « النهي » دليلاً على « النصح والإرشاد » كقول أبي العلاء :

ولا تجلس إلى أهل الدنيا فإن خلائق السفهاء تعدي
فهو ينصح مخاطبه ، ويرشده إلى الابتعاد عن السفهاء وأهل الدنيا .

وعبر بصيغة « النهي » « ولا تجلس » لبيان رغبته في امتثال مخاطبه
لنصحه وإرشاده .

التمني : وقد تدل صيغة النهي على « التمني » كقول الخنساء :
أَعْيْنِي جوداً ولا تجمداً ألا تبكيان لصخر الندي
فالخنساء تمنى أن تجود عيناها بالبكاء على أخيها فهو جدير بالبكاء ،
وعلى ذلك يكون قولها « ولا تجمداً » نهى أريد به « التمني » .

وسر التعبير بصيغة « النهي » في مقام « التمني » إظهار شدة حزنها
وولها ، وأنها من أجل ذلك تضع الممكن « النهي » موضع المستحيل
« التمني » والعلاقة بين النهي والتمني التضاد على جهة المجاز المرسل .
ومنه قول الشاعر :

يا ليل طل يا نوم زل يا صبح قف لا تطلع

فقوله : « لا تطلع » نهى أريد به « التمني » فهو يتمنى ألا يطلع النهار
ليطول اجتماعه بحبيبته ، والتحدث إليها ، فنهى الصبح عن الطلوع أمر
مستحيل ، لأنه فوق طاقة المحب فالموضع موضع التمني .

ولكن الشاعر برغبته الشديدة في أن يطول الليل خيّل إليه أن عدم طلوع
الصبح أمر ممكن فنهاه عن الطلوع .

إلى غير ذلك من الأغراض التي تخرج إليها صيغة « النهي » والتي يمكن
إدراكها في ظل الجو النفسي الذي ورد فيه « النهي » وبواسطة السياق وقرائن
الأحوال .

أسلوب الاستفهام

قالوا في تعريفه : الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأدوات خاصة .

ويقولون أيضاً : إن هذا الشيء المطلوب علمه نوعان :

١ - النسبة بين الشيئين - ثبوتاً أو نفيّاً - ويسمى العلم بها : تصديقاً .

٢ - أحد طرفي النسبة ، وهما : المسند إليه ، والمسند ، أو أحد

متعلقيهما ، كالمفعول ، والحال ، والظرف ، ونحوها ، ويسمى إدراك أحدهما : تصوّراً .

وعلى ذلك يكون التصديق : هو إدراك النسبة بين الشيئين ثبوتاً أو نفيّاً .

والتصور : هو إدراك المسند ، أو المسند إليه ، أو أحد المتعلقات .

والألفاظ الموضوعة للاستفهام هي : الهمزة ، هل ، من ، ما ، أي ،

كيف ، متى ، أبان ، أين ، أنى ، كم .

وتنقسم هذه الأدوات بحسب المستفهم عنه إلى ثلاثة أقسام :

١ - ما يطلب بها التصور تارة ، والتصديق تارة أخرى وهي :

« الهمزة » .

٢ - ما يطلب بها التصديق فقط وهي : « هل » .

٣ - ما يطلب بها التصور فقط وهي بقية أدوات الاستفهام .

فالهمزة تستعمل في أحد أمرين :

الأول : أن يطلب بها : التصديق . أي : إدراك النسبة الواقعة بين

الطرفين ثبوتاً أو نفيّاً ، وذلك إذا كان المتكلم يجهل مضمون الجملة ، ويتردد

في ثبوتها لأمر ، أو نفيها عن ذلك الأمر .

تقول : « أخالد بطل » ؟ فالسائل تصور « خالداً » ، وتصور « البطل » وتصور النسبة بينهما ، أي نسبة البطولة لخالد ، والسؤال إنما عن وقوع هذه النسبة : هل البطولة المنسوبة إلى خالد ، متحققة خارجاً أو غير متحققة ؟ - فإذا قيل في الجواب . « نعم بطل » ، أو قيل : « لا ! ليس بطلاً » حصل التصديق . ولعلك لاحظت الجواب في طلب التصديق يكون بنعم ، أو - لا .

وحينئذ يتمتع معها ذكر المعادل « أم » ، فإن جاءت « أم » بعدها ، كانت منقطعة بمعنى « بل » كما في قول الشاعر :

ولست أبالي بعد فقدي مالكا أموتي ناء أم هو الآن واقع ؟

معناه : بل هو الآن واقع .

الثاني : أن يطلب بها : التصور ، أي : إدراك أحد طرق هذه النسبة أو

شيء من المتعلقات :

تقول : أمحمد في الفصل أم أحمد ؟ - ففي هذه الحال - تعلم أن في الفصل أحدهما ، أي : أن نسبة الحلول في الفصل ثابتة لأحدهما ، فانت لا تسأل عن هذه النسبة ، لأنك عالم بها ، وإنما تطلب بالسؤال تعيين الموجود في الفصل ، أهو محمد أم أحمد ؟ فإذا قيل في الجواب « محمد أو أحمد » حصل التصور . أي يكون الجواب هنا بتعيين المسئول عنه .

وفي هذه الحال يجب أن يذكر المسئول عنه بعد الهمزة مباشرة ، فإذا كان الشك في المسند إليه وأردت أن تزيل هذا الشك بالسؤال عنه . قلت : « أعلي المسافر أم سعيد » ؟ .

وإذا كان الشك في المسند ، قلت : أمجتهد عادل أم كسول ؟ وإذا كان الشك في المفعول ، قلت : « أشعراً تكتب أم نشرأ ؟ وفي الحال تقول : « أراكباً جئت أم ماشياً ؟ وفي الظرف الزماني قلت . أيوم الخميس حضرت أم يوم الجمعة ؟ والمكاني قلت : « أفي المسجد صليت أم في البيت ؟ وهكذا .

ويكون الجواب في كل ذلك بالتعيين ، فيقال مثلاً : علي ، ومجتهد وشعراً ، وراكباً ، ويوم الخميس ، وفي البيت .

وفي الغالب يذكر للمستول عنه معادل بعد « أم » المتصلة كما في الأمثلة السابقة .

وقد يستغني عن ذكر المعادل . إذا كان هناك ما يدل عليه ، كالمقام في مثل قوله تعالى : ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾^(١) ، فإن المقام يدل على أن المعادل : هو « أم غيرك » .

أمّا « هل » : فيطلب بها التصديق فحسب ، وتدخل على الجملتين : الاسمية نحو : هل زيد قاعد ، والفعلية نحو : « هل قام عمر » ، إذا كان المطلوب حصول التصديق بثبوت القعود لزيد ، والقيام لعمر .

ولمّا كانت « هل » إنما تجيء لطلب التصديق ، أي السؤال عن مضمون الجملة نحو : « هل ذاكر الطلاب دروسهم » ؟ كان الجواب : « بنعم » إثباتاً و« بلا » نفيّاً .

وعلى ذلك لا يذكر معها معادل بعد « أم » المتصلة ، ومن هنا امتنع أن يقال : « هل زيد قائم أم عمرو » ، لأن « هل » تدل على أن مضمون الجملة مجهول ، ووقوع المفرد في هذا المثال بعد « أم » دليل على أن « أم » متصلة و« أم » المتصلة تدل على أن مضمون الجملة معلوم ، وإنما المطلوب تعيين أحد الأمرين فإذا جمعنا بين « هل » و« أم » المتصلة في مثال واحد . أدى هذا الجمع إلى التناقض بينهما .

ويصح اجتماع « هل » مع « أم » المنقطعة ، لأنها بمعنى « بل » كقول الشاعر :

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٦٢ .

ألا ليت شعري هل تغيرت الرجا رجا الحرب أم أضحت بفلج كما هيا
ويقول البلاغيون : إن « هل » يقبح استعمالها في مثل قولك : « هل زيداً
أكرمت » لأن تقديم المفعول على الفعل ، أي تقديم « زيداً » على « أكرمت
يدل في الغالب على علم المتكلم بالنسبة ، إذا كان « التقديم للتخصيص »
لأنه يفيد العلم بالنسبة ، وأن الشك إنما هو في المفرد ، ونحن نعرف أن
« هل » لا تكون إلا لطلب التصديق الذي - كما عرفنا - هو : إدراك النسبة ،
فلا يناسبها طلب التصور الذي كما عرفنا أيضاً - هو : « إدراك المفرد » ،
وإذا كان التركيب « زيداً أكرمت » مما يقتضي - غالباً - أن النسبة معلومة كانت
« هل » هنا لطلب حصول الحاصل وهو عبث ، وإنما لم يمتنع مثل هذا
التركيب لاحتمال أن يكون « زيداً » مفعول لفعل محذوف قبله ، وعلى ذلك
فلا تقديم .

أو يكون التقديم لمجرد الاهتمام بالمتقدم لا للتخصيص الذي يفيد العلم
بالنسبة ، وكلا الاحتمالين مخالف للظاهر .

فعلى الاحتمال الأول : يكون الفعل الظاهر منع من العمل بلا شاغل عنه
وذلك قبيح .

هو على الاحتمال الثاني : وهو جعل التقديم لمجرد الاهتمام بالمقدم
يكون على خلاف الغالب ، إذ الغالب في تقديم المفعول المنصوب أن يكون
للتخصيص ومخالفة الغالب قبيحة .

وجعل السكاكي قبح نحو : « هل رجل عرف » المتفق على قبحه ، لما
قبح له « هل زيداً ضربت » .

والأصل عنده « هل عرف رجل » فيكون « رجل » مقدماً من تأخير ويفيد
هذا التقديم التخصيص المفيد للعلم بأصل الثبوت للنسبة ، وهذا يناهض
مقتضى « هل » التي يسأل بها عن النسبة ، ومعنى ذلك أن النسبة مع « هل »

غير ثابتة ، لكن المثال الذي معنا إذا اعتبرناه كما هو رأي السكاكي أن التقديم فيه يفيد التخصيص كانت النسبة ثابتة فيحدث التناقض أو التنافي - كما علمنا .

وإنما جعل السكاكي نحو « هل رجل عرف » قبيح كما قبح له « هل زيداً ضربت » لأن مذهبه في تقديم المسند إليه على خبره الفعلية ، ينص على أن نحو هذا المثال يقدر فيه أن « رجلاً » بدل من الضمير المستتر في « عرف » فالتقديم يفيد التخصيص المنافي لمقتضى « هل » .

ولم يجعل السكاكي « هل رجل عرف » ممتنعاً لجواز أن يكون التقديم لمجرد الاهتمام وليس للتخصيص .

أو يكون الكلام بتقدير فعل يكون رافعاً « لرجل » :

ويلزم السكاكي حيث جعل علة القبح « تقديماً » يفيد التخصيص ، ألا يقبح ما لا يصح فيه التقديم للتخصيص نحو قولك : « هل زيد عرف » فإن التقديم فيه ليس للتخصيص المستدعي لحصول التصديق بأصل الفعل المنافي للطلب « بهل » وإنما هو للاهتمام والتقوي ، كما تقدم لأنه اسم ظاهر ومعرفة .

ولا يصح تقدير تأخيرته على أنه فاعل معنى ، كما قدر السكاكي في « هل رجل عرف » مع أن هذا التركيب أعني « هل زيد عرف » قبيح بالإجماع .

وأجيب عن هذا بأن انتفاء علة من علل القبح « وهي كون التقديم للتخصيص لا يستلزم انتفاء جميع العلل .

فلا يلزم السكاكي أن يقول بحسن قولنا : « هل زيد عرف » ، بل يجوز أن تقول فيه بالقبح لعل أخرى ، إذ يلزم من نفي علة ، نفي جميع العلل ، فاللازم عدم وجود القبح لتلك العلة لا نفي القبح مطلقاً .

وعلل غير السكاكي قبح التركيبين وهما : « هل رجل عرف » و « هل زيد عرف » بعلّة أخرى - غير ما علل به السكاكي في « هل رجل عرف » :

وهذه العلة هي أن : « هل » في أصل استعمالها بمعنى « قد » ، فأصل هل عرف زيد « أهل عرف زيد » بإدخال همزة الاستفهام على « هل » على أنها بمعنى قد فكانه قيل : « أقد عرف زيد » ، وهذا أصل استعمالها ثم أسقطت الهمزة قبل « هل » لكثرة وقوعها في الاستفهام ، وأقيمت هي مقام الهمزة التي كانت تصاحبها كثيراً ، وأصبحت « هل » بمعنى « قد » فلم تذكر الهمزة أصلاً ، بل تطلقت عليها « هل » في إفادة معنى الاستفهام .

ولأجل أن « هل » بمعنى « قد » في الأصل أدخلت على الفعل دون الاسم مثل « قد » مراعاة لمعناها الأصلي .

وعلى ذلك إذا وجد الفعل في التركيب ، وجب مراعاة معنى « هل » الأصلي في لزوم موالاتها الفعل . وأما إذا لم يوجد الفعل أصلاً في التركيب روعي في « هل » معنى الاستفهام الذي نقلت له ، فجاز دخولها على الاسم .

فلا يقبح أن يقال : « هل زيد قائم » ، وإنما يقبح أو يمتنع نحو قولك : « هل زيد قام » .

والفرق بين التركيبين : أنها إذا لم تر الفعل في حيزها ذهلت عنه ، وتعلت ، ولم تذكر المعاهد والأوطان ، وأما إذا رآته أمامها ، فإنها تذكر المعاهد والأوطان ، فلا تجد بداً من معانقته على أصلها ، فلا تقبل تفريق الاسم - سواء أكان معرفة أو نكرة - بينها وبين الفعل الذي هو إلفها^(١) . من حيث أنها في الأصل بمعنى « قد » المختصة بالفعل .

(١) أنظر شروح التلخيص ص ٢٥٩ - ٢٦١ .

ولما كانت « هل » منقولة للاستفهام ، وليست أصلاً فيه بل فرعاً ،
تقاصرت عن الهمزة ، فاختص المضارع بعد « هل » بالاستقبال .

وعلى ذلك لا يجوز أن تقول : « هل تضرب زيداً وهو أخوك » ، لأن هذا
استفهام توبيخ ، والتوبيخ لا يكون على المستقبل ، إنما يكون على الحال
والماضي ، واستفهام التوبيخ ، لا يكون إلا بالهمزة .

فيصح أن تقول : « أتضرب زيداً وهو أخوك » توبيخاً على ضرب واقع .
فتستفهم بالهمزة عن الحال بخلاف « هل » ، وذلك لأن « هل » منقولة
للاستفهام لذلك التزم فيها مقتضى الاستفهام ، ليبين أصل الغرض الذي
نقلت إليه ، وذلك هو تخليصها الفعل المضارع للاستقبال ، لأن حصول
المستفهم عنه ينبغي أن يكون استقبالياً ، إذ لا يستفهم عن الواقع في الحال
حال شهوده . فلا تقول : « هل تضرب زيداً وهو أخوك » ، فإن تقييد الضرب
بالأخوة يفيد شيئين : أحدهما الإنكار ، لأن من أشنع المناكر ضرب الأخ سواء
أكان صديقاً أو نسباً .

والآخر : الحال ، لأن الأخوة حالية إذ لا يراد استقبالها ولا مضيتها لأن
الاستفهام الإنكاري لا يناسبه عرفاً إلا الحال ، إذ لا معنى لقولنا : « أتضرب
زيداً وهو سيكون لك أخاً » .

ويجوز أن نقول : « أتضرب زيداً وهو أخوك » ، لأن الاستفهام بالهمزة
يصح فيه إرادة الحال ، ومعناه الإنكار ، أي : لا ينبغي أن يقع منك
الضرب ، فالإنكار إنما يتسلط هنا على الانبغاء ، ويحتمل أن يتسلط على ما
لم يقع من الضرب ، لأن الحال أجزاء مضي بعضها وبقي البعض .

وعلى ذلك كل مضارع أريد به الحال يمتنع دخول « هل » عليه ، سواء
قيد بجملة حالية مثل : « هل تضرب زيداً وهو أخوك » أو لم يقيد ، وذلك

كقوله تعالى : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١) ، فإن القرائن تدل على أن المراد إنكار القول الحالي ، لا الاستقبالي والمضي ، وكذلك قولك : « أتؤذي أباك » و« أتشتم الأمير » حال الإذية والشتم ، فهذه المواضع وأمثالها ليست مواضع « لهل » ، لأن المراد بالفعل فيها الحال وهي تخلصه للاستقبال .

أما إذا دخلت « هل » على الجملة الاسمية مثل : « هل زيد قائم » أو الفعل الماضي مثل : ﴿ فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾^(٢) فيبقى كل منهما على أصله ولا تؤثر في أحدهما شيئاً .

ولما كانت « هل » تختص بطلب التصديق بالنسبة ، أي : الحكم بثبوت النسبة أو انتفائها - الموجه إلى الحدث الذي هو جزء مفهوم الفعل .

ولما كانت أيضاً تؤثر في بعض أنواع الفعل بتخليص المضارع للاستقبال كان لها مزيد اختصاص بالفعل ، فيكون تعلقها بالفعل ، ودخولها عليه لفظاً أو تقديرأ أشد من تعلقها بالاسم ، ودخولها عليه^(٣) .

وبناء على ذلك إذا جاءت « هل » في أسلوب داخلية على الجملة الاسمية كان ذلك لنكتة بلاغية ، وهذه النكتة هي . أن يجعل « ما سيكون » الذي هو مفاد الجملة الفعلية في معرض الكائن الحاصل الذي هو مفاد الجملة الاسمية اهتماماً بشأنه ، واعتناء بأمره . ومن ثم كان قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾^(٤) الذي عدل فيه عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية ، أدل على طلب حصول الشكر من قولنا : (فهل تشكرون) أو (فهل أنتم

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٨ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٤٤ .

(٣) أنظر شروح التلخيص ح ٢ ص ٢٦١ ومغابدها .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٨٠ .

شكرون) : ولذلك لا يصح قولنا : « هل زيد منطلق » ، إلا من البليغ .

لأن إبراز ما سيحصل في معرض الحاصل أقوى دلالة على كمال العناية بحصوله ، وذلك بناء على قول البلاغيين ، « إن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام ، والفعلية تفيد التجدد والحدوث .

أما باقي الأدوات فهي للتصور لا غير ، ويسأل بها عن معناها ، ويكون الجواب عنها بتعيين المسئول عنه .

فمن : لتعيين أفراد العقلاء نحو : « من فتح الأندلس ؟ » والجواب : القائد المسلم المشهور طارق بن زياد .

ما : لتعيين غير العقلاء ويطلب بها .

١ - ايضاح الاسم نحو : ما المسجد ؟ والجواب : ذهب .

٢ - بيان حقيقة المسمى نحو : ما الشمس ؟ والجواب : كوكب نهاري .

٣ - بيان الصفة نحو : ما سعد ؟ والجواب : طويل أو قصير مثلاً .

متى وأيان : لتعيين الزمان . نقول : « متى قامت الحرب العالمية الثانية ؟ » .

« وأيان جئت ؟ »

كيف : لتعيين الحال كقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ (١) .

أين : لتعيين المكان نحو : أين تقع مدينة القدس ؟ .

أنى : تأتي لتعيين الزمان كمتى نحو : أنى تمطر السماء ؟

(١) سورة النساء الآية ٤١ .

وتأتي لتعيين المكان بمعنى « من أين » نحو قوله تعالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنْتِ لَكَ هَذَا ﴾ (١) ؟ أي : من أين لك هذا ؟ .

وتأتي لتعيين الحال بمعنى « كيف » نحو قوله تعالى : ﴿ أَنْتِ يُحْيِي هَذِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (٢) .

كم : لتعيين العدد نحو . كم بيتاً ملكت ؟ . فيقال مائة وألفاً مثلاً .

أي : تستعمل في تمييز أحد المتشاركين في أمر يعمهما نحو : أي الرجلين أكبر سناً ؟ وقوله تعالى : ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً ﴾ (٣) .

ويسأل بها عن الزمان ، والمكان ، والحال ، والعدد ، والعامل ، وغير العامل ، إذ هي تكتسب معنى ما تضاف إليه ، فنقول في السؤال بها عن الزمان . « أي يوم أجززنا النصر على أعداء الدين ؟ » وعن المكان : « في أي مكان التقينا ؟ وعن الحال : على أي حال تركت زميلك ؟ » وعن العدد : « إلى أي عدد بلغت نفودك ؟ » ، وعن العامل : « أي رجل قابلت ؟ وغير العامل : « أي منزل اشتريت ؟ » .

هذه هي المعاني الحقيقية لأدوات الاستفهام ذكرناها توطئة لما يفاد منها من أغراض بلاغية .

الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام

تخرج ألفاظ الاستفهام عن معانيها الأصلية لمعان وأغراض بلاغية ، تفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال ، وجو النص ونفسيته .

(١) سورة آل عمران الآية ٣٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٩ .

(٣) سورة مريم الآية ٧٣ .

وإذا استعملت ألفاظ الاستفهام في غير معانيها الأصلية فإنها تعطي الكلام حيوية ، وتزيد الإقناع والتأثير به ، وذلك لما في هذا الاستعمال من إثارة للسامع ، وجذب لانتباهه ، ومن إشراكه في التفكير ، ليصل بنفسه إلى الجواب دون أن يملأ عليه .

ومن أهم الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام هي :

الاستبطاء : وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ ^(١) ؟ حيث وقعت في سياق الآية الكريمة التي تقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ؟ والمعنى : أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين مضوا من قبلكم من الأنبياء ، ومن معهم من المؤمنين ؟ فأنتم لم تبتلوا مثل ابتلائهم ، مستهم الشدة والخوف والفقر والألم ، والأمراض ، وازعجوا إزعاجاً شديداً ، حتى اضطربهم الخوف الشديد إلى أن يقول الرسول - وهو أعلم الناس بالله ، وأوثقهم بنصره - والذين آمنوا معه : « متى نصر الله » ؟

فقد استطالوا مدة العذاب واستبطثوا مجيء النصر ، فمتى ليست هنا في معناها الحقيقي ، وإنما هي لغرض آخر هو الاستبطاء . وسر التعبير بصيغة الاستفهام في مقام « الاستبطاء » إظهار السآمة من طول الانتظار ، وجذب انتباه السامع ، ودعوته للمشاركة .

وتسمع زميلك وأنت تنتظر معه وصول السيارة ، وقد طال انتظاركما لها - يقول : « متى تصل السيارة » ؟ فهو لا يريد العلم بشيء يجهله ، ولكنه يريد أن يعبر عن ملله وسآمته ، وأنه قد استبطأ وصول السيارة ، فيفيدك هذا بطريق الاستفهام ، ليجذب انتباهك . ويدعوك لمشاركته .

(١ و ٢) سورة البقرة الآية ٢١٤ .

وتقول لصاحبك : « كم دعوتك ؟ » ، إذا كنت دعوته فأبسطاً في إجابة الدعوة ، فليس المراد استفهام المتكلم عن عدد الدعوة لجهله به ، إذ لا يتعلق بعدد الدعوة غرضه .

فقريئة الإبطاء مع عدم تعلق الغرض بالاستفهام ، ومع جهل المخاطب بالعدد كل هذا يدل على أن المتكلم أراد بالاستفهام « الاستبطاء » .

واستعمال الاستفهام في مكان « الاستبطاء » يقول عنه البلاغيون . إنه استعمال مجازي لعلاقة اللزوم ويوضحون العلاقة بقولهم : إن السؤال - مثلاً - عن عدد الدعوة الذي هو مدلول اللفظ ، يستلزم الجهل بذلك العدد ، والجهل يستلزم كثرتة ، عادة أو ادعاء ، وأنه لا يحصره الإدراك من أول وهلة - وكثرتة تستلزم بعد زمن الإجابة عن زمن السؤال ، والبعد يستلزم الاستبطاء ، فهو كالمجاز المرسل لعلاقة اللزوم من استعمال الدال على الملزوم في اللزوم ، وتكون العلاقة في قوله تعالى : (متى نصر الله) ؟ أن الاستفهام عن زمان النصر يستلزم الجهل به ، والجهل به يستلزم استبعاده عادة أو ادعاء ، إذ لو كان قريباً لكان معلوماً بنفسه أو بأمارته الدالة عليه ، واستبعاده يستلزم استبطاءه على جهة المجاز المرسل .

ومنه قول أبي الطيب :

حتام نحن نساري النجم في الظلم وما سراه على خف ولا قدم

نساري : من السرى وهو مشي الليل ، يقول : إلى متى نسري مع النجم في الليل ، وهو لا يسري على خف كالإبل ، ولا قدم كالناس فلا يتعب مثلنا ، ومثل مطايانا .

فالشاعر لا يسأل عن الزمان ، ولكنه يستبطن مجيء هذا اليوم الذي يصل فيه إلى هدفه وبغيته .

ويقول البهاء زهير :

أمولاي إني في هواك معذب وحتام أبقى في العذاب وأمكث
فهو يستبطن مجيء يوم الخلاص مما يعانيه من هذا العذاب الذي يعيش
فيه .

وقوله أيضاً :

يا أنعم الناس قل لي إلى متى فيك أشقى
فهو يستبطن اليوم الذي يذهب فيه شقاؤه .

وكل ذلك يكون في مقام يقصد المتكلم فيه إظهار السآمة مع توقع
حصول المطلوب .

الاستبعاد : وقد يراد من الاستفهام معنى « الاستبعاد » وهو عد الشيء
بعيداً ، والفرق بينه وبين الاستبطاء ، أن الاستبعاد متعلقه غير متوقع .
والاستبطاء متعلقه متوقع غير أنه بطيء في زمن انتظاره .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ (١) .

يتعجب الكفار من فكرة البعث ، ويوضحون سبب تعجبهم بقولهم « هل
حين نموت ، ونصير تراباً ، نرجع ثانياً أحياء ؟ ! ذلك الرجوع الذي يقول به
محمد رجوع غير ممكن ، فرد سبحانه تعجبهم واستبعادهم بقوله : ﴿ قَدْ
عَلِمْنَا مَا تُنْقِصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ (٢) فلا يستبعد علينا جمعها بعد تفرقها .

فالاستفهام في الآية الكريمة ليس مراداً به المعنى الحقيقي ، ولكنه خرج
إلى معنى الاستبعاد ، وسر التعبير بالاستفهام مقام الاستبعاد أن الاستفهام
يوشي بحيرة الكفار واستبعادهم لأمر هذا البعث ، ولا يريب أنه أبلغ وأجمل

(١) سورة ق ، الآية ٢ و ٣ .

(٢) سورة ق ، الآية ٤ .

من أن يعرض قول الكفار في صورة خبرية ، كأن يقول « إنه لمن غير الممكن أن نرجع إلى الحياة مرة أخرى بعد أن نصير تراباً » لما في الاستفهام من إيجاز وإلهاب وجذب للانتباه ، وإرهاق للمشاعر والحث على التفكير والدعوة إلى المشاركة . وتصوير لحال المتكلمين .

واستعمال الاستفهام في مقام « الاستبعاد » من قبيل المجاز المرسل والعلاقة بين الاستفهام والاستبعاد ، أن الاستفهام مسبب عن استبعاد الوقوع ، لأن بعد الشيء يقتضي الجهل به ، والجهل به يقتضي الاستفهام عنه ، فالعلاقة المسببية .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَنَّى لَهُم الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾^(١) فالاستفهام في الآية الكريمة ليس على حقيقته ، لاستحالة حقيقة الاستفهام من الله جل وعلا الذي يعلم السر وما يخفى ، والمناسب في هذه الآية أن يكون الاستفهام في مقام الاستبعاد ، بقرينة سياق الكلام ، وبدليل قوله تعالى بعد : ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾^(٢) والمعنى : من أين لهم التذكر والاعتبار والرجوع إلى الحق ، والحال أنهم جاءهم رسول يعلمون صدقه وأمانته ، فأعرضوا عنه ، وفي ذلك استثارته وتنبيههم إلى ما هم فيه .
ويقول ناجي :

سيان ما أجهل أو أعلم من غامض الليل ولغز النهار
سيستمر المسرح الأعظم راوية طالت ، وأين الستار

فالشاعر في دهشة وحيرة مما يجري على مسرح الحياة من أحداث يتعاقب بها الليل والنهار ، وقد عبر بالاستفهام مقام « الاستبعاد » لما فيه من

(١) سورة الدخان ، الآية ١٣ .

(٢) سورة الدخان الآية ١٣ - ١٤ .

تصوير وإلهاب ودعوة إلى المشاركة ، وتحسن معنى الاستبعاد بما وراءه من
حيرة وتعجب ، ولا شك أن عرض الفكرة في صورة الاستفهام « أين
الستار ؟ » أبلغ وأجمل من عرضها في صورة خبرية كأن يقال : « الستار بعيد »
مثلاً .

ويقول أبو تمام :

من لي بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم رد جوابه
فأبو تمام يستبعد أن يوجد إنسان على هذا القدر من الحلم وقوة
الاحتمال .

ونقول : « من يعمل لنصرة دينه ؟ » « من يتقي الله في اليتيم ؟ » ، « من
يساعد المسكين ؟ » إذا كنا نستبعد أن يوجد إنسان يقوم بهذه الواجبات ، ولا
شك أن هذا أبلغ وأجمل وأوجز من قولنا : إنه لمن المستبعد أن يوجد في
زماننا شخص يعمل لنصرة دينه . وهكذا .

التحسر : وقد يستعمل الاستفهام في معنى « التحسر » ، وذلك في مقام
يظهر فيه المتكلم الحزن على شيء مضى .

تأمل قول البارودي في رثاء زوجه :

يا دهر فيم فجعتني بحليلة كانت خلاصة عدتي وعتادي
إن كنت لم ترحم ضنائي لبعدها أفلا رحمت من الأسى أولادي ؟

فجعه : أوجعه ، والحليلة : الزوجة ، وخلاصة الشيء : خياره ، والعدة
والعتاد : ما يعده المرء لاتقاء حوادث الدهر ، والضنى : المرض ، والأسى :
الحزن .

يتحسر البارودي على زوجه ، ويعتب على الدهر الذي انتزع منه كل
شيء في حياته ، وكان عليه أن يرحم ضنائه أو أسى أولاده ، وقد عبر

بالاستفهام مقام « التحسر » للإثارة والإلهاب ، وجذب المشاعر ، ودعوة الناس لمشاركته في حسرته وأسائه .

واستعمال الاستفهام في مقام « التحسر » من قبيل المجاز المرسل ، والعلاقة المسببية ، لأن التحسر عن الشيء يقتضي الجهل به ، والجهل به يقتضي الاستفهام عنه .

ويقول حافظ إبراهيم في وصف حريق « ميت غمر » .

سائلوا الليل عنهم والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى

يتحسر شاعر النيل ، ويتفجع على هؤلاء المنكوبين الذين ساءت أحوالهم من جراء ما أصابهم من الحريق ، ويستعمل الاستفهام ، ليلهب الشاعر الجماهير ، ليهبوا إلى مساعدة المصابين في مصابهم .

التعجب : وقد يأتي الاستفهام بمعنى التعجب : وذلك في مقام يتعجب فيه المتكلم من مضمون الكلام ، كما في قوله تعالى في قصة سليمان مع الهمداني يحكي سؤاله عنه : ﴿ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدْدَ ﴾ ^(١) ، فليس من المعقول أن يستفهم سيدنا سليمان عن نفسه ، ولكن لما كان الهمداني لا يغيب عنه إلا بإذنه ، فلما لم يره تعجب من حال نفسه في عدم إبصاره إياه .

واستعمال الاستفهام في مقام « التعجب » مجاز مرسل من استعمال اسم الملزوم في اللازم . وذلك لأن السؤال عن الحال ، وهو السبب في عدم الرؤية يستلزم الجهل بذلك السبب ، والجهل بسبب عدم الرؤية يستلزم التعجب .

وفي التعبير بأسلوب الاستفهام مقام التعجب - إثارة وتحريك .

(١) سورة النمل ، الآية ٢٠ .

ومن الاستفهام المراد به « التعجب » قول كثير عزة :
فينا عجباً للقلب كيف اعترافه وللنفس لهما وطنت كيف ذلت

اعترافه : صبره على آلام الحب .

يتعجب الشاعر من صبره على ما يتحملة من آلام ، ومن نفسه كيف
استعذبت المذلة في العشق ، والتعبير بأسلوب الاستفهام في مقام التعجب ،
لاستثارة العطف والشفقة على هذا المحب الولهان ، وتصوير لحاله ، وتعبير
عن نبضات قلبه :

ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَلِدْتُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ
هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (١) لما بشر الملائكة سيدنا إبراهيم وزوجه بإسحاق وبولده
يعقوب ، قالت الزوجة : « يا ويلتا كيف ألد وأنا عجوز عشت طول حياتي
عقيماً ، وهذا زوجي كما ترونه شيخاً كبيراً لا يولد لمثله من مثلي .

فاستعملت أسلوب الاستفهام مكان « التعجب » لتعبر عن خلجات نفسها
وتصور فرحتها ، وتحرك السامعين وتجذب انتباههم ، بأجمل طريق وأوجزه .

التنبيه : على ضلال : وقد يأتي الاستفهام ، ويراد منه التنبيه على
ضلال ، وذلك في مقام يقصد فيه المتكلم لفت نظر المخاطب إلى خطئه ،
كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ * الْبَصَّارِ الْكُنُوسِ * وَالْبَلِّ إِذَا
عَسَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي
الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ
الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ
تَذْهَبُونَ ﴾ (٢) .

(١) سورة هود ، الآية ٧٢ .

(٢) سورة التكوير ، الآية ١٥ - ٢٦ .

الخنس : جمع خانسة من خنس الشيء إذا تأخر ورجع ، والمراد بها النجوم التي تجري مع الشمس في النهار دون أن ترى ، فإذا غابت الشمس وظهرت ، صارت كأنها تأخرت عن الشمس ، ورجعت عن السير معاً ، فهذا الخنوس يترتب عليه ظهورها ليلاً .

الجواري : جمع جارية ، الكنس : جمع كائسة ، وأصلها الظبية التي دخلت في كناسها بكسر الكاف ، وهو بيتها الذي تتخذه من أغصان الشجر ، والمراد النجوم التي تختفي عند طلوع الشمس ، فالأوصاف الثلاثة للنجوم باعتبار حالاتها المختلفة .

وأقسم بها سبحانه لما فيها من النظام البديع الدال على قدرة مديرها .
عسعن : أي أقبل ظلامه ، تنفس : أصل التنفس إخراج النفس من الجوف فيستريح صاحبه .

والمعنى : أن أول النهار كأنه شخص مهموم من ضغط الليل عليه ، فإذا ذهب الليل تنفس انبساطاً ، وأشرق وجهه ، والكلام كناية عن ظهور ضوئه .

إنه : أي القرآن ، وما فيه من أخبار الآخرة ، لقول رسول : المراد جبريل عليه السلام ، وهو صاحب مكانة وشرف ، ومطاع في جميع الذين في الملأ الأعلى ، وأمين على الوحي وكل ما يسند إليه .

وأقسم لكم أن محمداً الذي صاحبكم مدة طويلة ، وعرفتم خلقه ، ليس مجنوناً كما يفتري بعضكم ، وأنه يعرف جبريل حق المعرفة فهو واثق بما يلقيه إليه ، ولقد رآه في صور مختلفة حتى في صورته الحقيقية ، وأنه صلى الله عليه وسلم ليس حريصاً على ما عنده من الغيب بخلاً به ، فيستحيل عليه أن يكتم عنكم منه شيئاً طمعاً في أخذ أجر منكم كما يفعل الكهان ، وليس الذي جاء به رسولنا قول شيطان ملعون كما يقول بعضكم ، وإذا كان الأمر كما ذكر ، فأني طريق تسلكونه بعد ما أحاط بكم البرهان من جميع جهاتكم ، فأين

تذهبون في القول إنه إفك ، وأنه أساطير الأولين ؟ لا شك أنكم ذاهبون إلى ضلال .

وسر التعبير بأسلوب الاستفهام ، تصوير لحال الكفار وإثارة مشاعرهم . ولفت انتباههم ، ودعوتهم إلى النظر إلى ما هم فيه من ضلال لعلهم يقلعون عنه .

فاستعمال صيغة الاستفهام في التنبيه المذكور من استعمال اسم الملزوم في اللازم ، وكثيراً ما يؤكد استعمال الاستفهام في التنبيه على ضلال بالتصريح بالضلال ، فيقال لمن ضل عن طريق الصواب : « يا هذا إلى أين تذهب ؟ قد ضللت الطريق فارجع .

التحويل : وقد يراد من الاستفهام « التحويل » ، إذا كان المتكلم يقصد المبالغة والتفخيم في شأن من الشئون كما في قوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾^(١) والحاقة : هي القيامة ، لأن الأمر يحق في نفسها من غير شك ، فالله جل وعلا لا يستفهم عنها ، لأنه الخالق لها ، وإنما المراد « التحويل » من شأنها ، وتصوير أمرها ، بأسلوب الاستفهام الذي يحرك النفس . ويلهب المشاعر :

ومثله قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾^(٢) . وكل ما كان على هذه الشاكلة مما هو علم ليوم القيامة ، لأنها تفرع القلوب بالفرع ، وتفرع أعداء الله بالعذاب .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾^(٣) قرأ ابن عباس رضي الله عنهما (مَنْ

(١) سورة الحاقة ، الآيات : ١ و ٢ و ٣ .

(٢) سورة القارعة ، الآيات : ١ و ٢ و ٣ .

(٣) سورة الدخان ، الآية ٣٠ - ٣١ .

فرعون ٩) بلفظ الاستفهام .

لما وصف الله تعالى - العذاب بأنه مهين لشدة وفظاعة شأنه ، أراد أن يصور كنهه ، فقال : (مَنْ فرعون) أي : أتعرفون مَنْ هو في فرط عتوه وتجبره ؟ ما ظنكم بعذاب يكون فرعون هو المعذَّب به ؟ ثم عرف حاله^(١) بقوله : (إنه كان عالياً من المسرفين) .

الوهيد : وقد يأتي الاستفهام « للوعيد » كقولك لمن يسيء الأدب معك : « ألم أؤدب فلاناً » ، وإنما يكون وعيداً إذا كان المخاطب المسيء للأدب يعلم ذلك التأديب الذي حصل منك إلى فلان هذا ، وأنت تعلم أنه يعلم ذلك ، فلا يحمل كلامك حينئذ على الاستفهام الحقيقي الذي يقتضي الجهل ، بل يحمله على الوعيد بقرينة كراهيتك للإساءة المقتضية للزجر بالوعيد .

والعلاقة بين الاستفهام والوعيد للزوم ، فإن الاستفهام ينبه المخاطب على جزاء إساءة الأدب ، وهذا يستلزم وعيده لاتصافه بإساءة الأدب . فهو مجاز مرسل من استعمال اسم الملزوم في اللازم .

ولك أن تجعل الكلام من قبيل الكناية بأن تجعل اللفظ مستعملاً في الاستفهام لينتقل منه إلى الوعيد ، والغرض تصوير المتكلم وقد كتم غيظه وترجم عنه بلفت انتباه المخاطب إلى ما يقع حوله من تأديب غيره ، فيفهم الوعيد والتخويف ، فلا يجراً على مخالفته .

تأمل قوله تعالى : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نُهَبِكِ الْأُولَيْنِ * ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ ﴾^(٢) والمعنى : ويل للمكذبين في ذلك اليوم الهائل الذي هو

انظر الإيضاح مع البغية ج ٢ ص ٥٠-٥١ .

(٢) سورة المرسلات ، الآية ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

يوم الفصل ، فقد علمتم هلاك المكذبين لرسولهم من لدن آدم إلى محمد ﷺ -
 بالعذاب في الدنيا - ، فلكم في ذلك عبرة وعظة يا كفار مكة أنتم ومن وافقكم
 في تكذيب محمد ﷺ . فإذا لم تعتبروا وتدخلوا في دين الله فسيكون مصيركم
 مثل مصير هذه الأمم قبلكم ، فانت تحس « الوعيد » للكفار في هذه الآيات ،
 وترى صورتهم الحائرة الضالة ، وهم يعلمون ما حدث للمكذبين من قبلهم .

وعلى ذلك فلا مكان للاستفهام بل المقام « للوعيد » وجاء بصورة
 الاستفهام ليلفت الكفار إلى النظر والتفكير في حالهم ، لعلمهم يرشدون ،
 ويقلعون عن تكذيب رسولهم الذي هو قائد فلاحهم ، ومفتاح نهضتهم .

الأمر : وقد يكون الاستفهام مراداً منه « الأمر » ، نحو قوله تعالى :
 ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ
 أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١) والمعنى : فإن لم يستجب لكم من تطلبون منهم المساعدة
 لكي يتسنى لكم معارضة القرآن - لعجزهم ، فيجب أن تعلموا أن القرآن
 الكريم ما أنزل إلا بعلم الله ، فلا يقدر عليه سواه ، وإذا ثبت هذا فاشهدوا أنه
 لا إله إلا هو سبحانه ، وبعد انقطاع كل شبهة حول إعجاز القرآن فيجب أن
 تدخلوا في الإسلام ، أي : ادخلوا في الإسلام .

ومثله قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴾ (٢) ، والمعنى : إذكروا فهل هناك
 عاقل يتذكر عاقبة الكفر بالله فيبتعد عنه ؟ والمراد ابتعدوا عن الكفر إذا كنتم
 من العقلاء .

واستعمال صيغة الاستفهام في مقام « الأمر » من باب المجاز المرسل
 لعلاقة الإطلاق والتقييد ، لأن الاستفهام طلب الإقرار بالجواب مع سبق جهل
 المستفهم ، فاستعمل في مطلق الطلب ، ثم استعمل في الطلب على سبيل

(١) سورة هود ، الآية ١٤ .

(٢) سورة القمر ، الآية ١٥ .

الاستعلاء ، وهو « الأمر » .

التقرير : وقد يكون المراد من الاستفهام « التقرير » . وذلك إذا أراد المتكلم حمل المخاطب على الاعتراف بمضمون الكلام ، كما في قوله تعالى : على لسان فرعون : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ لَيْنًا وَّلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ (١) .

فرعون يعلم يقيناً أن موسى عليه السلام قد عاش في مصر وليداً ، إذن فليس الغرض من الاستفهام معناه الحقيقي ، لأن الاستفهام كما علمنا يقتضي الجهل بالمستفهم عنه ، وفرعون كان لا يجهله .

وإنما المراد حمل موسى عليه السلام - على الإقرار بذلك ، أو تذكيره به على الأقل . فتذكر آلاء فرعون عليه في صغره ، وتربيته له ، أملاً في أن يراجع سيدنا موسى عليه السلام - نفسه ، ويقنع عن العمل على تقويض عبادة المصريين له ، وأنى لموسى أن يرجع وهو مأمور من الله الواحد الأحد ؟!

ومجيء الكلام على صورة الاستفهام تعبير حي عن نفسية فرعون ومحاولته الدفاع عن عرشه بكل وسيلة سواء أكانت حرباً أم نفسية أم حرباً مسلحة ؟ . وفي هذا أيضاً محاولة لجذب مشاعر المصريين وإثارة انتباههم .

ومنه قول جرير يمدح بني أمية :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فجرير لم يستفهم على سبيل الحقيقة لأن فضل بني أمية وكرمهم لا يجهله أحد حتى يستفهم عنهما .

ولو كان استفهاماً حقيقياً لما أعطاه الخليفة مائة من الإبل برعاتها (٢) .

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٨ .

(٢) مجاز القرآن ص ١٨٣ - ١٨٤ ، ج ١ تحقيق د. فؤاد سركيس الطبعة الأولى نشر الخانجي .

وإنما المراد بالاستفهام مدح بني أمية بشيء معلوم لدى الناس مع جذب المشاعر نحو بني أمية والالتفاف حولهم .

واستعمال صيغة الاستفهام في « التقرير » مجاز مرسل علاقته بالإطلاق والتقييد ، وذلك لأن الاستفهام طلب الإقرار من غير سبق جهل بالمستفهم عنه ، ويجوز أن يكون الاستفهام في هذا البيت للإنكار كما سيأتي .

ويشترط في « الهمزة » أن يليها المقرر به كقولنا : « أفعلت » إذا أردت أن تقرره بأن الفعل كان منه ، وكقولك : « أنت فعلت » إذا أردت أن تقرره بأنه الفاعل .

وذهب الشيخ عبد القاهر والسكاكي وغيرهما إلى أن قوله تعالى : ﴿ أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ ^(١) من « التقرير » أي : الاستفهام المراد به التقرير ، قال الشيخ : « لم يقولوا ذلك له عليه السلام ، وهم يريدون أن يقرّ لهم بأن كسر الأصنام قد كان ، ولكن أن يقر بأنه منه كان ، وكيف وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم : (أنت فعلت هذا) وقال عليه السلام : (بل فعله كبيرهم هذا) ، ولو كان التقرير بالفعل في قولهم : (أنت فعلت) لكان الجواب : « فعلت أو لم أفعل » هذا وسياق الآيات يدل على صحة كلام الشيخ ^(٢) ، وتقول : « أزيداً ضربت »؟ إذا أردت أن تقرره بأن مضروبه زيد .

الإنكار : وقد يأتي الاستفهام « للإنكار » وهو إما أن يكون للتوبيخ أو للتكذيب .

والتوبيخ : هو التعبير والتقرير على أمر قد وقع في الماضي ، أو على

(١) دلائل الإعجاز ص ٨٦ طبع رشيد رضا الطبعة السادسة .

(٢) قوله قبل كسرها . (لا كيدن أصنامكم) ، وقولهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) فيهما دلالة على علمهم بأنه هو الذي كسرها ، ومن هنا لا يصلح حمل الاستفهام في الآية على حقيقته .

أمريخاف المرء أن يقع في المستقبل بأن كان المخاطب بصدد أن يفعله .

فإذا كان « التوبيخ » في الماضي كان المعنى : ما كان ينبغي أن يكون بالفعل واقع ، والمنفى هو الانبغاء ، وقرينته أن يكون المقام للتأنيب كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ (١) .

فيوسف عليه السلام لا ينتظر جواباً من إخوته إذ أنه يعلم ذلك ، وإنما يريد بالاستفهام أن يحرك مشاعرهم ، ويثير عواطفهم وأفكارهم إلى تذكر هذه الحادثة الأليمة التي تصور مؤامرة الأخوة على أخيهم ، فكان لا ينبغي منهم هذا الفعل ولا يليق بهم . .

ومنه قول امرئ القيس :

أغرُّك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

فهو يريد أن يقول : ما كان ينبغي أن يغرك حبي لك وتعتقدين أنني أصبحت متيمماً في هواك أفعل ما تأمرين به . ولعلك تحس التصوير الفني الجميل الذي صور به الاستفهام لنفسية امرئ القيس وقصة حبه مع ما في التعبير من إيجاز بديع .

وتقول للرجل : « أعصيت ربك » ؟ و « أرسبت في الامتحان » ؟ ، بمعنى : ما كان ينبغي أن يكون هذا الذي وقع .

وإذا كان « التوبيخ » في المستقبل كان معناه : أنه لا ينبغي أن يكون ، أي : لا ينبغي أن يحدث ما دخلت عليه أداة الاستفهام ، وذلك نحو قولك لمن هم بالعصيان ولم يقع منه : « أتعصي ربك » ؟ أي أن هذا العصيان الذي أنت بصدد عمله ، لا ينبغي أن يصدر منك في المستقبل ، وهذا التوبيخ

(١) سورة يوسف ، الآية ٨٩ .

لا يقتضي وقوع الموبخ عليه بالفعل ، وإنما يقتضي كون المخاطب بصدد الفعل .

ومثله قولنا للرجل يضيع الحق : « أتسى قديم إحسان فلان ؟ » ، وقولنا للرجل يركب الخطر : « أخرج في هذا الوقت ؟ » أتذهب في غير الطريق ؟ .

والغرض بذلك تنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل أو يرتدع عن فعل ما هم به .

ومنه قول الشاعر :

إلام الخلف بينكم إلاما	وهذي الضجة الكبرى علاما
وفيم يکید بعضكم لبعض	وتبدون العداوة والخصاما
وفرقتم فلا مصر استقرت	على حال ، ولا السودان داما

فالشاعر لا يستفهم ولكنه يلوم مخاطبيه ، ويوبخهم على ما حدث بينهم من فرقة وخصام وما سيقع بينهم ، وكأنه يقول لهم : ما كان ينبغي أن يحدث هذا الخلاف والفرقة والتنازع ، ولا ينبغي أن يحدث مثل هذا التفرق وغيره في المستقبل .

وسر التعبير بالاستفهام مكان « التوبيخ » لفتهم وإثارة انتباههم وطلب الجواب منهم لعلهم يفكرون بجدية في حالهم ، ويصلون بأنفسهم إلى ما يصلح مستقبلهم .

التكذيب : ويسمى الإنكار التكريبي أو الإنكار الإبطالي .

فإذا كان التكذيب في الماضي كان الاستفهام بمعنى لم يكن ، فالمنكر هو : ما دخلت عليه الهمزة ، ويكون إذا كان المخاطب ادعى وقوع شيء فيما مضى فجاء المتكلم بالاستفهام الإنكاري تكذيباً له فيما ادعاه .

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ ^(١) فهذا تكذيب للمشركين ورد لما يفترونه ، مما يؤدي إلى الجهل العظيم ، فإنهم يزعمون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله ، وهذا يستلزم أن الله اصطفاهم واختصهم بالبنين الذين هم الصفوة ، واختار لنفسه النوع الأدنى ، وأنه تعالى قد فضل البنات على البنين ، فكذبهم في كلا الأمرين ، أي لم يكن هذا ولا ذاك .

وإذا كان التكذيب في المستقبل بمعنى لا يكون هذا .

ومنه قول امرئ القيس :

أيقنني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كانياب أغوال

فأمرؤ القيس يكذب إنساناً تهدده بالقتل ، وينكر أن يحصل منه ذلك .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ ^(٢) ؟ أي : أنكرهكم على الاهتداء بها ، والمراد بالرحمة : النبوة والمعنى ، لا يكون ذلك .

وتقول : « أيرضى عنك فلان وأنت مقيم على ما يكره ؟ أي لا يكون ذلك .

ومنه قول الشاعر :

أترك أن قلت دراهم خالد زيارته ؟ إني إذاً للثيم

أي لا يكون ذلك مني .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٤٠ .

(٢) سورة هود ، الآية ٢٨ .

ولما كان الغرض في المثل المتقدمة إنكار الفعل ، قدم الفعل على الاسم ، فإذا أريد إنكار الاسم ، أو الفاعل أو المفعول أو غيرهما ، وجب تقديمه أيضاً .

فمثال إنكار الفاعل قولك لمن يتحلل شعراً : « أنت قلت هذا الشعر ؟ » ، كذبت . فأنت لا تنكر الفعل - وهو قول الشعر - ولكنك تنكر أن يكون هو القائل له ، وترى أن القائل غيره ، وتقول : « أنت تمنعني حقي ؟ » تريد أن غيرك هو الذي يستطيع أما أنت فلا .

هذا . . . ولإنكار الفعل بطريق الاستفهام إنكاراً تكذيبياً صورة أخرى وهي : ألا يكون الفعل فيها والياً الهمزة ، وضابطها أن ينحصر فاعل الفعل أو المفعول أو غيرهما من المتعلقات عقب الهمزة ، ويعطف عليه غيره « بأم » إن وجد ، فيتوجه الإنكار إلى الاسم المقدم بحسب الظاهر ، فيلزم من إنكاره إنكار الفعل ، لأن الفعل إذا نفي « فاعله » الذي لا فاعل غيره ، أو « مفعوله » الذي لا مفعول له غيره ، أو « ظرفه » الذي لا ظرف له غيره ، لزم انتفاؤه حتماً .

وهذه الصورة أبلغ من إيلاء الفعل الهمزة إذا أريد إنكاره - لأن نفي الفعل فيها بطريق الكناية واللزوم ، فهي بمثابة دعوى مع دليلها ، وإليك أمثلة توضح هذه الصورة .

إذا قال لك قائل : « بعثني فلان إليك » ، وأردت تكذيبه ، لأنك تعلم أن فلاناً هذا لم يبعثه ، فلك أن تقول : « أبعتك فلان إليّ ؟ » فتأتى بالفعل عقب الهمزة ، تريد أن تقول له : « لم يبعثك » وهذه هي الصورة الأولى .

ولك أن تقول : « أفلان بعثك إليّ ؟ » تنكر بحسب الظاهر العبارة أن يكون فلان هو الباعث موهماً أنه غلط ، وأن غيره هو الباعث ، وبما أنه لا باعث غيره يلزم إنكار البعث من أصله .

وإذا زعم زاعم أنه سابق أحد ابنيك في أمر فسبقه ، وأردت أن تنكر ذلك ، فلك أن تقول له مكذباً : « أسبقت أحدهما » ، أي : لم يحصل ذلك ، لأنهما لا يسبقان في رأيك ! وهذه هي الصورة الأولى .

ولك أن تقول : « أعلياً سبقت أم محمداً » تنكر بحسب الظاهر أن يكون أحدهما مسبوقاً له ، ولعل المسبوق غيرهما ، وبما أن السبق لم يتعلق بغيرهما ، يلزم انتفاؤه ، وإنكاره من أصله .

وإذا قال لك قائل : زرتك أمس فلم أجذك ، وأردت تكذيبه ، فلك أن تقول : « أزررتني أمس ؟ » بإيلاء الفعل الهمزة ، وهذه هي الصورة الأولى .

ولك أن تقول : « أليلاً زرتني أم نهاراً ! » تنكر أن يكون الليل والنهار وقتاً لزيارته فيلزم نفي هذه الزيارة ، لأنها - إن وقعت - فلا بد أن تكون في ليل أو نهار ، وهذه هي الصورة الثانية .

وكذلك إذا قلت : « أراكباً زرتني أم ماشياً ! » تنكر الحالين بحسب الظاهر ، فيلزم انتفاء الزيارة ، لأنها - إن حصلت - لا بد أن تكون على أحدهما .

ومثل ذلك إذا قلت له : أفي البيت زرتني ؟ ، وكان معلوماً أنك لم تبرح منزلك وقت الزيارة ، تنكر بحسب الظاهر أن يكون البيت موضعاً للزيارة وبما أنه لا مكان غيره فيلزم انتفاء الزيارة من أصلها .

وإذا رأيت رجلاً في مكان لا يدخله أحد إلا بإذنك ، فزعم أنك أذنت له ، فلك أن تقول له مكذباً : « أأذنت أنا لك ! » بإيلاء الفعل الهمزة ، أي : لم آذن .

ولك أن تقول : « أنا أذنت لك ! » تنفي بحسب الظاهر أن تكون أنت الآذن ، بهم أن غيرك هو الآذن ، وبما أنه لا آذن غيرك يلزم انتفاء الإذن من أصله .

تأمل قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ (١) المقصود نفي الإذن من أصله ، فإنه لا آذن في التحليل والتحرير إلا الله ، فإذا نفى أن يكون الله آذناً ، فقد انتفى الإذن .

وأخرج الكلام على الطريقة الثانية - أي : طريقة نفي الفاعل لا الفعل - ليكون الكلام أبلغ في نفي الفعل .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَلَّذَكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيْنِ ﴾ * أم اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴿ (٢) المقصود نفي الفعل - وهو التحريم لشيء ما ذكر - ولكن لم يقدم الفعل عقب الهمزة ، بل أخرج الكلام في صورة نفي المفعول دون الفعل ، ليكون أبلغ في نفي الفعل ، فإن نفيه حيثئذ يكون بطريق الكناية واللزوم ، وذكر الدعوى مع دليلها ، كأنه قيل : لو كان هناك تحريم لكان متعلقاً بواحد من هذه الأمور ، لكن واحداً منها ليس بمحرم ، فليس هناك تحريم ، وذلك أنهم كانوا تارة يحرمون ذكور الأنعام ، وتارة إناثها ، وتارة ما في بطون الإناث ذكوراً كانت أم إناثاً مختلفة ، وينسبون ذلك إلى الله ، فرد الله عليهم إفكهم بإنكار محل التحريم (٣) .

الفرق بين الإستفهام الإنكاري وبين النفي الصريح :

فسرنا الإستفهام الإنكاري بأنه تارة يكون تكذيبياً بمعنى : ما كان ، أو لا يكون ، وتارة يكون توبيخياً بمعنى : ما كان ينبغي أن يكون أو لا ينبغي أن يكون ، فاتجه السؤال الآتي : هل ترى بناء على هذا أن المعنى متحد في

(١) سورة يونس ، الآية ٥٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٤٣ .

(٣) أنظر دلائل الإعجاز ٨٦ - ٨٩ ، وأنظر أيضاً دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ص ٢٥٢ - ٢٥٧ للشيخ العدل الطبعة الثانية ١٣٧٥ - ١٩٥٥ م المطبعة المنيرية .

أسلوب الإنكار بالاستفهام ، وأسلوب الإنكار بالنفي الصريح ، وأن معنى قولنا : « أنت قلت هذا الشعر ؟ » ، وقولنا : « أنت لم تقل هذا الشعر » - واحد ؟ .

ومعنى قولنا : « أتسى إحسان فلان ؟ » وقولنا : « لا ينبغي أن تنسى إحسان فلان ، واحد ؟ .

والجواب : كلاً ، لا اتحاد في المعنى بين الأسلوبين من كل وجه ، وغرضنا من التفسير المذكور بيان مآل المعنى فقط ، لكن حقيقة الأمر أن للإنكار بالاستفهام مزية بها كان أبلغ أثراً ، وأوقع في النفس من النفي الصريح .

بيان ذلك : أنك إذا قلت : « أنت قلت هذا الشعر ؟ أتسى إحسان فلان ؟ فإنك لم تفده غرضك ، وهو تكذيبه أو توبيخه بادية ذي بدء ، بل أوقعت في روعه أنك تطلب منه جواباً ، فيتنبه ، ويرجع إلى نفسه ليحجب ، فيعيا بالجواب ويخجل ، ويعلم أنك قصدت تكذيبه ، لأنه ادعى القدرة على شيء لا يقدر عليه ، أو تخطئته وتوبيخه ، لأنه همٌ بامر لا يستصوب فعله ، وقد تتماذى به الغفلة ، ويظن أنك مستفهم حقاً ، فيقول : نعم ، أنا قلت هذا الشعر ، فتقول حينئذ : فانظم على غراره ، فيظهر عجزه ، ويفتضح أمره ، ويصبح موضعاً للسخرية والاستهزاء .

ومزية أخرى للاستفهام الإنكاري ، وهي : أن أسلوبه يشعر بثقة المتكلم واطمئنانه لا يخشى تكديماً ، ولا مخالفة ، لإيهامه أن السامع أعلم منه بحقيقة الأمر ، لذلك يطلب منه الجواب بحسب الظاهر .

أما إذا أتيت بالنفي الصريح فقلت : « أنت لم تقل هذا الشعر » ، لن يتحل شعراً ، ولا ينبغي أن تنسى إحسان فلان ، فقد أفدت غرضك من أول وهلة ، ولم توح للمخاطب أن يراجع نفسه ، ليخجل ويرتدع ، ويعلم أنه

مخطيء ولم يشعر الأسلوب بثقتك واطمئنانك إلى عدم التكذيب .

وذكر الشيخ عبد القاهر الجرجاني : « أن مما يؤيد الفرق بين الأسلوبين : أن النفي الصريح لا يقال في المستحيل ، وفيما لا يقول به عاقل ، فلا تقول - مثلاً - لمن يحاول أمراً بعيداً : « أنت لا تصعد إلى السماء ، أنت لا تنقل الجبال » ولكنك تقول : « أتصعد إلى السماء ؟ » أتنتقل الجبال ؟ أترد ما مضى ؟ » فلو كان معنى الأسلوبين واحداً من كل وجه . لامتنع الإنكار بالإستفهام كما امتنع بالنفي .

ولا يخفى أن إنكار المستحيل بالإستفهام إنما يجيء على سبيل التمثيل ، وتنزيل المخاطب الذي يطلب الأمر البعيد ، منزلة من يدعى أنه يستطيع أن يصعد إلى السماء أو ينقل الجبال ، أو يرد ما مضى ، ووجه الشبه : أن كلاً يطلب ما لا يستطيع فهو من قبيل الإستعارة التمثيلية .

والذي يظهر أنه لا مانع أن يقال أيضاً : « أنت لا تصعد إلى السماء » ، على سبيل التمثيل ، والدليل على ذلك : المثل المشهور ، وهو : « إنك لا تجني من الشوك العنب » وجني العنب من الشوك مستحيل ، والكلام تمثيل .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ ^(١) فقد نزلت الآية النبي عليه السلام في محاولته هداية الكفار بمنزلة من يحاول إسماع الموتى أو الصم . والمعنى : إن حال الكفار كحال الموتى في إنتفاء الجدوى بالسماع ، أو كحال الصم الذين لا يسمعون ، ولا يفهمون ، ولا يهتدون ، فلا اعتداد بهم ، شبه الكفار بالموتى الذين لا حس لهم ولا عقل ، وبالصم الذين لا يسمعون المواعظ ، ولا يجيبون الدعاء إلى الله ، ثم ذكر جملة لتكميل التشبيه وتأكيد فقه : (إذا ولّوا مدبرين) أي : إذا

(١) سورة النمل ، الآية ٨٠ .

عرضوا عن الحق إعراضاً تاماً ، فإن الأصم لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلاً فكيف إذا كان معرضاً عنه مولياً مدبراً .

والآية أدخلت النفي على المستحيل وذلك على سبيل التمثيل بالاستعارة .

وقد قال البحتري :

فعليك الرضا بما قسمته لك هذي المطالب المجهولة
لن تنال المزوي عنك بتدبير ، ولن تصعد السماء بحيلة

فقد أدخل النفي الصريح على المحال تشبيهاً لمن يريد أن ينال ما لم يقدر له ممن يريد أن يصعد إلى السماء .

ومن أمثلة إنكار المحال على سبيل التمثيل : قوله تعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ﴾ (١) ؟ ليس الكلام على ظاهره ، لأن سماع الصم مما لا يدعيه أحد ، بل هو على سبيل التمثيل ، وتشبيه النبي ﷺ ، في محاولته هداية الكفار الذين أصروا على كفرهم - بمن يحاول إسماع الصم ، وهداية العمي ، ووجه الشبه : أن كلا يطلب أمراً لا يحصل (٢) .

النفي : وقد يأتي الاستفهام بمعنى « النفي » ، وذلك إذا صح حلول أداة النفي محل أداة الاستفهام نحو قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ ، والمعنى : ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب والجزاء ، وتلك حقيقة مقررة لا يعارض فيها عاقل ، فكان من الممكن إفادتها بطريق « النفي » أي : « ما جزاء الإحسان إلا الإحسان » .

ولكن القرآن عرضها في أسلوب الاستفهام ليحرك الفكر ويحث على

(١) سورة الزخرف ، الآية ٤٠ .

(٢) أنظر دلائل الإعجاز ص ٩٠ وانظر أيضاً دراسات تفصيلية ص ٢٥٥ - ٢٥٧ .

النظر ليصل المرء إلى الإيمان بطريق البحث والتفكير ، وهذه من وسائل القرآن في الدعوة إلى العلم والتعليم .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ۖ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ۝ (١) ، يقول القرآن الكريم للنبي ﷺ : إن الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج معك ، سيقولون لك شغلتنا أموالنا وأهلنا فلم نستطع الخروج خوفاً عليها من الضياع ، لأنه ليس لنا من يحافظ عليها بعدنا ، ويلتمسون منك أن تستغفر لهم الله ، ليغفر لهم - والواقع قولهم هذا يخالف ما في قلوبهم فهم حاقدون على الدين ، وترد الآية عليهم فتقول : ﴿ فمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ۚ ! ، والمعنى أن أحداً غير الله تعالى لا يملك من أمرهم شيئاً ففي الاستفهام « فمَنْ » معنى النفي ، ومع النفي تهديد بالعذاب . ودفع للمنافقين على التفكير حتى يصلوا إلى الحقيقة المؤلمة بأنفسهم .

ويقول البحرني :

هل الدهر إلا غمرة وانجلاؤها وشيكاً ، وإلا ضيقة وانفراجها

الغمرة : الشدة ، وانجلاؤها : زوالها ، وشيكاً : سريعاً .

فالبحرني لا يسأل عن شيء ، وإنما يريد أن يقول : ما الدهر إلا شدة سرعان ما تزول ، وما هو إلا ضيق يعقبه فرج ، فالاستفهام في البيت وهو « هل » معناه « النفي » .

وسر التعبير في وضع « الاستفهام » مكان « النفي » أن البحرني لا يريد

(١) سورة الفتح الآية ١١ .

أن يفيد مراده من أول وهلة فيقول : « ما الدهر إلا شدة سرعان ما تزول » ولكنه يريد أن ينبه السامع في صورة سؤال ويدعوه بأن يبحث عن الجواب حتى يصل بنفسه ، وتوحي صورة الاستفهام بثقة البحري واطمئنانه وأنه مهما بحث السامع ونقب فلن يكون أمامه من سبيل إلا التسليم بهذه الحقيقة التي استلهمها الشاعر من الحياة .

التشويق : وقد يأتي الاستفهام بمعنى « التشويق » وذلك في مقام يقصد فيه المتكلم ترغيب المخاطب واستمالته كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) يقول المولى تبارك وتعالى للمؤمنين : إن الإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله خير تجارة ، وقد عرض هذه الحقيقة في صورة الاستفهام ، وذلك ليشير انتباه المؤمنين ، ويدعوهم إلى التفكير ، وانتظار الجواب والتشويق إليه ، وفي ذلك تقدير لهم ، وتثبيت للفكرة في نفوسهم .

التعظيم : وقد يأتي الاستفهام « للتعظيم » ، وذلك في مقام الإشادة والمدح يقول أبو الطيب في الرثاء :

مَنْ لِلْمَحَافِلِ وَالْجَحَافِلِ وَالسَّرَى فَقَدْتَ بِفَقْدِكَ نِيرًا لَا يَطْلُعُ

والمحافل : المجامع . والجحافل : الجيوش . والسرى : مشى الليل ، ويريد به زحف الأعداء .

فأبو الطيب لا يستفهم لأنه يعلم علم اليقين أن المرثي قد اتصف بصفات السيادة والشجاعة والكرم أيام حياته ، وإنما يريد بالاستفهام معنى آخر هو التعظيم والإجلال مع ما في ذلك من إظهار التحسر والتفجع بطريقة الاستفهام

(١) سورة الصف ، الآية ١٠ - ١١ .

التي تعمل على تحريك النفس ، وإثارة المشاعر :

وتأمل قول الشاعر :

أضاعوني وأَيُّ فتى أضاعوا - ليوم كريبه وسداد ثغر
فالشاعر لا يستفهم عن نفسه ، لأنه أعلم الناس بها ، وإنما يريد
بالاستفهام « التعظيم » بجذب الانتباه إلى شجاعته وفروسيته .

التحقير : وقد يأتي الاستفهام في مقام « التحقير » تقول . من هذا ؟ وما
هذا ؟ ومن أنت يا هذا ؟ وهو أسلوب شائع على ألسنة بعض الناس حينما
يريدون أن يحقروا إنساناً أو شيئاً لا يعتدون به ، ولا شك أنه أبلغ وأفخم
وأجمل وأتق من قولهم - مثلاً - هذا حقير ، أو « هو حقير » .

وقال أبو الطيب يهجو كافوراً :

من أية الطرق يأتي نحوك الكرم أين المحاجم يا كافور والجلم
المحاجم : جمع محجمة ، وهي آلة الحجام ، والحجام . مأخوذ من
الحجم ، والمعنى ، يقال . حجم الصبي ثدي أمه ، إذا مصه ، والجلم
الذي يجزيه .

والمعنى يقول : فأنت أهل أن تكون حجاماً مزيئاً ، فأين آلة الحجامة
حتى تشغل بها .

وأي طريق لك إلى الكرم ! وأنت لست منه في شيء^(١) .

التهكم : وقد يأتي الاستفهام في مقام « التهكم » وذلك نحو قوله تعالى :
﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا
مَا نَشَاءُ ﴾^(٢) .

(١) ديوان المتنبي شرح المكبري ص ١٥٠ ح ٤ المجلد الثاني ، نشر دار المعرفة - بيروت .

(٢) سورة هود ، الآية ٨٧ .

يقول الكفار من قوم شعيب - مستهزئين به لكثرة صلاته ، يا شعيب هل صلاتك التي تداوم عليها هي التي تأمرك أن تحملنا على ترك ما كان يعبد آباؤنا من هذه الأصنام ، وأن نمتنع عن التصرف بما ينمي أموالنا كما نشاء مما نراه في مصلحتنا ، وتحس في قول قوم شعيب التهكم والاستهزاء والسخرية ، وعبروا عن هذا بطريق الاستفهام ليدلوا على ثباتهم وكفرهم ووقوفهم الصامد على كفرهم وغبائهم .

والفرق بين التحقير والتهكم . أن التهكم قد يكون بمن هو عظيم في نفسه بخلاف التحقير (١) .

التوبيخ مع التعجب : وقد يأتي الاستفهام مقام « التوبيخ مع التعجب ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢) .

أي : كيف تكفرون وقصتكم هذه ، وحالكم أنكم كنتم أمواتاً نطفاً في أصلاب آبائكم فجعلكم أحياء ، ثم يميتكم بعد هذه الحياة ، ثم يحييكم بعد الموت ، ثم يحاسبكم .

أما التوبيخ فلأن الكفر مع هذه الحال ينبيء عن الانهماك في الغفلة أو الجهل ، وأما التعجب ، فلأن قصة خلق السموات والأرض والإنسان تدل على وجود الله جل وعلا والإيمان به ، وهذا يؤدي إلى التعجب من الكافر الذي يرى الآيات الواضحات أمامه ثم يتعمى عنها .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ

(١) أنظر الإيضاح مع البغية ح ٢ ص ٥٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨ .

تَلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ ، والمعنى : « أتعلمون » الهمزة للتقرير مع القويخ والتعجيب من حالهم ، والبر بركة الخير والمعروف ، ومنه البر لسعته ، ويتناول كل خير ، ومنه قولهم : « صدقت وبررت » وكان الأحبار يأمر من نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد ﷺ ، ولا يتبعونه ، وقيل : كانوا يأمر من بالصدقة ولا يتصدقون ، وإذا أتوا بصدقات ليفرقوها خانوا فيها . (وتنسون أنفسكم) وتركونها من البر كالمنسيات (وأنتم تتلون الكتاب) تبكى مثل قوله : (وأنتم تعلمون) يعني تتلون التوراة ، وفيها نعت محمد ﷺ أو فيها الوعيد على الخيانة ، وترك البر ، ومخالفة القول بالعمل (أفلا تعقلون) تويخ عظيم بمعنى أفلا تفتنون لفتح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقبحه عن ارتكابه ، « كأنكم في ذلك مسلوبو العقول ، لأن العقول تأباه وتدفعه » (٢) .

وقد يأتي الاستفهام « للتمني » : وذلك إذا صح حلول « ليت » محل أداة الاستفهام ، وذلك يكون في مقام طلب المستحيل ، كما في قوله تعالى على لسان أهل النار : ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ (٣) فهم يعلمون يقيناً أنه لا شفيع لهم ولكنهم من شدة الحيرة والتخبط وشدة العذاب الذي ألهم بهم ، ظنوا أن غير الممكن ممكن فذهبوا يسألون عنه كما يسأل عن الشيء الذي لا استحالة في وجوده . ومنه قول الشاعر يخاطب الطلول الدراسة :

هل بالطلول لسائل رد أم هل لهنأ بتعلم عهد ؟

فالشاعر يتمنى أن يحظى من هذه الأطلال الدراسة ببرد يخفف ما به من

(١) سورة البقرة ، الآية ٤٤ .

(٢) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، عيون الأماويل في وجوه التأويل ص ٩٩ - ١٠٠ ح ١ مطبعة الاستقامة نشر المكتبة التجارية سنة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ٥٣ .

ألم الحسرة على فراق أحبته ، فقد استعمل « هل » مكان « ليت » ، ليصور حالته أتم تصوير وأكملة ، إذ هو في حال الولهان الذي يتخيل أن غير الممكن ممكن الوقوع .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُغُ ﴾^(١) ، والمعنى أن الكافر حينما يرى أهوال القيامة ، يقول متمنياً : هل هناك طريق للفرار ؟ فيزجر عن هذا التمني ، ويقال له : لا ملجأ لك اليوم ينجيك من الحساب والعقاب .

ولا يخفى أن استعمال الاستفهام هنا مكان « التمني » يصور حال الكافر يوم القيامة ، وأنه من شدة وهول ما رأى سأل عن طريق الخلاص فوضع الممكن مكان المستحيل ، وذلك ما يجعل الأسلوب حياً نابضاً له إحياءات تشيع القارئ ، وتثير فيه روح المتابعة والمشاركة .

إلى غير ذلك من الأغراض التي يدركها صاحب الذوق الأدبي اللماح بمساعدة القرائن ودلالة الأحوال .

أسلوب التمني :

وقالوا في تعريفه : إنه طلب أمر تحبه النفس ، وتميل إليه ، ولكنه لا يرجى حصوله ، إما لاستحالته ، أو لكونه لا يطمع في نيله .

واللفظ الموضوع له هو « ليت » .

فمثال تمنى الأمر المحبوب الذي لا يمكن حصوله لكونه مستحيلاً .

قول الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

(١) سورة القيامة ، الآية ١٠ .

فالشاعر يتمنى عودة الشباب يوماً واحداً ، وهي أمنية محبوبة إلى نفسه ،
وكلاهما غير ممكنة الحصول ، لأنه يستحيل عودة الشباب مرة أخرى . ومثله
قول الشاعر :

ليت الكواكب تدنولي فأنظّمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمي

فهو يتمنى أن تدنو الكواكب لينظّمها عقوداً يقدمها للمدوح ، وهذه الأمنية
محببة إلى نفس الشاعر ، ولكنها غير ممكنة الحصول ، لأنه يستحيل أن تدع
الكواكب أفلاكها ، وتتجمع بين يديه ليصنع منها عقود مدحه .

ومثال تمنى الشيء المحبوب الممكن حصوله ، ولكنه غير مطموح فيه
لبعد مناله ، كقول الله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا
مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ (١) فالآية تخبرنا أن قوم قارون حينما رأوا كنوزه تنوء عن
حملها العصابة القوية تمنوا أن يكون لهم مثل تلك الكنوز ، وهي أمنية محبوبة
لأنفسهم ، وهي ممكنة الوقوع ، وليست بمستحيلة ، ولكن هذه الأموال
العظيمة لا يطعمون في نيلها لبعد منالها .

وعلى ذلك يكون « التمني » فيما هو مستحيل ، أو فيما هو ممكن ،
ولكن لا طماعية في حصوله لبعد مناله .

فإذا كان الممكن يطمع في حصوله صار ترجياً ، وحينئذ لا يستعمل فيه
إلا الألفاظ الدالة على الترجي « كلعل » و « عسى » فمثلاً إذا كنت تطلب
حصول مال في هذا العام متوقفاً وطامعاً في حصوله ، قلت : « لعل لي مالاً
أحج به » ، وإن كان غير متوقع ولا طماعية لك فيه قلت :

« ليت لي مالاً في هذا العام أحج به » .

(١) سورة القصص الآية ٧٩ .

وباقى صيغ الطلب - (الأمر - النداء - الاستفهام - النهي) تكون فيما هو ممكن .

وعلى ذلك قد يتمنى بالفاظ أخرى غير « ليت » لغرض بلاغي ، وهو إبراز المتمنى « غير الممكن » في صورة الممكن القريب الحصول ، لكمال العناية به مثل : هل ، لو ، لعل .

فمثال : « هل » : قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ ^(١) فالآية الكريمة تخبرنا بأن الكافرين حين نزل بهم العذاب يوم القيامة ، تمنوا أن يجدوا من النار مخرجاً وخلاصاً ، ولكن هذا أمر مستحيل ، ولكنهم من فرط حيرتهم ودهشتهم ، وشدة ما هم فيه ، طارت عقولهم ، وظنوا أن غير الممكن الذي هو : « الخروج من النار » - ممكن فاستعملوا لفظ « هل » الموضوع للاستفهام الذي هو ممكن - في التمني بدلاً من اللفظ الموضوع له في الأصل ، وهو « ليت » التي تستعمل في الأمر المستحيل ، وتحس بأن استعمال لفظ « هل » قام بتصوير حال الكافرين ، وإبراز مكنون نفوسهم على أتم وجه وأكملة .

وأما « لو » فكقوله تعالى : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) يتمنى الكافرون حين يذوقون العذاب يوم القيامة أن يعودوا للحياة مرة أخرى ليؤمنوا كما آمن المؤمنون - ولكن عودتهم إلى الحياة مرة ثانية أمنية مستحيلة . فكان المقام لـ « ليت » ولكن « النظم الكريم » جاءت فيه « لو » بدل « ليت » ، وذلك لتصوير حالهم ، وشدة ما أصابهم ، وعظم ما حل بهم ، وذهاب عقولهم ، حتى ظنوا أن غير الممكن ممكن ، فاستعملوا « لو »

(١) سورة غافر ، الآية ١١ .

(٢) سورة الشعراء الآية ١٠٢ .

التي تستعمل في الأمر الممكن بدل « ليت » التي عرفنا أنها تستعمل في الأمر المستحيل .

أحرف التنديم والتحضيض

أحرف التنديم والتحضيض هي :

١ - « هَلْ » : بتشديد اللام ، مأخوذة من « هل » المنقولة للتمني ، و« لا » المزيدة .

٢ - « أَلَا » : بتشديد اللام أيضاً ، وهي « هَلْ » بعينها ، وإنما صارت « أَلَا » بقلب الهاء همزة .

٣ - « لَوْلا » : مأخوذة من « لو » المنقولة للتمني ، و« لا » المزيدة .

٤ - « لَوْما » : مأخوذة من « لو » المنقولة للتمني ، و« ما » المزيدة .

وهذه الأحرف الأربعة : « هَلْ » ، « أَلَا » ، « لَوْلا » ، « لَوْما » - كما ترى - مأخوذة من « هل » و« لو » حال التركيب مع « لا » و« ما » لا بعد التركيب ، فلم يتحد المأخوذ والمأخوذ منه .

و« هل » و« لو » قبل التركيب يجوز أن يستعملا مكان « التمني » ، وأما بعد التركيب فإن « هَلَا » ، و« أَلَا » و« لَوْلا » و« لَوْما » تدل على معنى التمني نصاً ، والتركيب - حينئذ - يكون قرينة على هذا المراد .

والتمني هذا ليس مقصوداً بالذات ، بل ليتولد منه معنى التنديم والتحضيض من أول الأمر - من غير توسط التمني - ، لأن التنديم متعلق بالمضي والتحضيض متعلق بالمستقبل ، وهما مختلفان ، فكان « التمني » واسطة ، لأنه طلب في الماضي وفي المستقبل ، فهو شامل لمعنييهما .

وجه التولد : أن التمني إنما يكون في الأمور المحبوبة ، فإذا فات الأمر

المحبيب له ندم المخاطب عليه ، وإن كان مستقبلاً حظه عليه .
 فإذا دخلت هذه الأحرف على الماضي تولد معنى التنديم ، ومعناه :
 جعل المخاطب نادماً بإظهار أنه كان ينبغي أن يفعل ما فاتته لما فيه من الحكمة
 المقتضية للفعل ، فيصير لفواته نادماً ، وذلك نحو قولك بعد فوات إكرامه
 زيداً . « هلاً أكرمت زيداً » .

والفعل بعد فوات وقته لا يمكن طلب فعله في وقته حقيقة ، بل تمنيه
 لصيرورته محالاً .

ولما فات إمكان فعله - مع ما فيه من الحكمة المقتضية للفعل المعلومة
 للمخاطب - صار في الكلام إشارة إلى أنه كان مطلوباً من المخاطب فقوته ،
 فيصير المخاطب بسماع هذا الكلام - المفيد لهذا المعنى - نادماً ، فمعنى
 كونه مطلوباً - وهو الذي أوجب ندمه - أنه كان ينبغي أن يفعله وقت إمكانه -
 فمعنى : « هلا أكرمته » على هذا : ليتك أكرمته ، وتقول أيضاً : « لوما
 أكرمته » على معنى ليتك أكرمته وتقول : « ألا أكرمت زيداً ، ولولا قلت
 الحق » على معنى ليتك أكرمت زيداً ، وليتك قلت الحق ، تجعل المخاطب
 نادماً على ترك هذا الفعل الذي كان ينبغي أن يفعله .

وإذا دخلت هذه الأحرف على المستقبل تولد معنى التحضيض ،
 ومعناه : الحث على الفعل لإمكان حدوثه ، تقول : « هلا تقوم » و « لوما
 تقوم » ، و « لولا تقوم » ، و « ألا تقوم » كل ذلك على معنى ليتك تقوم قصداً
 إلى حثه على القيام^(١) .

وأما « لعل » فكما في قوله تعالى حكاية عن فرعون موسى : ﴿ وَقَالَ
 فِرْعَوْنُ يَا هَٰمَّانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ

(١) أنظر شروح التلخيص ص ٢٤٢ - ٢٤٥ ح ٢ .

إلى إله موسى ﴿١﴾ ففرعون يعلم أن ما يأمله بعيد المنال ، فالمقام مقام
« التمني » ، ولكن النظم القرآني ورد فيه « لعل » مكان « ليت » ، لتصوير
حال فرعون النفسية ، ورغبته الملحة في الثبات على كفره والمحافظة على
سلطانه ، ومحاربة الحق بأبلغ طريق ، وفي ذلك بيان لإمعانه في عتوه وصلفه
وعماه ، حتى اعتقد أن البعيد المنال قريب المنال .

وهكذا ترى أن اللغة العربية فيها من الأدوات التي تكشف عن
خبايا النفوس ، وتبرز ما فيها بأوجز طريق .

أسلوب النداء

النداء : هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب كلمة « أدعو » لفظاً كقوله
تعالى : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾ (٢) ، أو تقديرأ كما في
قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ
الْخَاطِئِينَ ﴾ (٣) والتقدير : « يا يوسف » .

وأدوات النداء هي : الهمزة ، أي ، يا ، آ ، آي ، أيا ، هيا ، وا .

والأصل في القريب أن ينادي « بالهمزة » ، أو « أي » . وفي نداء البعيد
أن ينادي بغيرهما من بقية الأدوات . غير أن هناك أسباباً بلاغية تدعو إلى
مخالفة هذه الأصل ، هي :

١ - « أيا » و « هيا » موضوعان لنداء البعيد - وقد ينزل غير البعيد وهو
الحاضر - منزلة البعيد لأسباب منها :

(١) سورة غافر ، الآية ٣٦ - ٣٧ .

(٢) سورة مريم ، الآية ٧ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٢٩ .

(أ) أن يكون الشخص نائماً أو ساهياً ، فيكون كل من النوم والسهر بمنزلة البعد في إعلاء الصوت ، فنقول : « هيا فلان استيقظ » .

(ب) أو لتنزيل المنادي منزلة الغافل لعظم الأمر المدعو حتى كان المنادي غافل عنه مقصر ، لم يف بالواجب عليه ، فتقول له : « هيا فلان تهيأ للحرب » ، أو « أيا فلان تهيأ للحرب » . فتحسن بأن هذا الاستعمال قد كشف عن حال المنادي دون التصريح بها ، فهي دعوى بدليلها فهذا الرجل لم يف بالواجب والدليل أننا نناديه بأداة النداء الموضوعة لنداء البعيد ، وهذا من إحياءات اللغة ، وما لها من ظلال :

٢ - « الهمزة » و « أي » موضوعان لنداء القريب ، وأحياناً ينزل البعيد منزلة القريب ، فيستعملان فيه ، وذلك للدلالة على أنه حاضر في القلب لا يغيب عنه أصلاً حتى صار كالمشهد الحاضر كقوله :

أجيب القلب عني لا تزول

فهو ينادي شخصاً بعيداً عنه ، ولكنه استعمل « أداة » النداء « الهمزة » الموضوعة لنداء القريب ، ليقول لنا من خلال دلالة اللغة وعظمتها ، إنه قريب منه وصورته لا تزول عن خاطره .

ومن المشهور في ذلك قول الشاعر :

أسكان نعمان الأراك تيقنوا : بأنكمو في ربيع قلبي سكان

نعمان الأراك : اسم مكان ، والربيع : المنزل .

يخاطب الشاعر سكان هذا المكان بأنه مشغوف بهم ، وأنهم في خبايا قلبه وبين جوانحه .

وترى الشاعر قد استعمل « الهمزة » التي لنداء القريب ، ليوحى إلى القارئ أو المستمع : أن هؤلاء السكان قرييون منه ، لأنهم لا يتركون فكره ولا قلبه .

ونقرأ رسالة وردت من والد بعيد عن فلذة كبده ، فتراه يقول : أي فلذة كبدي عليك بالعلم فإنه سبيل النجاح في الدنيا والسعادة في الآخرة ، فتراه من خلال هذه السطور وكأنه يقول لولده : أنت قريب مني دائماً ، وصورتك لا تبرح خيالي ، فإني أراك في نومي ، وأتصورك بشخصك في يقظتي ، والدليل على هذا أنني أناديك بأداة « النداء » أي ، الموضوعة لنداء القريب .

٣- « يا » موضوعة لنداء البعيد ، ولا تستعمل في « القريب » إلا مجازاً ، وذلك عند تنزيل القريب منزلة البعيد ، وذلك يكون في الأحوال الآتية :

(أ) إذا كان الداعي يتصور نفسه في مكان بعيد عن حضرة المنادي ، كقولنا : « يا الله » مع أنه أقرب إلينا من جبل الوريد .

(ب) أو للتنبيه على عظم الأمر المدعو إليه ، وعلو شأنه ، حتى كأن المنادي مقصر في أمره غافل عنه مع شدة حرصه على الامتثال ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ^(١) .

(ج) أو للحرص على إقبال المنادي والرغبة والرضا بذلك ، فصار إقباله كالبعيد ، لأن النفس إذا اشتد حرصها على الشيء صارت كل ساعة قبل وقوعه في غاية البعد ، فنقول : « يا غلام بادر بالماء فأنا عطشان » ، ونحو قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ ^(٢) .
وعليه قول مرة بن محكان السعدي :

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رحال القوم والقربا

(د) أو للتنبيه على بلادة المنادي ، فكأنه بعيد من التنبيه لا يسمع نحو قولنا : « تنبه يا أيها الغافل » .

(١) سورة المائدة ، الآية ٦٧ .

(٢) سورة القصص الآية ٣١ .

(هـ) أو لانهطاط شأنه فكانه بعيد عن مجلس الحضور نحو : « مَنْ أنت يا هذا ؟ » .

الأغراض البلاغية التي تخرج إليها صيغة النداء

وقد تخرج صيغة النداء عن معناها الأصلي - وهو طلب الإقبال - إلى معان أخرى تفاد من سياق الحديث وقرائن الأحوال منها :

١ - الإغراء : وهو الحث على لزوم الشيء . كقولك لمن أقبل يتظلم : « يا مظلوم تكلم » .

فأنت لا تريد بقولك . « يا مظلوم » طلب إقباله لوجوده معك . وإنما أردت إغراءه وحثه على زيادة التظلم الذي هو بث الشكوى ، وكثيراً ما يؤكد المراد بالتكرار ، فيقال : يا مظلوم يا مظلوم في حال تظلمه إظهاراً لرحمته وتحريكاً لدعايته على الشكوى بذكر ظلمه على وجه النداء ، أو بجملة تتضمن معناه كأن يقال : يا مظلوم اشتك فهذا موضع الشكوى .

٢ - الاختصاص : وهو تخصيص حكم علق بضمير باسم ظاهر ، صورته صورة المنادي أو المعرف بآل أو بالإضافة ، أو بالعلمية .

فمثال كون الدال على التحضيض المذكور صورته صورة المنادي قولك : « أنا أفعل كذا أيها الرجل » ، ومثال المعرف « بآل » قولك : « نحن العرب أسخى من بذل » ومثال المعرف بالإضافة ، قول النبي ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » ومثال المعرف بالعلمية : « بنا تيمماً يكشف الضباب » .

فليس الغرض من النداء في هذا المثل - طلب حقيقة الإقبال - إذ ليس المراد بالاسم الظاهر فيها المخاطب ، وإنما المراد : المتكلم نفسه ،

والمتكلم لا يطلب إقبال نفسه ومن أجل هذا حمل على معنى الاختصاص بمعونة القرائن .

ويكون الاختصاص إما للافتخار كما في قولك : « نحن العرب أقرى الناس للضيف » ومثل قولك : « عليّ أيها الجواد يعتمد الفقير » .

وإما لإظهار المسكنة والتواضع كما في قولك « أنا أيها المسكين أطلب المعروف ونحو : « إني أيها العبد الفقير إلى الله » .

وإما لمجرد تأكيد مدلول الضمير بقولك . « أنا أيها الرجل أتكلم فيما يتعلق بمصالحني » .

٣ - الاستغاثة : وقد تخرج صيغة النداء عن معناها الأصلي ، ويراد بها الدلالة على الاستغاثة ، وذلك نحو قولنا : « يا الله » أي : الله اغثنا .

٤ - التحسر والتحزن : وقد يراد من صيغة النداء « التحسر والتحزن وذلك عند نداء الأطلال والمنازل والمطايا : نحو قول الشاعر :

يا دار مية بالعليا فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

فهو لا يطلب من الدار الإقبال . ولكنه يريد أن يظهر توجعه وتحسره على تلك الأيام الخوالي التي قضاها في حماها عزيزاً مكرماً .

ومثل قوله : « يا منزلي ويا منزل فلان » متحسراً أو متحزناً عليه .

ويقول الشاعر :

أيا منازل سلمى أين سلماك من أجل هذا بكيناها بكيناك

يقول : من أجل عدم وجدان سلمى بكينا على سلمى ، وبكينا على المنازل ، فهو لا يطلب من المنازل الإقبال ، ولكنه يقصد التحسر والتحزن عليها .

٥ - التعجب : وقد يراد من صيغة النداء « التعجب » كقولك : عند شهود كثرة الماء : « يا للماء » يقال ذلك عند مشاهدة كثرة حلاوته ، أو برودته ، أو وفائه تعجباً منها ، فكأنه لغرابة كثرته المذكورة يدعوه ويستحضره ليتعجب منه .

٦ - الندبة : وقد يراد من صيغة النداء « الندبة » وهي نداء المتوجع منه أو المتفجع عليه كقولك : يا رأساه ، يا عيناه ، يا مرضي ، يا سقمي وامحمداه واعمراه .

٧ - الزجر : وقد يراد من صيغة النداء « الزجر » كما في قول الشاعر :
يا قلب ويحك ما سمعت لناصح
أما ارعويت ولا اتقيت كلاماً
فهو لا يريد أن ينادي قلبه لأنه معه ، وإنما الغرض من النداء الزجر بدليل ويحك ما سمعت لناصح .

إلى غير ذلك من الأغراض التي تظهر لك إذا قرأت الشعر العربي قراءة مستأنية ، فسوف ترى فيه أساليب متنوعة وفنوناً مختلفة تعرفها من السياق وقرائن الأحوال .

وقوع الخبر موقع الإنشاء

وقد تقع صيغة الخبر موقع صيغة الإنشاء ، وذلك للأغراض الآتية :

١ - التفاضل : وذلك يكون في « الدعاء » بأن يقصد المتكلم طلب الشيء ، وتكون صيغة الأمر هي الدالة عليه ، فيعدل عنها إلى صيغة الماضي الدالة على تحقق الوقوع ، وفيه إشعار للمخاطب بأن دعاءه قد حصل ، تقول لصاحبك : « وفقك الله للثقوى » مكان « اللهم وفقه » ، فقد عبرت بالفعل الماضي « وفقك الله للثقوى » الدال على تحقق الحصول لإدخال السرور على قلب المخاطب ، وتقول : « غفر الله لك » فإنه أبلغ من قولك : « رب اغفر »

له ، فإن صيغة « غفر » أصلها الماضي ، والماضي لا يتعلق به طلب ، فالتعبير عن الطلب بالماضي يحصل به تفاؤل .

٢ - إظهار الحرص على وقوع المطلوب : وقد يؤتى بصيغة الخبر مكان صيغة الإنشاء ، لإظهار الحرص على وقوع المطلوب .

وأظهار الحرص مما يستدعي الإمثال لما تضمنه من الحث على الوقوع ، وذلك أن الإنسان إذا عظمت رغبته في شيء يكثر تصويره إياه ، لأن محبوب الوقوع لا يزول عن خاطر غالباً فربما يخيل إليه حاصلاً وواقعاً ، فيعبر عنه بصيغة الحصول ، أي : صيغة الخبر المدلول عليها بالفعل الماضي - بناء على ذلك التخيل .

فالتعبير بصيغة الجملة الخبرية الماضية يفهم منها تخيل الحصول بناء على كثرة التصوير .

٣ - والدعاء من البليغ بصيغة الماضي . كأن يقال : « رحمك الله » يحتمل التفاؤل وإظهار الحرص ، بمعنى أنه يحتمل أن يريد المتكلم التفاؤل بوقوع الرحمة للمخاطب قصداً لإدخال السرور عليه ، أو يريد إظهار الحرص في الوقوع حيث عبر بالماضي لكثرة التصور الناشيء عن كثرة الرغبة قضاء لحق المخاطب .

وإنما قال من البليغ ، لأن البليغ إنما يقول ما يسمع من غير أن يراعي هذه الاعتبارات في موارد المقامات ، والمراد من البليغ من يراعي ما ذكر ، لأنه يعرف مقتضيات الأحوال ومقام كل صيغة .

٤ - وقد يأتي الإنشاء بصيغة الخبر ، كقول المرءوس للرئيس : « ينظر إليّ الرئيس ساعة » فإنه أكثر تأدباً من قوله : « انظر إليّ » بصيغة الأمر .

٥ - وقد يأتي الإنشاء بصيغة الخبر لحمل المخاطب على تحقيق

المطلوب بسبب كون المخاطب لا يحب تكذيب المتكلم ، فإذا أبقي المتكلم الكلام الخبري المقصود منه الإنشاء ، ترى المخاطب أي : السامع قد سعى ويادر في تحصيل المطلوب خوفاً من نسبة المتكلم للكذب ، وهو لا يحب هذا .

تأمل قولك لصاحب : « يا فلان أنت تأتينا غداً » مكان « ائني غداً » والفرق بين الجملتين : أن الجملة الأولى : « أنت تأتينا غداً » خبرية لفظاً إنشائية معنى لأنها بمعنى « ائني غداً » الانشائية لفظاً ومعنى .

فحينما يقول المتكلم لصاحبه : « أنت تأتينا غداً » يكون كلامه بحسب الظاهر محتملاً للصدق والكذب ، فهنا السامع الحريص على أن يكون المتكلم صادقاً ولا يريد أبداً أن ينسبه إلى الكذب ، يلبي الإتيان وعلى ذلك تكون الجملة « أنت تأتينا غداً » صادقة ، وبالتالي يكون المتكلم صادقاً .

أما إذا لم يأت السامع كانت الجملة كاذبة ، وكان المتكلم بالتالي كاذباً والفرص أن المخاطب يحرص على صدق المتكلم في كلامه ، ولا يريد أن ينسبه إلى الكذب ، فحرص المخاطب على الإتيان تصوير لنفسيته تجاه المتكلم بأنه لا يتكلم إلا الصدق .

وبذلك يكون المتكلم بماله من منزلة عند السامع حمله على الإتيان بالطف وجه وفاء لتلك المنزلة . وكثيراً ما يؤكد هذا القصد بعد قوله : أنت تأتينا ، بقوله : « إياك أن تكذبني في هذا المقام يا فلان » .

أما الجملة الثانية : « ائني غداً » جملة إنشائية لفظاً ومعنى : لا تحتمل صدقاً ولا كذباً وقائلها لا يوصف بأنه صادق أو كاذب ، فالإتيان أو عدمه سواء . لأنه لا يمس المتكلم بشيء بل يرجع إلى المخاطب من جهة امتثاله للأمر أو عدم امتثاله .

ولذلك كانت الجملة الأولى : « أنت تأتينا غداً » أبلغ من الجملة الثانية

« اثني غداً » لأن الأولى فيها تصوير للصلة القوية بين القائل والمتلقي .

فالمجيء فيها يحمل معنى بلاغياً لطيفاً .

هذا . . . واستعمال الخبر في هذه الصور مجاز ، لاستعماله في غير ما وضع له ، ويحتمل أن يكون كناية في بعضها .

وهذا الذي عرضناه عليك من أساليب الإنشاء الطلبي ، لم تذكر فيه بيان أحوال أجزاء الجملة الإنشائية ، كالإسناد ، والمسند إليه ، والمسند ، ومتعلقات الفعل ، والقصر ، اكتفاء بما ذكر في الأسلوب الخبري لأن الأسلوب الإنشائي كالأسلوب الخبري في كثير مما ذكر منها .

المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية
بجامعة القاهرة
البحر المصري
القاهرة

إلى
المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية
بجامعة القاهرة

أشرف على
إعداد
المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية
بجامعة القاهرة

أشرف على
إعداد
المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية
بجامعة القاهرة

أشرف على
إعداد
المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية
بجامعة القاهرة

أشرف على
إعداد
المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية
بجامعة القاهرة

أشرف على
إعداد
المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية
بجامعة القاهرة

أشرف على
إعداد
المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية
بجامعة القاهرة

أشرف على
إعداد
المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية
بجامعة القاهرة

أشرف على
إعداد
المجلس الأعلى للدراسات الإسلامية
بجامعة القاهرة

الفصل السابع

أسلوب الفصل والوصل

قال ابن جني - رحمه الله - : « إنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة ، والدقة ، والإرهاف ، ما يملك عليّ جانب الفكر »^(١) ، ويقصد ابن جني « اللغة العربية » ، ولا ريب أنه محق فيما يقول إلى أبعد غاية .

فهذه اللغة المبنية على نظام دقيق ، إذا نظرنا إلى جانب من جوانبها المتعددة وجدنا كل جانب ، قد أخذ من الحسن غايته ، ومن النظام والدقة والتنسيق ما يثير في أنفسنا لواعج الشوق لدراستها ، وكوامن الدقة للحفاظ عليها .

فإذا أخذنا لذلك مثلاً : فنظرنا في أساليبها من ناحية فصلها ووصلها ، وجدنا نظاماً بديعاً لصورها وتراكيبها وصيغها .

فتارة نرى جملاً مثورة ترك العطف بينها ، وجاءت واحدة بعد أخرى ، كقوله جل وعلا : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ

(١) الخصائص لابن جني ص ٤٧ ح ١ تحقيق النجار الطبعة الثانية ، نشر دار الهدى - بيروت .

الْمُنْشُوتُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴿١﴾ ..

وقول الشاعر :

أصون عرضي بمالي لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض في المال

وهي تارة أخرى تأتي فيها مفردات متتابعة لا عطف بينها كما في قوله :

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ * الْقُدُّوسُ * السَّلَامُ * الْمُؤْمِنُ *
الْمُهَيْمِنُ * الْعَزِيزُ * الْجَبَّارُ * الْمُتَكَبِّرُ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢) .

وهي ثالثة ترد فيها جمل متعاطفة كقوله سبحانه على لسان فرعون

موسى : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ
الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

ويقول الكميت :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً مني وذو الشوق يلعب

وكما ترد فيها جمل متعاطفة تجيء فيها مفردات عطف بعضها على

بعض ، كقوله جل وعلا : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

واللغة المشهورة بالدقة والنظام ، لا بد أن يكون الفصل فيها بين

الجمل ، أو المفردات يقوم على أسرار بلاغية ، ويكون الوصل بين جملها أو

مفرداتها قائماً على أسس فنية ، ونكت بيانية ، بحيث لا يصلح الفصل في

مكان الوصل ولا الوصل في مكان الفصل .

(١) سورة الواقعة الآية ٦٨ - ٧٣ .

(٢) سورة الحشر الآية ٢٣ .

(٣) سورة الشعراء الآية ١٨ ، ١٩ .

(٤) سورة الحديد ، الآية ٣ .

ولقد شددت هذه الظاهرة انتباه البلاغيين ، ففردوها دراسة واعية وحاولوا أن يضعوا المقاييس التي تثير الطريق أمام الناقد والأديب .

ولعل أبا عثمان بن بحر بن محبوب ، المعروف بالجاحظ ، والمتوفى سنة ٢٥٥هـ هو أول من نبه على ضرورة مراعاة الوصل والفصل بين الجمل حينما جعله البلاغة كلها . فقد قال في كتابه « البيان والتبيين » ما نصه : « قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ » قال : « معرفة الفصل من الوصل »^(١) ، وذكر في كتابه السالف قول الخليفة الأول أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وقد مر برجل في السوق يبيع الثياب ، فقال الخليفة للرجل : أتبيع هذا الثوب ؟ فقال الرجل : لا عفاك الله ، فقال أبو بكر : « قد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعفاك الله »^(٢) .

يشير الخليفة بذلك إلى موطن من مواطن الوصل بين الجملتين ، وهو : كمال الانقطاع مع الإبهام ، لاختلافهما خبراً وإنشاء ، الأمر الذي يقتضي الفصل بينهما ، ولكن الفصل بينهما يوهم خلاف المقصود ، وحينئذ توصل الثانية بالأولى ، فتجيء واو العطف ، دفعاً لهذا الإبهام . وإقامة لقصد المتكلم .

ثم جاء أبو هلال العسكري صاحب « كتاب الصناعتين » والمتوفى سنة ٣٩٥هـ ، وتحدث عن الفصل والوصل ، ووضح دوره في الكلام الفني الجميل ، ونبه على ضرورة مراعاتهما ، ولكنه لم يفصل القول فيهما ، بل اكتفى بما نقله من أقوال البلغاء : منها قول أبي العباس السفاح لكاتبه : « قف عند مقاطع الكلام وحدوده ، وإياك أن تخلط المرعى بالهمل ، ومن حلية البلاغة : المعرفة بمواضع الفصل والوصل » ، وقول يزيد بن معاوية : « إياكم

(١) البيان والتبيين للجاحظ ص ٨٨ ح ١ بتحقيق هارون الطبعة الثانية نشر الحانجي .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦١ ج ١ .

أن تجعلوا الفصل وصلًا ، فإنه أشد وأعيب من اللحن»^(١) ، وكلها إرشادات
بوجوب مراعاة مواطن الفصل والوصل .

وعلى الرغم من إشارتي الجاحظ وأبي هلال العسكري إلى الفصل
والوصل وخطورة الباب ، لم يلق العناية الجديرة به من النقاد والبلاغيين ،
حتى جاء الشيخ عبد القاهر الجرجاني المتوفي سنة ٤٧١هـ أو سنة ٤٧٤هـ
الذي اشتكى مر الشكوى من هذا الإهمال الصارخ لباب خطير من أبواب
البلاغة العربية ، وقال في كتابه : « دلائل الإعجاز » بعد أن نوه بدور الفصل
والوصل في التعبير الفني الجميل : « إنه ما من علم من علوم البلاغة أنت
تقول فيه إنه خفي غامض ، ودقيق صعب ، إلا وعلم هذا الباب أغمض
وأخفى وأدق وأصعب »^(٢) .

ويصف عمل السابقين فيه فيقول : « وقد قنع الناس فيه بأن يقولوا إذا رأوا
جملة قد ترك فيها العطف أن الكلام قد استؤنف ، وقطع عما قبله ، لا تطلب
أنفسهم منه زيادة على ذلك ، ولقد غفلوا غفلة شديدة »^(٣) .

وانبرى يفصل القول في هذا الباب ، وذلك بعرض الأمثلة ومناقشتها ،
وتحليلها واستنباط المقاييس البلاغية منها ، ثم أجمل مواضع الفصل والوصل
بقوله : « إن الجمل على ثلاثة أضرب :

١ - جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف ، والتأكيد مع
المؤكد ، فلا يكون فيها العطف البتة ، لشبه العطف فيها - لو عطف - بعطف
الشيء على نفسه .

٢ - جملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله إلا أنه

(١) الصناعتين ص ٤٨ تحقيق الجبائي وإبراهيم الطبعة الأولى .

(٢ ، ٣) دلائل الإعجاز ص ٢٥١ بتحقيق المراغي .

يشاركه في حكم ، ويدخل معه في معنى ، مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلاً أو مفعولاً ، أو مضافاً إليه ، فيكون حقها العطف .

٣ - وجملة ليست في شيء من الحالين ، بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه شيء ، فلا يكون إياه ولا مشاركاً له في معنى ، بل هو شيء إن ذكر لم يذكر إلا بأمر ينفرد به ، ويكون ذكر الذي قبله ، وترك الذكر سواء في حاله ، لعدم التعلق بينه وبينه رأساً ، وحق هذا ترك العطف ، البتة .

فترك العطف يكون :

١ - إما للاتصال إلى الغاية .

٢ - أو الانفصال إلى الغاية .

٣ - والعطف لما هو واسطة بين الأمرين ، وكان له حال بين حالين^(١) .

ثم جاء البلاغيون بعده فاعتمدوا على ما قاله في هذا الباب غير أنهم كانوا أكثر ضبطاً للقواعد والحدود ، وقد قصرُوا بحثهم على العطف بالواو - خاصة دون بقية حروف العطف ، وقالوا : إن الواو وهي الأداة التي يحتاج العطف بها إلى لطف في الفهم ، ودقة في الإدراك ، حيث هي لا تفيد سوى مجرد الربط بين المتعاطفين ، وتشريك ما بعدها في الحكم لما قبلها ، فهي لمطلق الجمع ، ويشترط في العطف بها وجود الجامع .

أما غير الواو من حروف العطف ، فإنها تفيد إلى جانب التشريك في الحكم معاني أخرى ، يقتضيها المقام ، كالترتيب مع التعقيب في « الفاء » ، والترتيب مع التراخي في « ثم » . . . وهكذا .

ومن أجل ذلك لم يتعرض البلاغيون لغير - الواو - من حروف العطف .

(١) دلائل الإعجاز ص ١٥٨ .

ومن هنا عرفوا كلا من الوصل والفصل بقولهم :
 الوصل : هو عطف بعض الكلام على بعضه - بالواو - خاصة .
 والفصل : هو ترك ذلك العطف .
 ولكل منهما مواضع خاصة به سنتناولها - بمشيئة الله - بالتفصيل .

فصل ووصل المفردات أو عطف المفردات أو تركه

تعطف المفردات على بعضها بالواو - إذا كانت متناسبة ، كما ترى ذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) فالصلاة والنسك ، والمحيا ، والممات كلها أسماء متناسبة .
 وكقوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (٢) فالله ، والملائكة ، والكتب ، والرسل أسماء بينها تناسب .

أما في الصفات فإنه لا يعطف بينها إلا إذا كان بينها تضاد ، أما إذا لم يكن هناك تضاد ترك العطف نجد ذلك في قوله تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَاتِنَاتٍ تَأْتِيَنَّاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيَّابٍ وَأَبْكَارًا ﴾ (٣) ، فقد ترى أن الصفات قد مضت بجوار بعضها من غير عطف ، إلا بين ثياب وأبكاراً ، فعطفنا للتنويع ورفع التناقض ، لأنه لو قيل : « ثياب أبكاراً » لكانت كلمة « أبكاراً » إضراباً عن « ثياب » ، ولكن غرض الآية الكريمة أن تجمع بين « ثياب وأبكاراً » .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٦٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨٥ .

(٣) سورة التحريم ، الآية ٥ .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ
الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ * هُوَ اللَّهُ
الْخَالِقُ الْبَارِيءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿١﴾ ، تجد أن النظم القرآني ترك
فيه العاطف بين الصفات ، لأنها ليست متضادة .

أما إذا تضادت الصفات عطفت ، أنظر في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ
وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٢﴾ تجد أن الصفات عطفت
على بعضها ، لأنها صفات متضادة .

وأحياناً تكون الصفات غير متضادة ، ويأتي العطف ، وذلك إذا كان
العطف يشير إلى معنى كما في قوله تعالى : ﴿ حَمَّ ﴾ * تنزيل الكتاب من الله
العزیز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا
هو إليه المصير ﴿٣﴾ ، لأن الصفتين وهما : « غفران الذنوب ، وقبول التوبة »
تواردا على معنى واحد هو : التجاوز عن الذنب ، فجاءت الواو بينهما مؤذنة
بالتغاير ومشيئة إليه ، فالله يغفر الذنب حيناً من تلقاء نفسه بفضله ، وحيناً يعفو
عنه بسبب ندم التائب واعتذاره ، فدللت الواو على هذا المعنى وأشارت إليه .

وقوله تعالى : التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ
السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ تجد أن الصفات الأولى جاءت بغير - واو - وفي الصفتين
(الآمرين بالمعروف والناهون عن المنكر) جاءتا بالواو . لأنهما متضادان .

هذا . . . والذي يجب أن نضعه أمام أعيننا أن اللغة العربية تمتاز بأنها

(١) سورة الحشر الآية ٢٣ و ٢٤ .

(٢) سورة الحديد ، الآية ٣ .

(٣) سورة غافر ، الآية ١ ، ٢ ، ٣ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ١١٢ .

تجمع بين الأسماء أو الصفات ، وترتب بينهما ، وتقدم بعضها على بعض وفق منهج فني ودقيق ، وسنذكر لك بعض الأمثلة على ذلك .

تأمل قوله تعالى : ﴿ وَنُسِقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْسَاسِي كَثِيرًا ﴾^(١) تقدمت الأنعام على الأناسي ، لأن في حياة الأنعام حياة للأناسي .

وقد تتقدم الكلمة لشرفها وعلو مرتبتها ، ولهذا قدم اسمه تعالى في قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾^(٣) نجد أن « النبيين » تقدموا على « الصديقين » لأن « النبي » أشرف من الصديق ، وقوله : « والشهداء والصالحين » فإن الشهداء أعلى درجة من أهل الصلاح .

وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾^(٤) ففي الآية تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على الذين اتبعوهم بإحسان في الأفعال والأقوال - من الأمة إلى يوم القيامة .

وتتقدم الكلمة لتقدمها في الزمن أو العمل كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾^(٥) فالتوراة قبل الإنجيل والإنجيل قبل الفرقان في الترتيب الزمني .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٩ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٥٩ .

(٣) سورة النساء ، الآية ٦٩ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ١٠٠ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية ٣ - ٤ .

وللترقي من العدد القليل إلى الكثير كما في قوله سبحانه : « فَانكِحُوا مَا
ابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتًى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ » (١) .

إلى غير ذلك من الاعتبارات المناسبة والإشارات المقصودة ، ولا يخفى
يك ما بين المعطوف والمعطوف عليه من المناسبة .

مواضع وصل الجمل أو عطف الجمل

تعطف الجملة على الجملة التي قبلها في ثلاث حالات :

١ - إذا كانت الجملة الأولى لها محل من الإعراب ، وأريد إعطاء هذا
حكم الإعرابي للجملة التالية ، وكان بينهما مناسبة ، وليس هناك ما يمنع من
مطف ، بيان ذلك :

تقول الآية الكريمة : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعفه له
ضعافاً كثيرةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرجعون ﴾ (٢) والمعنى : إقراض الله :
ل لتقديم العمل الذي يطلب به ثوابه - والقرض الحسن : إما المجاهدة
سها ، وإما النفقة في سبيل الله « أضعافاً كثيرة » كثيرة لا يعلم كنهها إلا
ه ، « والله يقبض ويبسط » يوسع على عباده ، ويقتُر ، فلا تبخلوا عليه بما
مع عليكم ، فالله جل وعلا يضيق الرزق على من يشاء امتحاناً ليصبر ،
وسعه على من يشاء امتحاناً ، هل يشكر ؟ وإلى الله المرجع فيجازيكم على
ما قدمتم ، ففي الآية الكريمة جملتان هما : « يقبض » و « يبسط » الأولى
هما لها موضع من الإعراب ، لأنها خبر للمبتدأ قبلها ، والآية تريد إشراك
جملة الثانية لها في هذا الحكم الإعرابي ، وبين الجملتين تناسب ، إذ

(سورة النساء ، الآية ٣ .

(سورة البقرة ، الآية ص ٢٤٥ .

المسند إليه في كل منهما واحد ، وهو الله عز وجل ، والمسند فيهما « يقبض ، ويسط » متناسبان ، لأنهما ضدان ، فبين الجملتين جهة جامعة ، وليس فيهما - كما نرى - ما يمنع من العطف ومن ثمَّ وجب عطف الثانية على الأولى - بالواو .

وسر بلاغة الوصل في هذا الموطن أن الآية الكريمة تصور عظمة القادر ، وأنه بيده الأمر ، ولا يتحقق ذلك إلا إذا جمعت له الآية الكريمة بين القبض والبسط ، ولو ترك العاطف ، فقليل في غير القرآن الكريم مثلاً : « الله يقبض يسط » من غير - واو عطف - كان قولك : « يسط » رجوعاً عن قولك : « يقبض » وأبطلاً له .

فواضح أنه إذا كان المبتدأ أو المخبر عنه في الجملتين واحداً كقولنا : « هو يقول ويفعل ، ويضر وينفع ، وسيء ويحسن ، ويأمر وينهي ، ويحل ويعقد ، ويأخذ ويعطي ، ويبيع ويشترى ، ويأكل ويشرب ، وأشياء ذلك ، ازداد معنى الجمع في - الواو - قوة وظهوراً ، لأن هذه الأساليب غالباً تستعمل على هذا الوجه وبخاصة في مقام المدح . وعلى ذلك إذا قلت : « هو يضر وينفع » كنت قد أفدت - بالواو - أنك أوجبت له الفعلين جميعاً وجعلته يفعلهما معاً ، وإذا قلت : « يضر ينفع » من غير - واو - لم يجب ذلك ، بل قد يجوز أن يكون قولك : « ينفع » رجوعاً عن قولك : « يضر » وأبطلاً له ^(١) ، ويزداد الجمع بلاغة وقوة إذا كان المتكلم يريد بهذا الأسلوب المدح ، لأنه لو قال : « هو يضر » فقط لم يكن مدحاً بل ذماً ، وكذلك لو قال : « هو ينفع » يشوب هذا المدح شائبة عدم التمييز بين من يستحق النفع ، ومن لا يستحق لكن الجمع بين الفعلين يفيد أن هذا الرجل حكيم : ينفع من يستحق النفع ، ويضر من يستحق الضرر فغرض المدح يؤكد الجمع بين الفعلين ويقويه .

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٤٨ .

وهكذا في جميع الأمثلة التي مرت بك .

وقال المعري :

وحب العيش أعبد كل حر وعلم ساغباً أكل المرار
الساغب : الجائع . والمرار : شجر مر .

يقول أبو العلاء : إن حب الحياة حباً شديداً ، والجري وراء متاع الدنيا ، يجعل الحر عبداً ، ويضطر الإنسان إلى احتمال الأذى ، ففي البيت جملتان هما : « أعبد كل حر » و « علم ساغباً أكل المرار » ، نجد للأولى : « أعبد كل حر » موضعاً من الإعراب ، لأنها خبر للمبتدأ قبلها « حب العيش » وأن المعري أراد أن يجمع للمسند إليه الصفتين : « جعل الحر عبداً ، واضطرار الإنسان إلى احتمال الأذى » فأشرك الجملة الثانية للأولى في الإعراب ، وبين الجملتين جهة جامعة ، إذ أن المسند إليه في كل منهما واحد ، وغرض الشاعر لا يتحقق إلا بالجمع بينهما . ومن ثم وجب العطف .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾^(١) . ففي الآية الكريمة : جملتان هما « لا يستطيعون نصركم » و « ولا أنفسهم ينصرون » نجد للأولى منها موضعاً من الإعراب . لأنها وقعت خبراً عن الاسم الموصول ، ونجد أن جملة « ولا أنفسهم ينصرون » تشارك الجملة الأولى في حكمها الإعرابي ، إذ المقصود من القول الكريم : الإخبار عن المبتدأ فيه « والذين تدعون من دونه » بأمرين : أولهما : أنهم لا يستطيعون نصر من يعبدونهم ، والثاني : أنهم لا يملكون نصر أنفسهم أيضاً ، فوصل بين الجملتين .

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٩٧ .

ويقول أبو الطيب :

وللسر مني موضع لا يناله نديم ولا يفضي إليه شراب

النديم : المجلس على الشراب ، ويفضي : ينتهي .

والمعنى : أنه كتوم للسر يضعه في مكان أمين ، حيث لا يمكن لأحد أن يطلع عليه ، حتى ولو كان نديماً ، ولا يستطيع أيضاً أن يكشف عنه الشراب ولو كان كثيراً .

ففي البيت جملتان : « لا يناله نديم » « ولا يفضي إليه شراب » ، للأولى منهما موضع من الأعراب ، لأنها صفة للنكرة قبلها ، وأنه أريد إشراك الثانية لها في هذا الحكم ، وأيضاً نجد أن غرض الشاعر لا يتحقق إلا بعطف الجملة الثانية على الأولى قضاء لحق المبالغة في حفظ السر ، ولذلك عطف الجملة الثانية على الأولى - كما ترى .

وتقول : عهدي بعلي يكتب ويشعر « فجملة « يكتب » لها محل من الأعراب ، لأنها وقعت حالاً ، وأريد من الثانية « ويشعر » أن تشاركها في هذا الحكم الإعرابي وبينهما جهة جامعة ، وهي إتحداهما في المسند إليه ، وتحقيق غرض القائل الذي يريد أن يجمع « لعلي » الكتابة والشعر ، وأنه يفعلهما جميعاً .

وتقول : « ألم تعلم أنني أحترمك وأكرمك » ، فجملة « أنني أحترمك » لها محل من الإعراب ، لأنها وقعت مفعولاً ، وعطف الجملة الثانية « وأكرمك » عليها ، لأنها شاركتها في هذا الحكم الإعرابي ، وبينهما جهة جامعة ، لأن المتكلم يريد أن يخبره بالجمع بين الصفتين .

ومثل ذلك قولك : « العجب من أنني أحسنت وأسأت » و« يكفيك ما قلت وسمعت » ، و« أحسن أن تنهى عن شيء وتأتي مثله » ، وذلك أنه لا يشتبه على عاقل أن المعنى : على جعل الفعلين في حكم فعل واحد .

ومن البين في ذلك قول الشاعر :

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

والمعنى : لا تطمعوا أن تروا إكرامنا قد وجد مع إهانتكم ، وكفنا الأذى عنكم قد تحقق مع أذيتكم لنا . ولعلك تحس ترابط هذه الجمل ترابطاً قوياً بحيث لو نزعنا جملة لاختل المعنى وضاع غرض الشاعر :

وماله مأخذ لطيف في هذا الباب قول أبي تمام :

لهان علينا أن نقول وتفعلنا ونذكر بعض الفضل منك وتفضلا^(١)

فلبو تمام يمدح محمد بن عبد الملك الزيات بالكرم . والمعنى : مدح من أبي تمام ، كرم من الممدوح ، ذكر لبعض الفضل من أبي تمام ، زيادة في الفضل للمدوح ، فأى جملة تستطيع أن تنزعها أو تقطعها من هذا البيت . إنك إن فعلت نقص المعنى وضاع غرض الشاعر .

فواضح مما سبق - أن الجملة الأولى إذا كان لها محل من الإعراب ، بأن كانت واقعة موقع المفرد من خبر أو حال أو وصف أو مفعول أو غيرها ، وقصد تشريك الثانية لها في هذا الحكم الإعرابي ، وكانت بينهما جهة جامعة وجب الوصل .

فإذا لم يكن بين الجملتين جهة جامعة وجب الفصل ، ولهذا عيب على أبي تمام قوله من قصيدة يمدح بها أبا الحسين محمد بن الهيثم :

زعمت هواك عفا الغداة كما عفا عنها طلال باللوى ورسوم
لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم
ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت نفسي على إلف سواك تحوم

والشاهد في البيت الثاني .

(١) راجع دلائل الإعجاز ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

النوى : الفراق . والصبر بكسر الباء هو الدواء المر وهو المراد هنا ،
وحينئذ فالكلام من باب التشبيه بحذف الكاف ، أي : أن فراق الأحبة كالصبر
في المرارة .

وإنما عيب عليه سواء كان العطف من قبيل عطف المفرد ، أي : عطف
أبي الحسين على الصبر ، أو الجملة ، أي : عطف جملة : « وأن أبا الحسين
كريم » على جملة : « وأن النوى صبر » ، لأن وجود الجامع شرط في قبول
العطف في الصورتين ، وهما : عطف المفرد أو عطف الجملة .

وقد انتصر بعض الناس لأبي تمام ، فقال الجامع خيالي ، لتفاوتهما في
خيال أبي تمام ، أو وهمي ، وهو ما بينهما من شبه التضاد ، لأن مرارة النوى
كالضد لحلاوة الكرم ، لأن كرم أبي الحسين حلو ، ويدفع بسببه ألم احتياج
السائل ، والصبر مر ، ويدفع به بعض الآلام ، أو التناسب ، لأن كلا دواء ،
فالصبر دواء العليل ، والكرم دواء الفقير ، وكل هذه تكلفات باردة ، إذ المعتبر
المناسبة الظاهرة القريبة .

والمعنى في الأبيات الثلاثة : زعمت الحبيبة أن هواك يا أبا تمام قد
اندرس كما اندرست آثار ديارها التي باللوى - فقلت لها ليس الأمر كذلك ،
وأقسم بالله الذي هو عالم بأن الفراق صعب ومر المذاق ، وأن أبا الحسين
الممدوح كريم ، ما بعدت عن طريق المحبة ، ولا صارت نفسي تلتفت إلى
غيرك^(١) .

٢ - التوسط بين الكمالين مع عدم المانع من العطف

وتعطف الجملة على الجملة ، إذا كانت الجملة الأولى ليس لها محل
من الإعراب ، واتفقت مع الثانية خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى ، أو اتفقتا في

(١) أنظر حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ص ١١ ، ح ٣ طبع الحلبي .

المعنى ، وإن اختلفا في اللفظ . وكانت بينهما مناسبة تامة ، ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينهما ، وهذا الموضع يسميه البلاغيون « التوسط بين الكمالين » بيان ذلك : تأمل قول الله عز وجل : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (١) .

فقد وصل بين جملتي : « يخرج الميت من الحي » و « يخرج الحي من الميت » ، والجملة الأولى ليس لها محل من الإعراب - فما السبب الذي من أجله وصل الجملة الثانية بالأولى ؟ لقد كنا في موضع الوصل الأول الذي عرضناه عليك ، نعتمد في الوصل بين الجملتين أو الجمل على الاشتراك في الحكم الإعرابي وإن كان بين الجملتين أكثر من سبب يصحح العطف بينهما ، ويظهر أن البلاغيين يعتمدون في تحرير القواعد على أسباب معلومة ، فمثلاً - في الموضع الأول للوصل اعتمدوا على الاشتراك في الحكم الإعرابي .

ولكن على أي سبب يعتمدون عليه في الموضع الثاني ، وهو المعروف عندهم « بالتوسط بين الكمالين » ؟ : إنهم يعتمدون على نوع الأسلوب ، أخبرني هو أم إنشائي ؟ ، أبين الجملتين اتفاق في اللفظ والمعنى أم اختلاف بينهما ؟ فيقولون في الآية التي معنا : إن الجملة الأولى وهي : (يخرج الميت من الحي) ليس لها محل من الإعراب لأنها ابتدائية وخبرية لفظاً ومعنى ، وكذلك الثانية . إذن بين الجملتين نوع صلة ، فلذلك وجب الوصل بينهما ، وفي الواقع أن غرض الآية الكريمة أن تجمع بين الجملتين ، لأنها بسبيل تصوير قدرة الله في أسمى معانيها ، ولا يتحقق ذلك إلا بالجمع ، فكما أن قدرة الله قادرة على إخراج الميت من الحي ، قادرة أيضاً على إخراج الحي من الميت ، وفيها أيضاً تناسب في المضارعة بين الجملتين ، وبينهما جهة جامعة .

(١) سورة الروم ، الآية ١٩ .

فالبلاغيون إذا كانوا يجعلون السبب الرئيسي للوصول في هذا الموطن هو : الاتفاق في الخبرية أو الإنشائية - فهناك مظاهر وصلات أخرى ، تظهر بالتأمل .

نتلو قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾^(١) فقد عطفت الجملة الثانية على الأولى التي ليس لها محل من الإعراب ، لأنها ابتدائية والجملتين قد اتفقتا في الخبرية لفظاً ومعنى ، وبينهما مناسبة بتقابل الأجزاء ، وهما اسميتان ، وليس بينهما ما يمنع من العطف ، لذا وجب العطف بينهما ، ولا يخفى عليك أن التقابل بين الجملتين يعطيك صورتين متضادين توضح كل منهما الأخرى وتؤكد معناها في النفس .

ويقول الشاعر :

يَشْمُرُ لَلجِ عَنْ سَاقِهِ وَيَغْمُرُهُ الْمَوْجُ فِي السَّاحِلِ

اللاج : معظم الماء ، والبيت يضرب لمن تحدثه أطماعه بإدراك المطالب العظيمة ، وهو يعجز عن المطالب اليسيرة .

فالجملتان : « يشمر للج عن ساقه » و « يغمره الموج في الساحل » متحدتان خبراً لفظاً ومعنى ، وبينهما مناسبة إذ أن الشاعر يريد أن يقارن بين حالين بطريق التصوير والتمثيل ، والحالين - كما علمت من البيت - هما صورة من يحاول ويستعد لإدراك المطالب العظيمة ، وصورته أيضاً وهو لا يستطيع أن يدرك المطالب اليسيرة ، فلولا العطف لم تتحقق هذه المقارنة ، ويتأكد المعنى في ذهن السامع .

ويقول الله جل وعلا : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾^(٢) ، ففي الآية

(١) سورة الانفطار ، الآية ١٣ ، ١٤ .

(٢) سورة الاعراف ، الآية ٣١ .

ثلاث جمل متفقة في الإنشائية لفظاً ومعنى ، وبينها تناسب لتقارنها في الخيال « الأكل والشرب وعدم الإسراف » والمسند إليه متحد وهم : « المخاطبون » وليس هناك ما يمنع من العطف .

ويقول سبحانه : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ۚ ﴾ ^(١) فقد عطفت الآية جملة « لا تشركوا » على جملة « اعبدوا » ، والجملة الأولى ليس لها محل من الإعراب وبينهما اتفاق في الإنشاء لفظاً ومعنى ، ومناسبة بين الطرفين ، فالمسند إليه متحد فيهما وهم : المخاطبون ، والمسند في كل منهما من الأمور الواجب على الإنسان أن يؤديها نحوريه ، وليس فيهما ما يمنع من العطف .
وتقول الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ۚ ﴾ ^(٢) عطفت جملة : « واخشوا » على جملة : « اتقوا » ، والجملة الأولى ليس لها محل من الإعراب ، وبين الجملتين اتفاق في الإنشائية لفظاً ومعنى ، ومناسبة بين الطرفين إذ المسند إليه في كل منهما متحد ، والمسند في كل من الجملتين من الأمور الواجب على الإنسان آداؤها ، وليس هناك ما يمنع من العطف .

ويقول سبحانه : ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۚ ﴾ ^(٣) في الآية الكريمة جملتان هما : (أشهد الله ، واشهدوا) الجملة الأولى منهما : « أشهد الله » خبرية لفظاً ومعنى ، والثانية : « واشهدوا » إنشائية لفظاً خبرية معنى ، إذا المراد : إني أشهد الله . وأشهدكم ، فتكون الثانية إنشائية لفظاً خبرية معنى ، وبذلك اتفقت الثانية مع الأولى في الخبرية معنى . ومن ثم وجب الوصل بينهما - كما ترى - لوجود الجامع ، وليس هناك ما يمنع من العطف .

(١) سورة النساء، الآية ٣٦ .

(٢) سورة لقمان ، الآية ٣٣ .

(٣) سورة هود ، الآية ٥٤ .

وقد تتفق الجملتان في الإنشائية معنى . وتختلفان في الخبرية لفظاً ، ونجد الثانية معطوفة على الأولى لوجود المناسبة بينهما ، وليس هناك ما يمنع من العطف ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ^(١) ففي الآية جملتان : « لا تعبدون ، وبالوالدين إحساناً التي هي في تقدير : وأحسنوا بالوالدين إحساناً » نلاحظ أن الجملة الأولى منهما خبرية لفظاً إنشائية معنى ، لأنها تعني « النهي » ، أي لا تعبدوا ، والجملة الثانية : « وأحسنوا » إنشائية لفظاً ومعنى ، بالتأمل نجد الجملتين قد اتفقتا في الإنشائية معنى ، وإن اختلفتا في اللفظ ، إذ كانت الأولى خبرية لفظاً والثانية إنشائية لفظاً .

وهذه الحالات التي عرضناها عليك يسميها البلاغيون : « التوسط بين الكمالين » مع عدم وجود المانع من العطف ، وهو أن تتفق الجملتان خبراً أو إنشاءً ، وتوجد بينهما مناسبة وارتباط ، وليس هناك من سبب يمنع الوصل بينهما . وكانت الأولى منهما ليس لها محل من الإعراب . وبالنظر لما عرضناه عليك يتضح أن « التوسط بين الكمالين » ثلاث صور :

الأولى : أن تتفق الجملتان في اللفظ والمعنى خبراً .

الثانية : أن تتفق الجملتان في اللفظ والمعنى إنشاءً .

الثالثة : أن تتفق الجملتان في المعنى ، وإن اختلفتا في اللفظ .

والمراد « بالتوسط بين الكمالين » توسطه بين كمال الانقطاع وكمال الاتصال . وسيأتي الحديث عنهما .

٣ - كمال الانقطاع مع إيهام خلاف المقصود

الموضع الثالث من مواضع الوصل بين الجمل ، إذا كانت الجملة الأولى

(١) سورة البقرة ، الآية ٨٣ .

ليس لها محل من الإعراب ، واختلفت مع الثانية خيراً وإنشاء ، الأمر الذي يوجب الفصل بين الجملتين ، - كما سنعلم - ولكن الفصل يتعارض مع غرض المتكلم ، ويوهم خلاف المقصود . ويطلق البلاغيون على هذا الموضع : « كمال الانقطاع مع الإيهام » بيان ذلك :

نقول : « لا ، وبارك الله فيك » : نجيب بذلك من قال لك :

هل لك حاجة أساعدك في قضائها ؟

في هذه العبارة جملتان : الأولى منهما خبرية ، قامت كلمة « لا » مقامها إذ التقدير : « لا حاجة لي » ، والجملة الثانية : « وبارك الله فيك » إنشائية في المعنى ، أريد بها الدعاء ، وإن كانت خبرية في لفظها ، فليس بين الجملتين إتفاق في المعنى . ولذا ترى البلاغيين يقولون : إن بين الجملتين كمال الانقطاع ، الأمر الذي يوجب الفصل بينهما ، فلا نذكر - الواو - ، وتكون العبارة « لا بارك الله فيك » ، وهذا الفصل - كما ترى - يفسد المعنى ، إذ يظن السامع - حيثئذ - أنك تدعو عليه في حين أنك تقصد الدعاء له ، ولذلك وجب العدول عن الفصل إلى الوصل ، وتسمى هذه الصورة « بكمال الانقطاع مع إيهام خلاف المقصود » .

ومثله قولك : « لا ولطف الله به » ، تجيب بذلك من قال : « هل شفى أخوك من علته » ؟ ففي هذا المثال يجب الوصل كما مر في المثال الأول .

وقولك : « لا ويرحمك الله » ، تجيب بذلك من قال : « أذهبت الحمى عن المريض ؟ » ومثله : « لا وكفيت شرها » ، ومثله : « لا وشكر الله لك » ، وهذا الأسلوب كما ترى شائع بيننا ونلاحظ فساداً يقع من الناس فيه .

هذا . . . وبلاغة الوصل تتحقق في إرادة الجمع بين الجمل أو إضافة صفة أو أمر إلى المسند إليه .

ولا ريب في أن الوصل إذا وقع موقعه يجعل الأسلوب مترابطاً يتصل بعضه ببعض ، وهذا مما يجعل الموضوع وحدة واحدة مترابطة وليست مفككة الأوصال .

والخلاصة : أن الوصل بين الجملتين يكون في ثلاثة مواضع :

الأول : إذا كانت الجملة الأولى لها محل من الإعراب بأن كانت واقعة موقع المفرد من حال ، أو وصف ، أو خبر ، أو مفعول ، أو غيرها ، وقصد إشراك الثانية لها في الحكم الإعرابي ، وليس هناك ما يمنع من العطف مع وجود المناسبة بين الجملتين ، وهذا الموضع يسميه البلاغيون : « العطف للاشتراك في الحكم ما لم يمنع مانع من العطف » .

الثانية : إذا كانت الجملة الأولى ليس لها محل من الإعراب ، واتفقت مع الثانية خبراً أو إنشاء لفظاً ومعنى ، أو اتفقتا في المعنى ، وإن اختلفتا في اللفظ ، وكانت بينهما مناسبة تامة ، ولم يكن هناك ما يمنع من الوصل بينهما ، وهذا الموضع يسميه البلاغيون « التوسط بين الكمالين » .

الثالث : إذا كانت الجملة الأولى ليس لها محل من الإعراب ، واختلفت مع الثانية خبراً وإنشاء ، وأوهم الفصل خلاف المقصود ، ويطلق البلاغيون على هذا الموضع « كمال الانقطاع مع الإيهام » .

الجامع بين الجملتين

تقدم أن الجامع بين الجملتين هو المعتمد في إعتبار الوصل ، ولذا تراهم يعرفون الجامع بقولهم : هو الوصف الذي يقتضي الجمع بين الجملتين بحيث يكون مقرباً لهما .

والجامع بين الجملتين : يجب أن يكون باعتبار المسند إليه في الجملة الأولى ، والمسند إليه في الجملة الثانية ، أو باعتبار المسند في الجملة الأولى

والمسند في الجملة الثانية ، أو باعتبار متعلقاتهما إذا كانت مقصودة بالذات من الجملتين ، وإليك بعض الأمثلة التي توضح هذا الكلام .

تقول : « يشعر زيد ويكتب » ، فتجد جملة : « يكتب » معطوفة على جملة : « يشعر زيد » فما الجامع بين الجملتين الذي أوجب العطف بينهما ؟ ، والجواب : أن المسند إليه متحد في كل منهما ، وهو : « زيد » ، وأما المسند في كل منهما وهو : « الشعر والكتابة » بينهما مناسبة ظاهرة ، وأيضاً تقارنهما في خيال أصحابهما .

وتقول أيضاً : « زيد يعطي ويمنع » فالمسند إليه متحد فيهما ، وكل من المنع والإعطاء يضاد أحدهما الآخر ، هذا عند اتحاد المسند إليه في الجملتين .

وتقول : « زيد شاعر وعمرو كاتب » و« زيد طويل وعمرو قصير » فتجد أن المسند إليه في كل من الجملتين مختلف ، في هذه الحال لا بد من المناسبة بين « زيد وعمرو » وهذه المناسبة تتحقق إذا كان بينهما عداوة أو صداقة أو أخوة أو نحو ذلك ، وكذلك نلاحظ وجود التضاد بين « شاعر ، وكاتب » وبين (طويل وقصير) فبين المسندين جامع من جهة الوهم .

وتأمل قول الشاعر :

بأشدهم كلباً على أعدائهم وأعزهم فقداً على الأصحاب

تجد أن الشطر الثاني معطوف على الشطر الأول وبينهما أكثر من مناسبة ونلاحظ أن « على أعدائهم » جار ومجرور ، وكذلك « على الأصحاب » جار ومجرور ، وهما من متعلقات الجملتين ، ولكنهما مقصودان بالذات لأن المعنى في البيت مرتبط بهما ، ولذا دخلا في الجامع بين الجملتين ومعنى البيت : أنه قتل الذي أقواهم شدة على الأعداء ، ويعز فقده على الأصحاب .

فواضح مما تقدم أنه إذا اتحد المسند إليه في الجملتين فلا بد من المناسبة بين المسند أو المتعلقة إذا كانت مقصودة ، وكذلك إذا اتحد المسند فيهما أو كان مناسباً للآخر ، فلا بد من المناسبة بين المسند إليه فيهما .

وعلى ذلك : إذا قلنا : « زيد كاتب وعمرو شاعر » بدون المناسبة ، بين زيد وعمرو ، فإنه لا يصح ، وإن اتحد المسندان ، ولهذا حكموا بامتناع نحو « خفي ضيق وخاتمي ضيق » لعدم المناسبة بين الخف والخاتم مع أن المسند متحد فيهما .

وإذا قلنا : « زيد شاعر وعمرو طويل » يمتنع سواء كان بين زيد وعمرو مناسبة أم لم يكن ، لعدم تناسب الشعر وطول القامة .

وذكر السكاكي : أنه يجب أن يكون بين الجملتين ما يجمعهما عند القوة المفكرة جمعاً من جهة العقل ، وهو الجامع العقلي ، أو من جهة الوهم وهو الجامع الوهمي ، أو من جهة الخيال ، وهو الجامع الخيالي .

والمراد بالعقل : القوة العاقلة التي تدرك الكليات والجزئيات المجردة عن عوارض المادة المعروضة للصور والأبعاد ، كالطول والعرض والعمق ، لأنها مجردة ، ولا يقوم بها إلا المجرد .

والمراد بالوهم . القوة الوهمية التي تدرك معاني الجزئيات الموجودة في المحسوسات بشرط أن تكون تلك المدركات الجزئية لا تتأدى إلى مدركها من طرق الحواس ، وذلك كإدراك صداقة زيد وعداوة بكر ، وإدراك الشاة إيذاء الذئب - مثلاً - .

وأما الحس المشترك : وهو الذي تتأدى إليه الصور المحسوسة الجزئية من الحواس الظاهرة ، وتحكم بين تلك الصور المتأدية إليها كالحكم بأن هذا

الأصفر هو نفس هذا الحلو - مثلاً - ويعنون بالصور المدركة : بهذه القوة ما يمكن إدراكه بالحواس الظاهرة ولو كان مسموعاً، كصورة زيد المدركة بالبصر، وكرائحة هذا الشيء المدركة بالشم ، وكحسن هذا الصوت ، أو قبحة المدرك بالسمع، وحلاوة هذا العسل المدركة بالذوق ، ونعومة هذا الحرير المدركة باللمس ويعنون بالمعاني الجزئية المدركة بالوهم ما لا يمكن إدراكه بالحواس الظاهرة كالرغبة والعداوة والإيذاء .

وأما المفكرة : فهي قوة تتصرف في الصور الخيالية ، وفي الثاني الجزئية الوهمية، ومن شأنها التفضيل والتركيب بين الصور المأخوذة عن الحس المدرك والمعاني المدركة بالوهم بعضها عن بعض ، وهي لا تكون يقظة ولا مناماً^(١)، وعلى ضوء ما ذكر قسم الخطيب القزويني : الجامع بين الجملتين .

أقسام الجامع ينقسم الجامع بين الجملتين إلى ثلاثة أقسام عقلي ، ووهمي ، وخيالي

الجامع العقلي : هو علاقة تجمع بين الشيئين في القوة المفكرة جمعاً . يكون من جهة العقل ، بأن تكون العلاقة أمراً حقيقياً ، أي : في الواقع ونفس الأمر .

وذلك الجامع العقلي يحصل بأن يكون بين الجملتين اتحاد في التصور : أي عند تصور العقل لهما ، وذلك إذا كان الثاني هو الأول ، نحو « زيد كاتب » و« هو شاعر » ، ولا يضر اختلاف الجامع فإنه في المسند إليه « عقلي » وفي المسندين « خيالي » وهو تقارن الشعر والكتابة .

(١) راجع شروح التخليص ج ٣ ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ .

ويحصل الجامع العقلي أيضاً بين الجملتين بأن يكون بينهما « تماثل » :
وذلك بأن يتفقا في الحقيقة ، ويختلفا في العوارض ، فمثال ما إذا كان
بينهما تماثل في المسند إليه ، كأن يقال : « زيد كاتب ، وعمرو شاعر » فبين
زيد وعمرو تماثل في الحقيقة الإنسانية ، فكأنه قيل : « الإنسان كاتب
والإنسان شاعر » ، ومثال التماثل في المسند نحو : « زيد أب لبكر ، وعمرو
أب لخالد » ، فأبوة زيد ، وأبوة عمرو حقيقتهما واحدة ، وإن اختلفا
بالشخص ، فإذا جردتا عن المشخصة صارتا شيئاً واحداً .

وكتماثل المسند في قول الشاعر :

فيكي إن ناءوا شوقاً إليهم ويكي إن دنوا خوف الفراق

ويحصل الجامع العقلي أيضاً بين الجملتين بأن يكون بينهما « تضاييف »
في ركن من أركانها : وحقيقة التضاييف بين شيئين : أن يكون تعقل كل
منهما متوقفاً على تعقل الآخر ، كأن يقال : « أبو زيد يكتب وابنه يشعر » ،
فالجامع بين الأب والابن المسند إليهما - عقلي ، وهو : التضاييف ، وكذا
يقال في : « أبوك زيد وابنك عمرو » وإن اختلفا من جهة أن الجامع بين
المسندين في المثال الأول خيالي ، وفي المثال الثاني عقلي هو التماثل .

وإذا تأملنا نجد أن تصور أي ركن لازم لتصور الآخر ، وحينئذ فحصول
كل واحد منهما في المفكرة يستلزم حصول الآخر ضرورة ، وهذا معنى
الجمع بينهما .

وكما بين المبادرة إلى الفرصة والنهوض في قول الشاعر :

بادر إلى الفرصة وانهض لما تريد فيها فهي لا تلبث

وكتضاييف الذي بين مفهوم العلة ومفهوم المعلول ، وهو كون الشيء
مسبباً عن ذلك الشيء ، كأن يقال حركة الخاتم موجودة وحركة الإصبع
موجودة . أو حركة الإصبع علة وحركة الخاتم معلولة .

وكالتضاييف الذي بين مفهومي الأقل والأكثر ، كأن يقال : « هذا العدد الأقل لزيد وذلك العدد الأكبر لصاحبه » و « الأربعة أقل من الخمسة ، والخمسة أكثر منها » ، أو هذه الأربعة لزيد والخمسة لعمر .

وإنما كان الأقل والأكثر من المتضاييفين ، لأن كلاً منهما لا يفهم إلا باعتبار الآخر ، فيصور كل منهما مستلزم لتصوير الآخر ، فمتى جعل أحدهما في المفكرة حصل الآخر فيها .

وسمى جمع الاتحاد ، والتماثل ، والتضليف ، عقلياً ، لأن العقل يدرك الأمور على حقائقها ، ويشبها على مقتضاها ، والجمع بهذه محقق في نفس الأمر لا يبطله التأمل فنسب للعقل بخلاف الجمع بالأمر الوهمي .

والجامع الوهمي : هو علاقة تجمع بين الشئيين في القوة المفكرة جمعاً يكون من جهة الوهم بأن تكون العلاقة أمراً اعتبارياً غير محسوس بإحدى الحواس الخمسة الظاهرة !! وبسبب هذا الأمر يحتال الوهم ، وبه يروج في اجتماع الأمرين اللذين حاول الجمع بينهما ، وإذا خلى العقل ونفسه ، ونظر فيه لم يجمع بينهما به وذلك أن العقل إنما يدرك الأمور على حقائقها ، ويشبها على مقتضياتها ، بخلاف الوهم ، فإن شأنه إدراك الأمور على حقيقتها ويشبها على خلاف مقتضاها .

وذلك الجامع الوهمي يحصل بأن يكون بين تصورهما شبه تماثل : « كلون - بياض ولون صفرة » ، وإنما كان هذا جامعاً ، لأن الوهم يبرزهما في معرض المثلين لتقاربهما ، فيتوهم أنهما مثلاًن كما تقول : صفرة الذهب تسر ، وبياض الفضة ينفع ، ولذلك حسن الجمع بين الثلاثة في قول محمد ابن وهيب يمدح المعتصم :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

فهذه الثلاثة (شمس المضحى وأبو إسحاق والقمر) عند النظر والتأمل متباينة .

فالشمس كوكب نهاري مضيء لذاته ، والقمر كوكب ليلي مطموس لذاته يستمد نوره من نور الشمس . وأبو إسحاق إنسان عم عدله وإحسانه جميع العالمين في زعم الشاعر ، بحيث صار عموم عدله وإحسانه شبيهاً بعموم نور الشمس في التوصل إلى الأغراض ، إلا أنه يسبق إلى الوهم تماثل هذه الثلاثة في الإشراق وأنها نوع واحد ، وإنما تمايزت بالعوارض ، أما التوهم فيما بين الشمس والقمر فواضح وأما فيما بينهما وبين أبي إسحاق فلكثرة تشبيه عموم العدل والإحسان بنور الشمس حتى صار بحيث يتوهم في معرض التماثلات ، ولذا عطف بعضها على بعض ، وهذا المثل وإن كان من عطف المفردات إلا أنه يصح الاستشهاد به لأنه يشترط الجامع فيها أيضاً - والجامع الوهمي موجود فيها^(١) .

ومنه قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في الخلق مطمع فذو التاج والسقاء والذر واحد
فالوهم هو الذي حسن الجمع بين الملك والسقاء وصغار النمل لاشتراكها
في عدم التوقع منهم ، والاستغناء عنهم مع كونها متباعدة متباينة غاية
التباين^(٢) .

ويحصل الجامع الوهمي بين الجمليتين أيضاً إذا كان بين تصور الجمليتين تضاد . وهو التقابل بين أمرين وجوديين يتعاقبان على أمر واحد ، كالسواد والبياض في المحسوسات ، وكالإيمان والكفر في المعقولات .

(١) راجع شروح التلخيص ح ٣ ص ٨٢ - ٩٦ .

(٢) حاشية الدسوقي ح ٢ ص ٩٥ .

والإيمان تصديق النبي ﷺ بكل ما علم مجيئه به بالضرورة كالوحدانية والبعث والرسالة والكفر على هذا جحد شيء من ذلك ، فيكون أمراً وجودياً كالتصديق ، وأما إن فسر الكفر بعدم التصديق بشيء من ذلك ، فالتقابل بينهما تقابل العدم والملكية كما لا يخفى (١) . تقول : « ذهب الكفر وجاء الإيمان » و« الإيمان حسن » .

« والكفر قبيح » ، والسواد لون قبيح والبياض لون حسن ، ومنه : الهمس والجهرة ، والطيب والتتن ، والحلاوة والحموضة والملامسة والخشونة وكالتحرك والسكون ، والقيام والقعود والذهاب والمجيء ، والإقرار والإنكار ، ومنه أيضاً الذوات المتصفة بهذه المتقابلات ، فيقال : الأسود ذهب والأبيض جاء ، والمؤمن حضر ، والكافر غاب ، وكذلك سوداء وبيضاء ومؤمنة وكافرة وتقول : الطائع جاء والعاصي ذهب ، لوجود الجامع الوهمي في كل ذلك .

ويحصل الجامع الوهمي أيضاً إذا كان بين المقصورين في الجملتين : شبه تضاد ، وذلك بالأى يكون أحدهما ضد الآخر ، ولا موصوفاً بضد ما وصف به الآخر ، ولكن يشتمل ويستلزم كل منهما معنى ينافي ما يستلزمه ويشتمل عليه الآخر وهو قسمان : ما يكون في المحسوسات ، كالسما والأرض ، وما يكون في المحسوسات والمعقولات كالأول والثاني .

فيقال : « السماء مرفوعة لنا والأرض موضوعة لنا » و« الأول سابق والثاني لاحق » فالجامع بين المسند إليهما وهمي لتحقيقه شبه التضاد بينهما .

وإنما كان المتضاد وشبهه جامعاً وهمياً ، لأن الوهم ينزلهما منزلة التضاييف عند العقل ، بمعنى أن العقل لما كان لا يخطر عنده أحد المتضاييفين إلا خطر الآخر ، وبذلك ارتباط جمعهما عند المفكرة ، فكذاك

(١) مواهب الفتاح ص ٩٧ .

العقل هنا لا يخطره أحد المتضادين أو الشبهين بهما إلا ويحضر الآخر ،
ولذلك نجد الضد أقرب خطوراً بالبال مع الضد الآخر كالسود والبياض -
مثلاً - (١) .

ومن الوصل للجامع الوهمي قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ
وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴿ (٢) .

وقول الشاعر :

أيقظان في بغضائنا وهجائنا وأنت عن المعروف والبر نائم

الهمزة من « أيقظان » للانكار والتوبيخ - يقول : ما ينبغي لك أن تكون
يقظان في هجونا وبغضائنا ، ونائماً عن الخير والبر والإحسان .

الجامع الخيالي : هو علاقة تجمع بين الشيئين في القوة المفكرة ، جميعاً
من جهة الخيال ، بأن تكون العلاقة أمراً اعتبارياً محسوساً بإحدى الحواس
الخمس الظاهرة .

ويحصل الجامع الخيالي بأن يكون بينهما تقارن في خيال المخاطب عند
التذكر والإحضار هذا التقارن سابقاً على العطف ليكون مصححاً له ، أما لو
كان التقارن حاصلًا بالعطف فلا يكفي .

وأسباب التقارن في الخيال مختلفة ، ولذلك اختلفت الصور الثابتة في
الخيالات من حيث الاجتماع وعدمه أو الوضوح وعدم الوضوح .

فكم صورة تتعاقب في خيال ، وهي في آخر لا تتراعى ، وكم صورة لا
تكاد تلوح في خيال ، وهي في غيره نار على علم .

(١) راجع مواهب الفتح ص ١٠٠ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ١٠ - ١١ .

والأديب ابن بيته يترجم ما حوله ، ويتأثر به ، وتكون الأشياء القريبة منه أشد التصاقاً بباله ، فإذا كانت صنعتها الكتابة فإنها تقتضي مخالطته لآلاتها من قلم ودواة ومداد وقرطاس ، فتتقرن صور الأشياء المذكورة بخياله ، فيصح أن يعطف بعضها على بعض ، فيقول : القلم عندي والدواة عندك .

وإذا تعلقته همته بصناعة الصياغة أوجب ذلك له مخالطة آلاتها وأمورها من سبائك الذهب والفضة ، فتتقرن صور المذكورات بخياله فيصح أن يعطف بعضها على بعض (١) .

والأدب العربي حافل بتأثير البيئة على الأديب فمثلاً يقول البارودي في رثاء زوجته :

يا دهر فيم فجعتني بحليلة كانت خلاصة عدتي وعطادي

فهو متأثر بوظيفته في الجيش فيذكر العدة والعتاد ويصفهما لتقارن صورهم في خياله .

وكما يحكى أن صاحب سلاح ملك ، وصائغاً ، وصاحب بقر ، ومعلم صبية سافروا ذات يوم ، وواصلوا سير النهار بسير الليل ، فبينما هم في وحشة الظلام ومقاساة خوف التخبط والضلال طلع عليهم البدر بنوره ، فأفاض كل منهم في الشاء عليه وشبهه بأفضل ما في خزانة صورته ، فشبهه السلاحى بالترس المذهب يرفع عند الملك ، والصائغ بالسبيكة من الإبريز تفتقر عن وجهها البوتقة والبقر بالجبين الأبيض يخرج من قلبه طرياً ، والمعلم برغيف أحمر يصل إليه من بيت ذي مروءة .

وكما يحكى عن وراق يصف حاله : عيشي أضيق من محبرة وجسمي أدق من مسطرة ، وجاهي أرق من الزججاج ، وحظي أخفى من شق القلم ،

(١) أنظر حاشية الدسوقي ص ١٠٢ .

وبدني أضعف من قصبة ، وطعامي أمر من العفص ، وشرابي أشد سواداً من
الحبر ، وسوء الحال لي ألزم من الصمغ .

فكل هذه الجمل التي وردت وجب عطفها على بعضها لوجود الجامع
الخيالي الحادث من تقارن صور هذه التسميات في ذهن المخاطب ، لكثرة
وقوعها أمامه وملازمته لها ليل نهار .

فالأديب يأخذ من محيطه ومن واديه ، وعلى القارئ أو السامع أو الناقد
أن يدرس بيئة الشاعر والنثر وحياتهما الاجتماعية حتى يكون كل منهم على
صلة تامة بعملهما فيستطيع فهمهما والتأثير بهما ، وبهذا تحدث الصلة القوية
بين المنشئ والمتلقي .

محسنات الوصل

الوصل بين الجملتين له محسنات من شأنها أن تورثه حسناً ، وتزيده
جمالاً .

منها : أن يكون بين الجملتين تناسب في الاسمية ، مثل قوله تعالى :
﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾^(١) .

وأن يكون بين الفعليتين تناسب في المضي ، كقول البوصيري يمدح
الرسول ﷺ :

فحزت كل فخار غير مشترك	وجزت كل مقام غير مزدحم
وجل مقدار ما وليت من رتب	وعز إدراك ما أوليت من نعم

أو تناسب في المضارعة ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ

(١) سورة الانفطار ، الآية ١٣ ، ١٤ .

الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴿١﴾ .

أو تناسب في الأمرية ، كما في قوله تعالى : (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) ، إلى غير ذلك من الأمور التي تؤدي إلى التناسب بين الجملتين ، مثل مراعاة نوع المسند بين الاسميتين من كونه مفرداً أو جملة أو ظرفاً :
ولا يحسن العدول عن هذا التناسب إلا لغرض .

كإفادة التجدد في إحداهما والثبوت في الأخرى كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ (٢) ، توضح الآية بعض قبائح المنافقين وفضائحهم ، فهم يفعلون فعل المخادع من إظهار الإيمان ، وإبطان الكفر ، ومعنى كون الله خادعهم : أنه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه ، وذلك أنه تركهم على ما هم عليه من التظاهر بالإسلام في الدنيا ، فعصم به أموالهم ودماءهم ، وأخر عقوبتهم إلى الدار الآخرة ، فجازاهم على خداعهم بالدرك الأسفل من النار ، وجاء « يخادعون » ليفيد بأن خداع المنافقين حادث متجدد وجاءت جملة : « وهو خادعهم » لتفيد بأن فعل الله بهم ثابت ودائم في جميع الأحوال ، وذلك لزيادة التأكيد بهم .

تأمل جمال الوصل في قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَأَقِصْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (٣) . فإنك سوف ترى الجمل المعطوفة متحدة في الإنشائية ،

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٤٢ .

(٣) سورة لقمان الآيات ١٧ - ١٩ .

والمناسبة بين العبارات في الآيات واضحة قوية ، وذلك إذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فالمقيم لها جدير بأن يأخذ على عاتقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن من يعرض نفسه لذلك جدير أن يلم به بعض الأذى ، فوصى من ينهض بهذا العبء أن يحتمل ويصبر ، وإذا كان قد أمره بالصلاة ، وهي خضوع للرب فجدير به ألا يمتلىء بالتيه والخيلاء ، وأن يسير في تودة ، ويتحدث - إن تحدث - في وداعة وهدوء ، ومن ذلك تتضح لنا هذه الصلات القوية التي تربط بين هذه الجمل ربطاً محكماً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذَا أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) ، نجد أن في هذه النعم رابطاً يصل بعضها ببعض ، ويسمح للواو أن تجمع بينها ، فهؤلاء قوم كانوا مستضعفين في الأرض يخشون أن يغير عليهم مغير ، يسلبهم الحرية ، فكانت نعمة الأمن لها المكان الأول بين نعم الله عليهم ، ولم يقف الأمر عند حد الأمن بل رزقهم خفض العيش وطيبات الحياة .

ثم تأمل قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (٢) فالمطلوب في الآية التأمل فيما خلق الله ، ليصلوا بهذا التأمل إلى الإيمان بالبعث الذي ينبنى عليه أساس الدين ، والتناسب هنا بين الجمل واضح ، فقد بدأ حديثه بالإبل التي هي عنصر أساسي في حياة البدوي في صحرائه ، إذ أن العرب أكثر تعويلهم في معظم تصرفاتهم على المواشي في المطاعم والملابس والمشارب ، والمراكب ، وأعمها نفعاً هي الإبل ، لأن

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة الغاشية الآية ١٧ - ٢٠ .

أكثر المنافع هذه لا تصلح إلا فيها على العموم ، مع ما اختصت به من الخلق العظيم والإحكام العجيب ، فمن أجل ذلك صدرت الآيات بالنظر فيها : وترى الآية انتقلت من الإبل إلى ما يرونها أمامهم في كل حين من سماء رفعت بلا عمد وللسماء عند البدوي مكانة خاصة يتجه إليها بصره ، يستنزل منها الغيث ، ويهتدي بنجومها في سراه بالليل ، فإذا هبط ببصره قليلاً رأى هذه الجبال الشامخة منصوبة تناطح السماء بقممها ، وترسو في ثبات واطمئنان على أرض مهدت ، وسطحت أمامه . أفلا ترى أن تنقل البصر بين هذه المخلوقات تنقلاً هادئاً طبعياً لا قفز فيه ، وأن ارتباط بعضها ببعض في طبيعة البدوي مهد للربط بينها وعطف بعضها على بعض . وهكذا القرآن كله إذا تأملت في جملة وآياته ستجد نظاماً دقيقاً وتنسيقاً عجيباً^(١) .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾^(٢) فانظر إلى عجائب هذه الآية ولطافة معناها في تقديم بعضها على بعض ، فلما كانت الآية مسوقة من أجل تزيين المشتبهات في أفئدة بني آدم واستيلانها عليها قدم ما هو الأدخل في ذلك ، فصدرها بذكر النساء ، تنبهاً على مكانتهن ، ثم عقبه بذكر « البنين » لما كانوا مما يلي النساء في الرقة والرحمة والشفقة والحنو ، ثم أردف ذلك بالأموال الذهبية والفضية ، لما يحصل فيها من اللذة والسرور والاطمئنان وانسراح الصدور بها والاستطالة والقوة ، كما يحصل بالأبناء ، لكن الأولاد أدخل فرحاً ، وأشد محبة ، وأكثر بهم رحمة ورأفة ، وقوله « القناطر المقنطرة » مبالغة في وصفها ، ثم عقب ذلك بذكر الخيل ، لما يحصل بها من الجمال والهيئة الحسنة والقوة

(١) أنظر من بلاغة القرآن للمرحوم د. أحمد بدوي ص ١٧٤ وما بعدها وكذلك الطراز للعلاوي

ح ٣ ص ٣١١ وما بعدها .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٤ .

والاستطالة على الأعداء بالقهر ، وأردفها بذكر الأنعام لما يحصل بها من المنافع ، وهي دون منافع الخيل وأتبعها بذكر الحرث وختم هذه المنافع بذكره ، لأن كل واحد من هذه الأشياء على مرتبة في السبق على قدر حالها في الجمال والمنفعة ، وقد أشار الله تعالى إلى ترتيبها كما سردها ، تنبيهاً على أن ما تقدم منها فهو أحق من غيره . ولا تزال في تصفحك لأي التنزيل . واستهلال أسرارهِ تطلع على فوائد جمّة ، ونكت غزيرة (١) .

مواضع الفصل

يجب ترك العاطف بين الجملتين أو الجمل في المواضع الآتية :

١ - الفصل لعدم الاشتراك في الحكم الإعرابي

من الأسباب التي توجب العطف بين الجملتين أو الجمل أن تكون الجملة مشتركة مع الجمل الأولى في الحكم الإعرابي ما لم يمنع من ذلك مانع .

أمّا إذا منع من ذلك مانع وجب ترك - الواو - أي : وجب الفصل ببيان ذلك :

تقول (٢) الآية الكريمة : حكاية لحال المنافقين ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ * الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴿ (٣) إذا

(١) أنظر الطراز للعلوي ح ٣ ص ٣١٣ - ٣١٦ .

(٢) ومعنى الآية : وإذا أفضى المنافقون إلى شياطينهم في خلوة عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (قالوا) لشياطينهم (إنا معكم) بقلوبنا في عداوة المسلمين بالثبات على الكفر (إنما نحن مستهزون) بالمسلمين فيما نظهر لهم من المدارة قال تعالى : (الله يستهزيء بهم) بمجازاتهم باللعن والطردهن الرحمة في مقابلة استهزائهم بالمؤمنين ودين الإسلام .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٤ ، ١٥ .

تأملنا هذه الآية نجد جملة : (إنا معكم) لها محل من الإعراب ، لأنها جزء المقول ، مفعول (قالوا) وبينها وبين جملة (الله يستهزئ بهم) تناسب وصلة قوية تصحح العطف لكن يمنع من العطف مانع ، وهو : أنه لم يقصد تشريك جملة : (الله يستهزئ بهم) لجملة (إنا معكم) في حكمها الإعرابي ، لأننا لو قصدنا تشريك جملة : (الله يستهزئ بهم) لجملة (إنا معكم) في الحكم الإعرابي ، ومن ثم يجوز العطف ، لكنت جملة : (الله يستهزئ بهم) من كلام المنافقين ، مع أنها من كلام الله سبحانه وتعالى ، وفساد ذلك واضح ، ومن ثم كان الفصل بينهما كما نرى ومثله قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ^(١) في هذه الآية أيضاً ، جملتان : الأولى منهما (إنا نحن مصلحون) لها محل من الإعراب ، لأنها جزء المقول - ، وبينها وبين جملة : (ألا إنهم هم المفسدون) صلة قوية تصحح العطف ، لكن يمنع منه مانع ، لأن جملة : (إنا نحن مصلحون) من كلام المنافقين ، وجملة : (ألا إنهم هم المفسدون) من كلام الله سبحانه وتعالى ، ولذلك فصل بينهما كما ترى .

ولو قصد تشريك الجملة الثانية للجملة الأولى في حكمها الإعرابي ، فعطفت عليها لكنت من مقول المنافقين وفساد ذلك واضح . كما ترى .

وعليه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) فقد فصل بين جملة : أنؤمن كما آمن السفهاء (وهي مفعول « لقالوا » وجملة : « ألا إنهم هم السفهاء » ، لأن الجملة الثانية ليست من قول المنافقين ، بل هي من قول الله

(١) سورة البقرة ، الآية ١١ ، ١٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٣ .

سبحانه ، ولو وصل بين الجملتين لتغير المسمى ، وكانت من مقبول المنافقين ، وفساد ذلك واضح ، ومن ثم فصل بينهما كما نرى . فواضح مما سبق أنه إذا كان الموضع الأول للوصل بين الجمل هو أن يكون للجمله الأولى محل من الإعراب ، ويقصد تشريك الجمله الثانية الأولى في هذا الحكم الإعرابي ، وكانت بين الجمل مناسبة تامة وليس هناك ما يمنع من العطف وجب العطف .

والموضع الأول للفصل بين الجمل أو ترك العطف وهو : أن يكون للجمله الأولى محل من الإعراب ، ولا يقصد تشريك الجمله الثانية للجمله الأولى في الحكم الإعرابي ، لأنه لو قصد التشريك لوجد المانع من العطف ، لذلك وجب ترك العطف ، وهذا الموضع يسميه البلاغيون : « الفصل » لعدم الاشتراك في الحكم الإعرابي :

٢ - التوسط بين الكمالين مع وجود المانع من العطف

وهو عدم الاشتراك في الحكم

من الأسباب الموجبة للوصل أن يكون بين الجملتين إتفاق في الخبرية أو الإنشائية لفظاً أو معنى فقط مع وجود المناسبة التامة ، وعدم المانع من العطف - لكن إذا وجد المانع من العطف ، وجب ترك العطف ، وبناء على هذا يكون :

الموضع الثاني للفصل أو ترك العاطف هو : أن تكون الجمله الأولى لا محل لها من الإعراب لكن بينها وبين الجمله الثانية اتفاق في الخبرية أو الإنشائية لفظاً ومعنى أو معنى فقط ، وكان هناك مانع من العطف بأن يكون للجمله الأولى « قيد » لم يقصد إعطاؤه للجمله الثانية ، بيان ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وإذا خلو إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم ﴾ ، تأمل هذه المرة في جملة : (قالوا) وجملة :

(الله يستهزئ بهم) تجد أن الجملتين قد فصل بينهما ، فما السبب ؟ السبب أن جملة : (قالوا) مقيدة بوقت خلوهم إلى شياطينهم ، أي : أنهم يقولون : « إنما نحن مستهزئون وقت خلوهم إلى شياطينهم » .

أما جملة : « الله يستهزئ بهم » - التي وليتها - فغير مقيدة بهذا القيد ، ولذلك فصل بينهما ، ولو ذكرت الواو - فوصل بينهما لشاركت الجملة الثانية الأولى في حكمها وقيدها ، وأصبح المعنى حينئذ : أن استهزاء الله بهم مقيد بوقت خلوهم إلى شياطينهم ، مع أن المعلوم أن استهزاء الله بهم دائم في كل حال فهو من ثم وجب الفصل . وهذا الموضع يسميه البلاغيون (التوسط بين الكمالين مع وجود المانع من العطف : وهو عدم الاشتراك في القيد .

٣ - كمال الانصال

عرفنا فيما سبق أن من الأسباب التي توجب وصل الجمل بعضها ببعض أن تكون الجملة الأولى ليس لها محل من الإعراب ، ولكنها متفقة مع الجملة التي تليها في الخبرية أو الإنشائية لفظاً ومعنى أو معنى فحسب مع وجود المناسبة ولم يكن هنا ما يمنع من العطف ، في هذه الحالة تأتي الواو ، وتصل بين الجمل .

لكن أحياناً نجد الجملتين أو الجمل بعد اتفاقها في الخبرية لفظاً ومعنى أو معنى فقط ، قد اتحدت الجملة الثانية بالأولى اتحاداً تاماً ، واتصلت بها اتصالاً وثيقاً بحيث تكون بمعناها أو جزءاً منها ، في هذه الحالة تكون الصلة قد أصبحت قوية بين الجملتين أو الجمل بحيث لا تحتاج إلى رابط خارجي يربطهما ، ومن ثم يجب ترك - واو - العطف لما بينهما من ربط معنوي ، ولعدم صحة عطف الشيء على نفسه ، ولا عطف الجزء على كله ، لأن العطف يقتضي المغايرة ، ولذلك لا نقول : في هذا الموضع فصلنا ، ولكن

نقول : تركنا العاطف لقوة اتصال الجملة الثانية بالأولى ، وهذا الموطن يسميه البلاغيون :

كمال الاتصال : ويكون في ثلاث صور :

الصورة الأولى : أن تكون الجملة الثانية بمعنى الجملة الأولى ، ومؤكدة لها وذلك التأكيد إما لفظياً أو معنوياً .

فاللفظي : يتحقق إذا اتفقت الجملتان في المعنى سواء اختلف اللفظ أم اتحد فمثال الجمل أو الجملتين اللتين اتفقتا في المعنى واختلفتا في اللفظ ، قوله تعالى : ﴿ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾^(١) فإن جملة : « هدى للمتقين » معناها : أن القرآن الكريم بالغ في الهداية درجة لا يدرك كنهها حتى كأنه هداية محضة ، وذلك مأخوذ من تنكير « هدى » الذي يدل على التعظيم ، لذلك لم يقل « هاد » ، وهدى على هذا خبر مبتدأ محذوف تقديره « هو » ، وجملة : « ذلك الكتاب » معناها : أن القرآن الكريم بلغ الدرجة القصوى من الكمال في الهداية ، وهذا المعنى مأخوذ من جعل المبتدأ « ذلك » إشارة إلى بعد المنزلة وتعريف الخبر بالألف واللام يقتضي « القصر » أي : هذا الكتاب هو الكامل لا غيره ، والمراد بكماله كماله في الهداية ، لأن الكتب السماوية بقصر الهداية واعتبارها تتفاوت في درجات الكمال .

فالمعنى بين جملة « ذلك الكتاب » وجملة « هدى للمتقين » تتحد ، وإن اختلف اللفظ فيهما ، ومن ثم ترك العطف - بالواو - كما نرى لأنه لا يجوز عطف الشيء على نفسه ، ولأن العطف يقتضي المغايرة ولا مغايرة هنا بين الجملتين .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً ^(١) ففي النظم القرآني الكريم ثلاث جمل : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » أي : يستوي الإنذار وعدمه (ولا يؤمنون) وهي تأكيد للآية الأولى لأنهما متحدان في المعنى ، وجملة « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاة ^(١) » تأكيد ثان أبلغ من الأول لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر كان في غاية الجهل ، وكان مطبوعاً على قلبه لا محالة ، ولذلك ترك العاطف بين هذه الجمل الثلاث لما بينهما ، من كمال الاتصال .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ^(٢) فالجملة الثانية « يخادعون الله والذين آمنوا » لا تختلف من حيث المعنى عن جملة (آمنا) ، وذلك لأنهم حينما قالوا : (آمنا) قالوها وهم غير مؤمنين ، والذي يقول خلاف ما يضمّر ، فإنه يخادع فلا فرق من حيث المعنى بين الجملتين « آمنا » و« يخادعون » ومن ثم ترك العطف بالواو - كما نرى ، لأن اتحاد الجملتين اتحاداً تاماً يمنع عطف الشيء على نفسه ، ويوجب ترك واو العطف .

وقد يتحدان في المعنى واللفظ كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا ﴾ ^(٣) فيلاحظ أن جملة : « فمهّل الكافرين » وجملة : « أمهلهم رويداً » قد اتحدتا في المعنى واللفظ كما نرى - فلا حاجة إلى وصلهما - بالواو - وقوة الرابطة بينهما من ناحية اللفظ والمعنى ، هي التي أغنت عن

(١) سورة البقرة ، الآية ٦ ، ٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٨ - ٩ .

(٣) سورة الطارق ، الآية ١٧ .

- واو - المعطف، وتجاوزوا بقول فصل بينهما ، إذ شركت الواو : لكن في الحقيقة أن الجملتين ربطاً ريباً وثيقاً محكماً من ناحية إتحداهما في اللفظ والمعنى ، ومن ثم تركت - الواو - إذ لا حاجة لها الآن .

ويقول المتنبي : (١)

وما الدهر إلا من رواه قلائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فالشطر الثاني لم يعطف على الشطر الأول ، لأنهما قد اتحدتا في المعنى واللفظ كما ترى - فلا حاجة إلى وصلهما - بالواو - لقوة الرابطة بينهما .

أما التأكيد المعنوي : فيتحقق إذا اختلف مفهوم الجملتين ، واتحدتا في تقرير المعنى المراد ، لأن معنى الأولى يستلزم معنى الثانية ، بيان ذلك : تقول الآية الكريمة : ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ ففي القول الكريم جملتان أولهما : « ذلك الكتاب » ومعناها - كما سبق - أنه الكتاب الذي بلغ الدرجة القصوى في الكمال . وثانيتهما : « لا ريب فيه » ومعناها : أنه لا يتطرق إليه شك ولا ريب ، فالمعنيان مختلفان ، لكنهما متلازمان ، فإنه يلزم من بلوغ القرآن درجة الكمال ألا يكون محلاً للريب ، فجاءت جملة : « لا ريب فيه » مقررّة لهذا المعنى ، دافعة لتوهم السامع التجوز أو الغلط في الأولى ، إذ يظن أن وصف القرآن الكريم بهذا الوصف قد بولغ فيه ، وحيث أن الجملة الثانية دفعت توهم التجوز أو الغلط ، فتكون قد أشبهت التوكيد المعنوي في مثل قولنا : جاء الخليفة نفسه .

وكما لا يجوز عطف « نفسه » على « الخليفة » ، ففي هذا المثال لا يجوز عطف جملة : « لا ريب فيه » على جملة « ذلك الكتاب » ، والعلة في ذلك أن التوكيد والمؤكد كالشيء الواحد ، ولا يجوز عطف الشيء على نفسه .

(١) ديوان المتنبي ص ٢٩٠ ح ١ نشر دار المعرفة بيروت .

فالجملتان مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً فلا حاجة إلى الربط « بواو » العطف .
وواضح أن بلاغة هذا التعبير تكمن في تأكيد المعنى المراد في ذهن السامع
وتقلع منه جذور الشك في مضمون الجملتين .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيّ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلِيّ مُّسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا
كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا ۖ ﴾^(١) ففي الآية الكريمة جملتان : « كأن لم يسمعها »
و « كأن في أذنيه وقراً » ، ومعنى الجملة الأولى : أنه لم يسمعها مصادفة أو
قصداً لعدم سماعها ومعنى الجملة الثانية أنه لم يسمعها لفساد سمعه فالمعنى
في الجملة الثانية - كما هو واضح - مقرر لما أفادته الجملة الأولى ، وإن
اختلفتا في المعنى ، فبين الجملتين « كمال الاتصال » ومن ثم ترك العطف
- بالوا - .

الصورة الثانية : وتحقق إذا كانت الجملة الثانية بياناً للجملة الأولى ،
كما في قوله تعالى : ﴿ فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ
الْجَنَّةِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ۖ ﴾^(٢) ، فأنت ترى أنه فصل جملة : (قال يا آدم) عن
جملة : (فوسوس إليه الشيطان) ، لأن جملة : (فوسوس إليه الشيطان) فيها
خفاء وإبهام وإجمال فجاءت جملة (قال يا آدم) مفسرة وموضحة لهذا
الإجمال ، فكانت منها بمنزلة عطف البيان . في إفادة الإيضاح . وعطف
البيان لا يعطف على متبوعه ، فكذلك لم تعطف الجملة الثانية على الأولى ،
لأن قوة الاتصال بينهما أغنت عن الربط - بواو العطف - ولعلك تلاحظ أن
بلاغة هذه الصورة تأتي من جهة الإبهام والتوضيح ، فإذا ذكر الإبهام كانت
النفس متشوقة لتفسيره وتوضيحه ، فإذا نالت ما تريد ، اطمأنت وارتاحت
وكذلك في هذه الصورة تأكيد للمعنى في نفس السامع يذكره مرتين مرة على

(١) سورة لقمان ، الآية ٧ .

(٢) سورة طه ، الآية ١٢٠ .

سبيل الإجمال ومرة على سبيل التوضيح .

وقال أبو العلاء :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم والمعنى : أن الناس لا بد لهم من التعاون ، فلا يتهياً لإنسان أن يستقل في هذه الحياة بشئون نفسه ، فأنت ترى أن الجملة الثانية : « بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم » ما جاءت إلا لإيضاح الجملة الأولى : « الناس للناس من بدو وحاضرة فهي بيان لها ، ولذلك ترك عطفهما - بواو - العطف ، لأن الشيء لا يعطف على نفسه :

الصورة الثالثة : وتحقق إذا كانت الجملة الأولى غير وافية بالمراد ، وفي الجملة الثانية وفاء به حسب ما يتطلبه المقام - فتكون الثانية بدلاً من الأولى .

وهو إما بدل اشتمال : كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾^(١) لم تعطف جملة : « اتبعوا من لا يسألكم أجراً » على جملة : « اتبعوا المرسلين » ، لأن الثانية بمنزلة بدل الاشتمال من الأولى ، وأوفى بتأدية المراد ، فإن المراد بالقول الكريم هو : حمل المخاطبين على اتباع الرسل ، وقوله تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ أوفى بتأدية ذلك ، لأن معناه : لا تخسرون مع اتباع الرسل شيئاً من دنياكم ، وتريحون صحة دينكم ، فيتنظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة ، فتجد أنه ترك عطف الجملتين - بالواو - لقوة الصلة بينهما لأن الجملة الثانية بمنزلة بدل الاشتمال من الأولى .

ومنه قول الشاعر :

أقول له : ارحل لا تقيمن عندنا وإلا فكن في السر والجهر مسلماً

(١) سورة يس ، الآية ٢٠ ، ٢١ .

فإن المراد به كمال إظهار الكراهة لإقامته بسبب خلاف سره المعلن ، وقوله : لا تقيم عندنا « أو في تأدية المراد لدلالته عليه بالمطابقة مع التأكيد لانك إذا قلت لآخر : « لا تقم عندي » لم تقصد كفه عن الإقامة فحسب ، وإنما تقصد إظهار الكراهة لإقامته .

أما « ارحل » فإنها تدل على المراد بالإلتزام ، لأن طلب الإرتحال يقتضي عرفاً محبته ، ومحبة الارتحال تقتضي كراهه ضده وهي الإقامة .

وأما بدل بعض : كما في قوله تعالى : ﴿ أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدُّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ^(١) : القول الكريم مسوق لغرض التنبيه على نعم الله عند المخاطبين وجملة : « أمدكم بما تعلمون » مؤدية لهذا الغرض ، بما فيه من عموم ، وما فيه من الإلزام حيث تركهم إلى علمهم ، وجملة : « أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون » أوفى بتأدية المعنى المراد من الجملة الأولى ، إذ أن الثانية تدل على المعنى بالتفصيل من غير إحالة على علمهم مع كونهم معاندين ، والإمداد بما ذكر من الأنعام وغيرها ، بعض الإمداد بما تعلمون ، ومن ثم لم تعطف الجملة الثانية على الأولى بالواو ولقوة الربط بينهما فلا حاجة إلى الربط بواو - العطف .

ومثله قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ ^(٢) لم تعطف جملة : « يفصل الآيات » على جملة : (يدبر الأمر) ، لأن تفصيل الآيات بعض من تدبير الأمر ، فهي بدل بعض منها ، ومن ثم ترك العطف - بالواو - بين الجملتين لقوة الربط بينهما ، لأن الثانية بمنزلة بدل البعض من الأولى ، والتابع لا يعطف على متبوعه .

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٣٢ ، ١٣٤ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ٢ .

٤ - شبه كمال الإتصال

وأحياناً نجد الجملة الثانية قوية الصلة الأولى ، ونبحث عن السبب فنجده غير ما سبق - ونتأمل فنجد : أن الجملة الثانية وقعت جواباً عن سؤال اقتضته الجملة الأولى أو فهم من الجملة الأولى بمعونة القرائن وسياق الأحوال .

ويقول البلاغيون حينئذ : إن بين الجملتين شبه كمال الاتصال - ومن ثم يجب ترك - واو العطف - أي : لا تعطف الجملة الثانية على الأولى ، لامتناع عطف الجواب على السؤال بيان ذلك :

تقول الآية الكريمة : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾^(١) ففي القول الكريم جملتان : الجملة الأولى : (إنه ليس من أهلك) والثانية : (إنه عمل غير صالح) ونلاحظ أن الجملة لم تعطف على الأولى ، فما السبب ؟ السبب أن الجملة الأولى : (إنه ليس من أهلك) أثارت سؤالاً بما تضمنته من حكم غريب ، كيف لا يكون من أهلي ، وهو ابني من صليبي ؟ أَلأنه لم يؤمن ، أم لسبب آخر ؟ فكان الجواب عن ذلك : إِنَّ أَهْلَكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ صَلَحَ عَمَلُهُمْ ، وهذا ليس منهم : (إنه عمل غير صالح) فالجملة الثانية جواب عن سؤال اقتضته الأولى فهي مرتبطة بالأولى ارتباطاً وثيقاً كما يرتبط الجواب بالسؤال ، ومن ثم تُرك العطف بينهما - بالواو - ، لأن الجواب لا يعطف على السؤال ، ولقوة الرابطة بينهما تراها أغنت عن الربط بواو العطف .

ومنه قول الشاعر :

يرى البخيل سبيل المال واحدة إن الكريم يرى ما له سُبُلاً

ففي البيت جملتان : « يرى البخيل .. » و « إن الكريم .. » والشاعر لم

(١) سورة هود الآية ٤٦ .

يربط بينهما ، وذلك لأن الجملة الثانية جواب عن سؤال نشأ من الأولى ، فكان الشاعر بعد أن نطق بالشطر الأول توهم أن سائلاً سأل ، وما رأي الكريم في ماله ؟ فأجاب : « إن الكريم يرى ما له سبلاً » فانت ترى أن الجملة الثانية لم يربط الشاعر بينها وبين الأولى - بالواو - ولا سبب لترك الواو إلا قوة الرابطة بين الجملتين ، فإن الجواب شديد الارتباط والاتصال بالسؤال ، فأشبهت الحال هنا من بعض الوجوه حال « كمال الاتصال » التي تقدمت ، ولذلك يقال : إن بين الجملتين « شبه كمال الاتصال » .

ومثله قول أبي تمام :
ليس الحجاب بمقص عنك لي أملاً إن السماء ترجى حين تحتجب
فالشاعر لم يربط الجملتين : « وليس الحجاب . . » ، و « إن السماء . . »
بالواو لما بينهما من شبه كمال الاتصال .

فكان أبا تمام بعد أن نطق بالشطر الأول توهم أن سائلاً سأل ، كيف لا يحول حجاب الأمير بينك وبين تحقيق آمالك ؟ فأجاب : « إن السماء تُرجى حين تحتجب .

وسر بلاغة ترك الواو العطف في هذا الموضع هو : بث الروح في الأسلوب الأدبي ، وجعله حياً نابضاً موحياً ، فالقارئ أو السامع تجده يتفاعل مع الأديب ، ويستبطن المعنى ، ويفهم معاني أخرى غير الظاهرة التي تطفو على السطح ، ويفهم أن هذه الجملة تسوحي بسؤال ، وأن الجملة الثانية جواب عن هذا السؤال ، وفي ذلك إيجاز في الكلام بتقدير جملة السؤال ، وإغناء القارئ أو السامع عن السؤال . .

وهذا الأسلوب شائع في اللغة العربية لنظامها البديع ، الذي يقضي بالمناسبة بين عباراتها ، وتقديم ما يقدم وتأخير ما يؤخر بمقتضى قوانين ثابتة تدل على رقيها وحيوتها ، وقد أشرنا إلى بعض هذه المقاييس وذلك النظام في بدء الحديث عن ظاهرة الوصل والفصل في اللغة .

هذا.. ويسمى ترك - الواو- بين الجملتين استئنافاً ، والجملة الثانية تسمى استئنافاً .

والبلاغيون يقولون : إن الاستئناف يجيء على ثلاثة أضرب :

أن يكون السؤال المقدر الذي تضمنته الجملة الأولى عن سبب عام للحكم كقول الشاعر :

قال لي : كيف أنت قلت عليل سهر دائم وحزن طويل

فجملة : « أنا عليل » اقتضت سؤالاً عن سبب عام للحكم الذي دلت عليه . فكأنه قال : « ما بالك عليلاً » أو ما سبب علتك ؟ بقريته العرف والعادة ، لأنه إذا قيل : « فلان مريض » ، فإنما يسأل عن مرضه وسببه ، لا أن يقال : هل سبب علتك كذا وكذا ، لا سيما السهر والحزن ؟ حتى يكون السؤال عن السبب الخاص .

وعليه قول أبي العلاء :

وقد غرضت من الدنيا فهل زمني معط حياتي لغز ما غرضاً
جربت دهري وأهليه فما تركت لي التجارب في وُدّ امرئ غرضاً

غرضت : ضجرت . الغر : الغافل ، وقوله : « ما غرضاً » أي : لم يضجر الحياة بعد كما ضجرت ، وأن تجربته للناس لم تترك له غرضاً . أي حاجة في وُدّهم ، وجعلته يسأم الحياة معهم .

فترى الشاعر قد فصل جملة : « جربت دهري ... » عن جملة : « وقد غرضت ... » لأن الجملة الثانية وقعت جواباً عن سؤال اقتضته الأولى وهو : لم تقول : هذا ويحك ؟ فأجاب « جربت دهري .. » وهذا السؤال عن سبب عام للحكم .

٢ - أن يكون السؤال عن سبب خاص للحكم كقوله تعالى : ﴿ وَمَا

أَبْرَىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴿١﴾ كَأَنَّهُ قِيلَ : هل النفس أَمَّارَةٌ بالسُّوءِ ؟ فقيل إن النفس لِأَمَّارَةٌ ، فالسؤال عن سبب خاص هو : (أنها أَمَّارَةٌ بالسُّوءِ) .

٣ - أن يكون السؤال عن غير السبب العام والخاص ، ويكون على نوعين :

(أ) عام كما في قوله : ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ (٢) : فإن جملة : « قالوا سلاماً » اقتضت سؤالاً هو : ماذا قال إبراهيم عليه السلام ، فقيل : قال سلام : ووضح من السؤال أنه عن شيء عام غير سبب .

(ب) خاص كقول الشاعر :

زعم العواذل أنني في غمرة صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي
فالشط الأول ذكر فيه الشاعر شكايته من جماعة العُدَّال ، فتحرَّك ذهن السامع ليسأل : أصدقوا في هذا الزعم أم كذبوا ؟ فأجاب الشاعر في الشطر الثاني « صدقوا » وأوردها مفصولة لما بينها وبين الأولى من شبه كمال الاتصال ووضح أن السؤال عن سبب خاص غير سبب .

ومنه قول جندب بن عمار :

زعم العواذل أن ناقة جندب بجنوب خبت عريت وأجمت
كذب العواذل لورأين مناخنا بالقادسية قلن : لج وذلت
خبت : ديار من ديار كلب - عريت أزيل عنها رحلها : أجمت : تركت فلم تركب ، وهذا كناية عن قعوده بهذا المكان دون غرضه ، والقادسية : بالعراق : - وذلت : جد في السير وانقادت له ناقته .

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

(٢) سورة هود ، الآية ٦٩ .

فالبیت الأول دَلُّ على سؤال هو : أصدقوا في هذا الزعم أم كذبوا ؟
والبيت الثاني جواب له فكأنه قيل : كذبوا ، وأوردها مفصولة لما بينهما
وبين البيت الأول من شبه كمال الاتصال كما نرى .

ومثله قول الوليد بن يزيد الأموي :
عرفت المنزل الخالي عفا من بعد أحوال
عفاه كل حنان عزوف الويل هسطل
فإنه لما قال : « عفا من بعد أحوال » حرك ذهن القارئ أو السامع ليسأل
عن الفاعل فكان الجواب : عفاه كل حنان . . .

فالبیت الثاني فصل عن الأول لما بينهما من شبه كمال الاتصال .
و« عفا » : درس . والمراد بأحوال في قوله : « من بعد
أحوال » : الأحوال التي سعد فيه بسكانه من أحبابه ، والحنان : السحاب ،
وعزوف الويل : شديد المطر .

وقال أبو الطيب :
وما عفت الرياح له محلا عفاه من حدا بهم وساقا
ففي البيت جملتان : « وما عفت . . . » و« عفاه . . . » وتجد الشاعر قد نفى
الفعل عن الرياح فتحرك ذهن السامع ليسأل عن الفاعل ، فكان الجواب :
« عفاه من حدا . . . » فالجملة الثانية فصلت عن الأولى لما بينهما من شبه
كمال الاتصال .

ومن الاستثناف ما يأتي بإعادة اسم ما استؤنف عنه الحديث نحو :
« أحسنت إلى زيد ، زيد حقيق بالإحسان » بإعادة اسم زيد ، والجملتان
فصلتا عن بعضهما لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، كأن سائلا سأل : لماذا
أحسنت إلى زيد ؟ والجواب الجملة الثانية : « زيد حقيق بالإحسان » ؟

ومنه ما يبيّن على صفة ما استؤنف عنه دون اسمه . والمراد صفة تصلح لترتب الحديث عليه ، نحو : « أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك » والسؤال المقدر : هل زيد حقيق بالإحسان ؟

ويقول البلاغيون : إن الاستثناف المبني على الصفة أبلغ ، لاشتماله على بيان السبب الموجب للحكم : كالصدقة القديمة في المثال المذكور ، لما يسبق إلى الفهم من ترتيب الحكم على الوصف الصالح لكنه عله . وقد يحذف صدر الاستثناف لقيام قرينة ، كقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ ﴾ (١) فيمن قرأ « يُسَبِّحُ » مبنياً للمفعول ، فالسؤال : « مَنْ يسبحه ؟ » والجواب : يسبحه رجال ، فحذف صدر الاستثناف وهو « يسبح » والمحذوف فعل كما ترى .

وقد يكون المحذوف اسماً نحو قولنا : « نعم الرجل » أو نعم رجلاً زيد ، على قول من يجعل المخصوص بالمدح « زيد » خبر المبتدأ محذوف هو زيد مكانه لَمَّا قِيلَ (نعم الرجل) فأبهم الفاعل ، فسئل عن تفسيره ف قيل « هو زيد » فحذف صدر الاستثناف « هو » كما ترى .

وقد يحذف الاستثناف كله « أي السؤال والجواب » - ويقام ما يدل عليه مقامه .

كقول الخماسي : مساور بن هند بن قيس يهجو بني أسد :
زعمتم أن إخوانكم قريش لهم ألف وليس لكم إلف
والمعنى : زعمتم أنكم مثل قريش فكيف تكونون مثلهم ، وليس لكم شيء مما لهم .

إلف : أي إيلاف في الرحلتين المعروفتين لهم في التجارة رحلة في

(١) سورة النور ، الآية ٣٦ ، ٣٧ .

الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام ، « ليس لكم إلاف » أي مؤلفة في الرحلتين المعروفتين ، كأنه قيل : أصدقنا في هذا الزعم أم كذبنا ؟ فقيل : كذبتُم ، فحذف هذا الاستئناف كله ، وأقيم قوله : « لهم إلاف » وليس لكم إلاف » مقامه لدلالته عليه .

وقد يحذف الاستئناف ولا يقام شيء مقامه كقوله : « نعم العبد » أي : هو أيوب ، وقوله تعالى : (فنعم الماهدون) أي نحن .

٥ - كمال الانقطاع بلا إيهام خلاف المقصود

من الأسباب الموجبة للفصل أن يكون بين الجملتين تباين تام ، وذلك يكون باختلافهما خبراً وإنشاء ، الأمر الذي يوجب الفصل بينهما بترك العطف لأن العطف يقتضي التآلف والتناسب بينهما ، وهما متباينان تبايناً تاماً ، وذلك بشرط ألا يكون هنا ما يمنع من الفصل ، وهذا الموضع يسميه البلاغيون « كمال الانقطاع بلا إيهام خلاف المقصود ، ويأتي ذلك في ثلاث صور :

الأولى : أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى ، كقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « أيها الناس إني وليت عليكم » فالأولى : إنشائية لفظاً ومعنى ، والثانية : خبرية لفظاً ومعنى ، ولذلك لم تعطف الثانية على الأولى ، ولأن الفصل لا يوهم خلاف المقصود .

وعليه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السُّيْئَةُ إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾^(١) ، والمعنى لا تستوي الحسنة التي يرضى الله بها ويثبت عليها ، ولا السيئة التي يكرهها الله ويعاقب عليها ، إدفَع السيئة إذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات ، ومنه مقابلة الإساءة بالإحسان والذنب بالعفو ، والغضب بالصبر ، والإغضاء عن الهفوات ،

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

والاحتمال للمكروهات فالجملة الأولى : « لا تسوي ... » خبرية لفظاً ومعنى ،
والجملة الثانية : ادفع بالتي هي أحسن » إنشائية لفظاً ومعنى ، فبينهما ،
كمال الانقطاع ، لذلك فصل بينهما ، ولأن الفصل لا يؤهم خلاف المقصود .

وقال الشاعر :

وقال رائدهم أرسوا نزاولها فكل حتف امرئ يجري بمقدار
والرائد : هو الذي يتقدم القوم لطلب الماء والكلأ للنزول عليه ، ولا
يكون غالباً إلا عريفهم . « أرسوا » أن أقيموا بهذا المكان الملاثم للحرب ،
وهو مأخوذ من أرسيت السفينة حبستها في البحر بالمرسة ، وهي حديدة تلقى
في الماء متصلة بالسفينة ، فتقف ، وقد تطلق « المرسة » بفتح . الميم على
البقعة التي رسيت فيها السفينة . « نزاولها » أي تحاول الحرب ونعالجها ، أي
نحتال لإقامتها بأعمال ، « فكل حتف امرئ يمشي بمقدار » أي لا يمنعكم
من محاولة إقامة الحرب بمباشرة أعمالها خوف الموت ، فإن المرء لا يجري
عليه الموت إلا بقدر الله وقضائه باشر الحرب أم لم يباشرها ، فلا الجبن
ينجي منه ، ولا الإقدام يوجب : فقله : « أرسوا » جملة : إنشائية لفظاً ومعنى
وقوله : « نزاولها » جملة : خبرية لفظاً ومعنى ، ولم يعطف الثانية على الأولى
لكمال الانقطاع .

ومنه قولهم : « لا تدن من الأسد يأكلك » ، وهل تصلح لي كذا أدفع
إليك الأجرة ، برفع المضارع في الجملتين الأخيرتين .

وذكر ابن السبكي في عروس الأفراح : « أن الخبر والإنشاء المتحدین لا
يعطف أحدهما على الآخر فيجب الفصل بلاغة ، وأما لغة فاختلفوا فيه ،
فالجمهور على أنه لا يجوز ، واختاره ابن عصفور في شرح الإيضاح وابن
مالك في باب المفعول معه في شرح التسهيل وجوزه الصفار . . وطائفة ، ونقل
الشيخ أبو حيان عن سيويه جواز عطف المختلفتين بالإستفهام والخير ، مثل :
« هذا ، ومن عمرو » .

وقد تكلموا على ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ (١) .

وحاصله : أن أهل هذا الفن متفقون على منعه ، وظاهر كلام النحاة جوازه ولا خلاف بين الفريقين ، لأنه عند مَنْ جوزه ، يجوز لغة ، ولا يجوز بلاغة ، واختلفوا في : « باسم الله صلى الله سيدنا محمد » في إثبات السواو وإسقاطها (٢) .

الصورة الثانية : أن تكون الجملتين مختلفتين خبراً وإنشاء بالنظر إلى المعنى ، وإن اتفقتا من ناحية اللفظ ، كقولك : « قال عمر ، رضي الله عنه » ، فجملة : « قال عمر » خبرية : لفظاً ومعنى ، وجملة : « رضي الله عنه » خبرية لفظاً إنشائية معنى ، فهما متفقتان في الخبرية لفظاً ولكنهما مختلفتان معنى ، إذ الأولى خبرية ، والثانية إنشائية ، لأنها دعائية ، ولذلك وجب الفصل لإختلافهما معنى ، فحدث بينهما تباين ، ولأن الفصل لا يوهم خلاف المقصود .

ومنه قولنا : « مات فلان رحمه الله » فالجملة الأولى : « مات فلان » خبرية لفظاً ومعنى ، والثانية : رحمه الله » خبرية لفظاً إنشائية معنى لأنها دعائية ، فبينهما اختلاف من جهة المعنى وإن اتفقتا من جهة اللفظ ، وذلك وجب الفصل لإختلافهما معنى ، فحدث بينهما تباين ، ولأن الفصل لا يوهم خلاف المقصود .

الصورة الثالثة : أن تتفق الجملتان خبراً وإنشاء ، ولكن لا صلة ، ولا مناسبة بينهما في المعنى ، أي لا جامع بينهما . وذلك كقول الشاعر :

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢١ .

(٢) عروس الأفراح ص ٦ ، ٧ ح ٣ ضمن شروح التلخيص طبع الحلبي .

وإنما المرء بأصغريه كل امرئ رهن بما لديه
الأصغراني : القلب واللسان ورهن بما لديه : يجازى بما عمل .

فجملة : كل امرئ رهن . لم تعطف على جملة : «إنما المرء
بأصغريه » لعدم التناسب والربط بينهما ، أي : عدم وجود جهة جامعة . مع
أن الجملتين كما ترى - قد اتفقتا خبراً وإنشاءً لفظاً ومعنى الأمر الذي يوجب
وصلهما ولكن عدم وجود المناسبة منع العطف .

ومن أمثلة هذا النوع قول أبي العتاهية :
الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا
فأنت تجد أنه لا مناسبة بين الشطرين ، ولذلك فصل بينهما .

٦ - شبه كمال الاتصال

من الأسباب الموجبة للفصل أن تكون الجملة مسبوقه بجملتين يصح
عطفها على الأولى منهما لوجود المناسبة ، ولا يصح عطفها على الثانية ،
فيترك العطف دائماً لتوهم عطفها على الثانية ، وتصبح الجملة الثالثة بمنزلة
المنقطعة عن الأولى بهذا الحائل ، ويطلق البلاغيون على هذا الموضع « شبه
كمال الانقطاع » وذلك كما في قول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلاً أراها في الضلال تهيم
ففي البيت ثلاث جمل « تظن سلمى » و « أنني أبغي بها » و « أراها » .

فترى أن جملة : « أنني أبغي » من مضمونات سلمى . وجملة : « أراها »
من كلام الشاعر ، فلا يصح عطف جملة « أراها » على جملة : « أنني أبغي »
حرصاً على سلامة المعنى لكن يصح عطف جملة : « أراها » على جملة
« وتظن سلمى » لوجود المناسبة بينهما ، ولكن يمنع من هذا توهم عطفها
على جملة « أنني أبغي » ، فتكون جملة « أراها » من مضمونات سلمى مع أنه
غير المقصود ، ولهذا وجب الفصل لما بينهما من « شبه كمال الانقطاع » .

وتأمل قول الشاعر : يقولون :

إني أحمل الضيم عندهم أعوذ بربي أن يضام نظيري
لم يعطف جملة : « أعوذ » على جملة : « يقولون » ، لثلا يتوهم عطفها
على جملة : « أحمل » ، فتكون من مقولهم ، مع أنها ليست منه وإنما هي
من كلام الشاعر . فبين جملة : « يقولون » وجملة : « أعوذ » شبه كمال
الانقطاع ، ولذلك فصل بينهما .

فروق الجملة الحالية

لما كانت الجملة التي تقع موقع الحال تقترب تارة - بالواو - ، وتارة لا
تقترب بها ، والفصل ترك الاقتران - بالواو - ، والوصل الاقتران بها ، فاقتران
الجملة الحالية - بالواو - شبه بالوصل ، وعدم إقترانها - بالواو - شبه بالفصل -
وهذا يجري على أن - واو - الحال في الأصل العطف - . ومن ثم صار للجملة
الحالية حالتا فصل ووصل بحسب الصورة ، ولذلك ترى البلاغيين يذكرون
فروق الجملة الحالية عقيب الفصل والوصل .

والنحوي قد لا يهتم بالفروق التي تحدث بين الجملة الحالية التي إقترنت
- بالواو - والتي لم تقترب بها ، والتي يجوز ربطها بالضمير وحده ، أو - بالواو
فقط - أو بهما معاً ، أما النحوي المتذوق للغة أو البلاغي فيحس بتلك
الفروق ، ويرى أن الأديب عندما يقصد إلى الجملة الحالية إنما يريد أن يحقق
أغراضاً بلاغية ، فإذا أوردتها مقترنة - بالواو - فذلك للتأكيد الذي يحقق مراده
من زيادة الارتباط بين الحال وصاحبها ، أو الاهتمام ، أو إزالة الشك على
حسب المقامات التي تسيطر عليه وتحرك قلمه .

وهذا ما أحس به الشيخ عبد القاهر الجرجاني فقد ذكر في كتابه القيم
« دلائل الإعجاز » ما نصه . « واعلم أن الخبر ينقسم إلى خبر هو جزء من

الجملة لا تتم الفائدة دونه ، وخير ليس بجزء من الجملة ، ولكنه زيادة في خبر آخر ساق له ، الأول خبر المبتدأ كمنطلق في قولك : « زيد منطلق » . والفعل كقولك : « خرج زيد » ، وكل واحد من هذين جزء من الجملة ، وهو الأصل في الفائدة .

والثاني : هو الحال ، كقولك : « جاءني زيد راكباً » ، وذلك لأن الحال خبر في الحقيقة من حيث إنك تثبت بها المعنى الذي الحال ، كما تثبت بالخبر للمبتدأ ، وبالفعل للفاعل ، ألا تراك : قد أثبت الركوب في قولك : « جاءني زيد راكباً » لزيد ، إلا أن الفرق أنك جئت به لتزيد معنى في إخبارك عنه بالمجيء ، وهو أن تجعله بهذه الهيئة في مجيئه ، ولم تجرد إثباتك الركوب ، ولم تبأشر به ابتداء ، بل بدأت فاثبت المجيء ثم وصلت به الركوب فالتبس به الإثبات على سبيل التبعية لغيره ، وبشرط أن يكون في صلته ، وأما في الخبر المطلق نحو : « زيد منطلق وخرج عمرو » فإنك أثبت المعنى إثباتاً وجردته له وجعلته يباشره من غير واسطة ، ومن غير أن تتسبب بغيره إليه .

وإذ قد عرفت هذا فالعلم أن كل جملة وقعت حالاً ثم امتنعت من - الواو - فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع في صدرها فضممتها إلى الفعل الأول في إثبات واحد ، وكل جملة جاءت حالاً ثم اقتضت - الواو - فذاك لأنك مستأنف بها خبراً ، وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات .

تفسير هذا أنك إذا قلت : « جاءني زيد يسرع » كان بمنزلة قولك : « جاءني زيد مسرعاً » في أنك تثبت مجيئاً فيه إسراع ، وتصل أحد المعنيين بالآخر ، وتجعل الكلام خبراً واحداً ، وتريد أن تقول : « جاءني كذلك جاءني بهذه الهيئة » ،

وهكذا قوله :

وقد علوت قنود الرحل يسفني يوم قديديمة الجوزاء مسموم^(١)

كأنه قال : وقد علوت قنود الرحل بارزاً للشمس ضاحياً ، وكذلك قوله :

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله

لأنه في معنى : « متى أرى الصبح بادياً لائحاً بينا متحلياً » ، وعلى هذا القياس أبداً ، وإذا قلت : « جاني وعلامه يسعى بين يديه » ، و« رأيت زيداً وسيفه على كتفيه » ، كان المعنى على أنك بدأت المجيء والرؤية ، ثم استأنفت خبراً وابتدأت إثباتاً ثانياً لسعي الغلام بين يديه ، ولكون السيف على كتفه .

ولما كان المعنى على استئناف الإثبات احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى ، فجيء بالواو كما جيء بها في قولك : « زيد منطلق ، وعمرو ذاهب والعلم حسن ، والجهل قبيح ، وتسميتنا لها - واو الحال - لا يخرجها عن أن تكون مجتلبة لضم جملة إلى جملة »^(٢) .

وتطلق الحال في اللغة على الوقت الذي أنت فيه ، وعلى ما عليه الإنسان من خير أو شر^(٣) .

والحال في اصطلاح النحاة : وصف فضلة مذكور لبيان هيئة صاحبه ، والمراد بالوصف : ما دل على معنى في صاحبه ، وبالفضلة . ما يأتي بعد تمام الجملة لا ما يستغني الكلام عنه .

(١) القنود : جمع قند . وهو خشب الرجل . وسفنه اليوم : لفحه بحره فغير لونه . وأصله من

سفع النار . قديديمة : تصغير قدام . والجوزاء : برج من أبراج الشمس مسموم : جار .

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٣) لسان العرب لابن منظور ص ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ - دار المعارف .

ولا بد للحال من صاحب تصفه ، لأن الحال وصف لشيء هو : ما يسمى صاحب الحال .

والأكثر في صاحب الحال أن يكون معرفة نحو : « جاء محمد مسرعاً » فمسرّع حال من محمد ، وهو معرفة بالعلمية ، وقد تكون الحال نكرة بمسوغ نحو قول الشاعر :

نجيت يا رب نوحاً واستجبت له في فلك ماخر في اليم مشحونا
« فمشحوناً » حال من النكرة « فلك » لوصفها « بماخر » .

وأكثر ما تكون الحال نكرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا... ﴾ (١) فمذْذُومًا ومدحوراً حالان من المضمّر المستتر في « أخرج » وهما نكرتان ، وقد تكون الحال معرفة ، وهذا مقصور على السماع مثل : أرسلها العراك ، أي : معركة .

وتكون الحال مفردة : مثل « جاء زيد مسروراً » فمسرور حال من « زيد » وهو مفرد كما ترى .

وتكون جملة مثل قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْسَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) فجملة : « وأنتم تعلمون » في موضع الحال من الواو في « تجعلوا » .

وتنقسم الحال إلى مؤسسة ومؤكدة : والمؤسسة : هي التي تفيد معنى جديداً لا يفاد إلا بذكرها ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ (٣) فهي حال مقدرة من فاعل « ادخلوا » ومعناها لا يفاد إلا بذكرها .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٩٩ ..

وقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾^(١) فقلوه : « وهم لا يشعرون » جملة في موضع الحال من المنصوب في « تأتيهم » ومعناها لا يفاد بدون ذكرها .

وأما المؤكدة فهي التي لا تفيد معنى غير مفاد قبل ذكرها ، وإنما تؤكد معنى مفاداً قبل ذكرها ، وذلك مثل قول الشاعر :

أنا ابن دارة معروفاً بها نسبي وهل بدارة يا للناس من عار
والشاهد فيه نصب « معروفاً » على الحال المؤكدة لمضمون جملة : « أنا ابن دارة » .

وتنقسم الحال باعتبار وصفها إلى منتقلة ، وإلى لازمة :

فالحال اللازمة هي : التي لا يفارق الوصف بها صاحبها ، وتحقق الملازمة في ثلاث مسائل :

١ - أحدها أن يكون معناها التأكيد نحو : « محمد أبوك رحيماً » فكلمة « رحيماً » حال من أب الذي هو صاحبها ، وهي ملازمة له ، إذ أن معنى الحال وهو الرحمة لا يتخلف عن الأبوة ، لأن الأبوة لا تنجرد من الرحمة .

٢ - المسألة الثانية : أن يكون عاملها دالاً على تجدد صاحبها وحدثه نحو قولهم : « خلق الله الزرافة يديها أطول من رجلها » فأطول بالنصب بدل من الزرافة ، والحال هنا وصف لازم لصاحبها ، لأن كل زرافة مخلوقة على هذه الصورة ، ومثله في اللزوم قولك : « خلق الله جلد النمر منقطاً » ، « وجلد الحمار الوحشي مخططاً » ، فكل نمر جلده منقطاً ، وكذلك كل حمار وحشي جلده مخططاً ، فالحال فيها وصف لازم لصاحبها .

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٧ .

٣ - أن تكون الحال جامدة غير مؤولة بالمشتق نحو قولنا : « هذا مالك ذهباً » فإن الذهبية لا تنفك عن المال المعين .

وهذه الحال يمتنع اقترانها بالواو ، لأن شدة ارتباطها بصاحبها ولزومها له يجعلها مستغنية عن رابط يربطها به .

والحال المنقلة ، هي التي تبين هيئة صاحبها مدة مؤقتة ثم تفارقه أو هي التي يفارق الوصف بها صاحبها ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾^(١) فجملة الحال « تجري بأمره » وصف مفارق للريح فقد تسكن .

والأصل فيها أن تكون بغير واو أيضاً ، أوجه^(٢) .

الأول : أن الحال معربة بالأصالة لا بالتبعية ، والإعراب في الأسماء إنما جيء به للدلالة على المعاني الطارئة عليها بسبب تركيبها مع العوامل ، فهو دال على التعليق المعنوي بينها وبين عواملها ، فيكون مغنياً عن تكلف تعلق آخر كالواو ، واستدل البلاغيون على ذلك بالقياس على الخبر والنعت .

٢ - الثاني : ولأن الحال ، وإن كانت في اللفظ فضلة تأتي بعد تمام الجملة لكنها في المعنى حكم على صاحبها كالخبر بالنسبة إلى المبتدأ من حيث أنك تثبت بالحال المعنى لصاحب الحال ، كما تثبت بالخبر المعنى للمبتدأ ، فإنك في قولك : « جاءني زيد ركباً » تثبت الركوب لزيد كما في قولك : « زيد ركب » إلا أن الفرق بين التركيبين : أنك جئت به لتزيد معنى في إخبارك عنه بالمجيء ، ولم تقصد ابتداء : إثبات الركوب له ، بل اثبتته على سبيل التبع بخلاف الخبر فإنك تثبت به المعنى ابتداءً وقصدًا .

(١) سورة ص ، الآية ٣٦ .

(٢) راجع في هذا البحث الايضاح مع البغية ص ٩٥ - ١٠٧ وكذلك دلائل الإعجاز ص ١٣٨ - ١٤٩ طبعة رشيد رضا والمطول ص ٢٧١ - ٢٨٢ وشروح التلخيص ص ١١٦ - ١٥٩ .

٣ - الثالث : ولأن الحال في المعنى وصف لصاحبه كالتعت بالنسبة إلى المنعوت ، إلا أنك تقصد في الحال أن صاحبها كان على هذا الوصف حال مباشرة الفعل ، فهي قيد للفعل ، وبيان لكيفية وقوعه بخلاف النعت ، فإن المقصود بيان حصول هذا الوصف لذات المنعوت من غير نظر إلى كونه مباشراً للفعل أو غير مباشر ، ولهذا جاز أن يقع نحو الأسود والأبيض والطويل والقصير وما أشبه ذلك من الصفات التي لا انتقال فيها نعتاً لا حالاً . وبالجمله كما أن من حق الخبر والنعت أن يكونا بدون الواو فكذلك الحال .

وإذا ثبت أن الحال مثل الخبر والنعت ، وهما يكونان بغير الواو ، كان الأصل في الحال أن تكون بدون الواو أيضاً قياساً عليهما .

لكن خولف هذا الأصل إذا كانت الحال جملة ، فإنها من حيث هي جملة تراها مستقلة بالإفادة من غير أن تتوقف على التعليق بما قبلها ، وإن كانت من حيث هي حال غير مستقلة ، بل هي متوقفة على التعليق بكلام سابق عليها ، لما مر من أنك لا تقصد بالحال إثبات الحكم ابتداء ، بل تثبت أولاً - حكماً ، ثم توصل به الحال ، وتجعلها من صلته لتثبت على سبيل التبع له ، ومن ثم تحتاج الجملة الواقعة حالاً - بسبب كونها مستقلة من حيث هي جملة - إلى رابط يربطها بصاحبها الذي جعلت حالاً عنه ، وكل من الضمير والواو صالح للربط ، والأصل الضمير بدليل الاقتصار عليه في الحال المفردة والخبر والنعت ، ومعنى أن الضمير هو الأصل : أنه لا يعدل عنه إلى الواو - ما لم تمس حاجة إلى زيادة ارتباط ، وإلا - فالواو - أشد في الربط ، لأنها الموضوعه له ، والحال لكونها تجيء بعد تمام الكلام أحوج إلى الربط - بالواو - التي أصلها الجمع .

وإذا تأملنا الأساليب العربية نجد أن الجملتين الواقعة « حالاً » تكون جملة اسمية ، وجملة فعلية وشبه جملة ، وتتنوع بحسب الرابط إلى :

- ١ - ما يجب فيها الربط بالواو .
 - ٢ - ما يجب فيها الربط بالضمير .
 - ٣ - ما يستوي فيه الربط بإحدى الأداتين على السواء .
 - ٤ - ما يترجح الربط بإحدهما على الأخرى .
- واليك تفصيل هذا :

إذا كانت جملة اسمية فيها ضمير يعود على ذي الحال نحو : « جاءني زيد وهوراكب » ، « رأيت زيداً وهو جالس » ، و « دخلت عليه وهو يملي الحديث » ، و « انتهيت إلى الأمير وهو يعبىء الجيش » ، فيجب على الأديب أن يربطها - بالواو - فلو قلنا : « جاءني زيد هوراكب » ، ودخلت عليه هو يملي الحديث » ، لم يكن كلاماً .

وإذا فقد الضمير في جملة الحال تجب الواو للربط أيضاً ، وذلك مثل قول امرئ القيس :

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
فجملة : « والطير في وكناتها » جملة إسمية وقعت موقع الحال ، والرابط فيها - الواو - كما ترى ، هي خالية من الضمير الذي يعود إلى صاحبها .

أما إذا قلنا : « جاءني زيد وعمرو أمامه » ، و « أتاني وسيفه على كتفه » فجملة « وعمرو أمامه » وكذلك « وسيفه على كتفه » وقعت كل منهما حالاً ، والغالب أن تجيء مع الواو - كما ترى .

أما إذا كان الخبر في الجملة الإسمية جاراً ومجروراً وقدم على المبتدأ كقولنا : « عليه سيف ، وفي يده سوط » ، كثر فيها أن تجيء بغير واو ، فمما جاء منه كذلك قول بشار :

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي علي سواد

يعني على بقية من الليل - وجملة الحال : « على سواد » كما هو ظاهر .

وقول أمية بن أبي الصلت :

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعاً في رأس غمدان داراً منك محلاً

فأمية يمدح سيف بن ذي يزن ، وغمدان حصن بصنعاء عاصمة اليمن الشمالية ، وروضة محلال أي سهلة لينة .

وقول الآخر :

لقد صبرت بالذل أعواد منبر تقوم عليها في يديك قضيب

كل ذلك في موضع الحال وليس فيه - واو - كما ترى ، ولا هو محتمل لها إذا نظرت . وقد يجيء ترك الواو فيما ليس الخبر فيه كذلك ، ولكنه لا يكسر فمن ذلك قولهم : « كلمته فوه إلى في ، ورجع عوده على بدئه » في قول من رفع ، وإنما حسن بغير - واو - من أجل أن المعنى : « كلمته مشافهاً له » و« رجع ذاهباً في طريقه الذي جاء فيه » .

ومنه قول الآخر :

نصف النهار الماء غامره ورفيقه بالغيب لا يدري

نصف من باب « قتل » بلغ نصفه ، وهذا على رواية نصب النهار ، وعلى رواية رفعه فلا واو ولا ضمير ، فنقدر - الواو - والبيت في وصف غائص على الدر أخرج الجمانة التي نشبه بها المحبوبة ، وقد انتصف النهار وهو غائص وصاحبه لا يدري ما حاله ؟ .

ومما ظاهره أنه منه قول الأخطل يمدح بشر بن مروان من بني أمية :

إذا أتيت أبا مروان تسأله وجدته حاضراه الجود والكرم

فقوله : « حاضراه الجود والكرم » جملة من مبتدأ « الجود » والخبر

« حاضراه » كما ترى ، وليس فيها - واو - والموضع موضع حال ، ألا تراك

تقول « أتيت فوجدته جالساً » ، فيكون جالساً حالاً ، ذاك لأن « وجدت » في مثل هذا من الكلام لا تكون المتعدية إلى مفعولين ، ولكن المتعدية إلى مفعول واحد ، كقولك : « وجدت الضالة » ومما ساعد على الاستغناء عن - الواو - تقديم الخبر الذي هو : « حاضراً » وأنه لو قال : وجدته الجود والكرم حاضراً لم يحسن حسنه الآن ، وكان السبب في حسنه مع التقديم أنه يقرب في المعنى من قولك : « وجدته حاضرة الجود والكرم ، أو حاضراً عنده الجود والكرم .

ومن ذلك ما أنشده الشيخ أبو علي الفارسي في كتابه « الإغفال » .
ولولا جنان الليل ما أب عامر إلى جعفر سر باله لم يمزق
وجنان الليل ظلمته .

وأحياناً يتعين الربط بالضمير ، تأمل قوله تعالى : ﴿ فَبَآءَ مَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ ^(١) ، فجملة : « هم قائلون » في موضع الحال ، وهي معطوفة على « بياتاً » وهو مصدر منصوب على أنه حال - فإو - عطفت جملة حالية على حال ، والمعنى : جاءها عذابنا حال كونهم بائين أو قائلين نصف النهار .

و« قائلون » في الآية من القيلولة ، وهي نصف النهار ، فتمتنع - الواو - فلا يقال : « أوهم قائلون » كراهة اجتماع حرفي عطف في الصورة ، وإنما قيل في الصورة ، لأن - واو - الحال ليست عاطفة ، وإنما هي تشبه العاطف في الصورة ، فلما استقبح اجتماع حرفي عطف امتنع - واو - الحال .

وتمتنع الربط - بالواو - أيضاً إذا كانت جملة الحال مؤكدة لمضمون الجملة قبلها نحو قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ^(٢) ، فجملة :

(١) سورة الأعراف ، الآية ٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢ .

« لا ريب فيه » حال مؤكدة لمضمون الجملة قبلها ، وكما لا تدخل الواو في التوكيد نحو : « جاء زيد نفسه » ، لا تدخل هنا ، لأن المؤكد نفس المؤكد في المعنى ، فلو دخلت الواو لكان في صورة عطف الشيء على نفسه .

وترى الجملة قد جاءت حالاً بغير - واو - ويحسن ذلك ، ثم تنظر فترى ذلك إنما حسن من أجل حرف قد دخل عليها مثاله قول الفرزدق :

فقلت عسى أن تبصريني كأنما بني حوالي الأسود الحوارد

الحوارد جمع حارد وهو : المكتنز الخلق المهيب المنظر يرى لعزته كأنه غضبان ، وقوله : « كأنما بني حوالي الأسود الحوارد » في موضع الحال من مفعول تبصريني من غير شبهة ، ولو أنك تركت « كأن » فقلت : « عسى أن تبصريني بني حوالي كالأسود رأيت لا يحسن حسن دخول « كأنما » ، ورأيت الكلام يقتضي - الواو - كقولك : عسى أن تبصريني وبني حوالي كالأسود الحوارد .

وشبيه بهذا أنك ترى الجملة قد جاءت حالاً بعقب مفرد ، فلفظ مكانها ولو أنك أردت أن تجعلها حالاً من غير أن يتقدمها ذلك المفرد لم يحسن ، مثال ذلك قول ابن الرومي :

والله يبقيك لنا سالماً برداك تبجيل وتعظيم

فقوله : برداك تبجيل ، في موضع حال ثانية ، ولو أنك أسقطت « سالماً » من البيت فقلت : والله يبقيك برداك تبجيل ، لم يكن شيئاً .

وإذا كانت جملة الحال جملة فعلية مبدوءة بمضارع مثبت مسبوق « بقَد » كان الربط بالواو نحو قوله تعالى : ﴿ لِمَ تُؤْذِنُنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ ^(١) ، فجملة : « وقد تعلمون » في موضع الحال من - الواو - في

(١) سورة الصف ، الآية ٥ .

« تؤذونني » وهي جملة فعلية فعلها فعل مضارع مثبت مسبق « بقد » والرباط فيها الواو كما ترى .

أما إذا كان الحال جملة مبدوءة بمضارع منفي « بلا » فإن الربط يكون بالضمير كقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ (١) فجملة : « لا نؤمن بالله » في موضع الحال من الضمير المجرور باللام في « لنا » ولم تقترن - بالواو - ، لأن المضارع المنفي - بلا - بمنزلة اسم الفاعل المخفوض بإضافة غير ، وهو لا تدخل عليه - الواو - فكما لا يقال : « وما لنا وغير مؤمنين » ، كذلك لا يقال : « وما لنا ولا نؤمن بالله » .

فالربط هنا بين الحال وصاحبها - بالضمير - كما ترى .
لكن أحياناً نجد جملة المضارع المنفي بـ « لا » واقعة حالاً والرباط لها - الواو - وذلك كقولهم : « كنت ولا أخشى بالذنب » .

وقول مسكين الدارمي :
أكسبته الورق البيض أبا . ولقد كان ولا يدعى لأب
« كان » في المثالين تامة ، والجملة الداخل عليها - الواو - في موضع الحال ، ألا ترى أن المعنى : « وجدت غير خاش للذنب » ، « ولقد وجد غير مدعولأب » .

على أن مجيء المضارع منفياً حالاً من غير الواو كثير وحسن أيضاً فمن ذلك قول الشاعر :

مضوا لا يريدون الرواح وغالهم

من الدهر أسباب جرين على قدر

فقوله : « لا يريدون الرواح » في موضع حال .

(١) سورة المائدة ، الآية ٨٤ .

وقال آخر : وهو لطيف جداً :

إن تلقني لا ترى غيري بناظرة

تنس السلاح وتعرف جبهة الأسد

فقوله : « لا ترى » في موضع حال .

ومثله في اللطف والحسن قول أعشى همدان ، وصحب عباد بن ورقاء
إلى أصبهان فلم يحمده فقال :

أتينا أصبهان فهزلتنا وكنا قبل ذلك في نعيم
وكان سفاهة مني وجهلاً مسيري لا أسير إلى حميم

فقوله : « لا أسير إلى حميم » حال من ضمير المتكلم الذي هو الياء في
« مسيري » وهو فاعل في المعنى فكأنه قال : وكان سفاهة مني وجهلاً أن
سرت غير سائر إلى حميم ، وأن ذهبت غير متوجه إلى قريب . وقال خالد ابن
يزيد بن معاوية :

لو أن قوماً لارتفعا قبيلة دخلوا السماء دخلتها لا أحجب
وهو كثير إلا أنه لا يهتدي إلى وضعه بالموضع المرضي إلا من كان
صحيح الطبع .

وأما إذا كانت جملة المضارع منفية « بلم » فيجوز الربط بالضمير وحده أو
- بالواو - وحدها ، أو الجمع بينهما :

فالأول كقوله تعالى : ﴿ فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ
سُوءٌ ﴾^(١) فجملة : « لم يمسسهم سوء » في موضع الحال من المضمير في
« انقلبوا » وهي مرتبطة بالضمير فقط .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٧٤ .

ومنه قول زهير بن أسلمي :

كان فتاة العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم

فقوله : « لم يحطم » جملة مبدوءة بمضارع منفي « بلم » وهي في موضع الحال من « حب الفنا » وهي مرتبطة بالضمير فقط .

والثاني : كقول عنترة :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابن ضمضم

فجملة الحال « ولم تدر . . . » مرتبطة بصاحبها بالواو فقط .

والثالث : كقوله تعالى : ﴿ أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ (١) ، فجملة : « ولم يوح إليه شيء » في موضع الحال ، وهي مرتبطة - بالواو - والضمير معاً .

وكذلك الحال في المضارع المنفي بـ « لَمَّا » نحو : « أديت واجبي نحو الدين ولما أقصر ، فجملة الحال « ولما أقصر » مبدوءة بمضارع منفي بـ « لَمَّا » ، وهي مرتبطة بصاحبها بالواو والضمير .

وقد تتعين الواو إذا عدم الضمير نحو : قرب الامتحان ولما يذاكر المهمل ومثله : « حضر زيد ولم يقم عمرو » .

وإذا كانت جملة الحال مبدوءة بمضارع منفي بـ « ما » جاءت بغير الواو كقول الشاعر :

عهدتك ما تصبو وفيك شبيهة فما بالك بعد الشيب صباً متيماً

فقوله : « ما تصبو » فعل مضارع منفي في موضع الحال ، وقد جاء بغير الواو . وأحياناً نجد جملة المضارع المنفي بـ « ما » واقعه حالاً ومقترنة -

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٣ .

بالواو- وليس هذا بعزيز في الكلام : ألا تراك تقول : (جعلت أمشي وما أدري أين أضع رجلي) ، (جعل يقول وما يدري) وقال أبو الأسود :

يصيب وما يدري ويخطي وما درى

وكيف يكون النوك إلا كذلك

وقول مالك بن رفيع ، وكان جنى جناية ، فطلبه مصعب بن الزبير :
أتاني مصعب وينوأييه فباين أحيد عنهم لا أحيد
أقادوا من دمي وتوعدوني وكنت وما ينهنهني الوعيد
وكان في البيت الثاني تامة ، والجملة في موضع الحال ، والمعنى :
(ووجدت غير منهته بالوعيد وغير مبال به . وقد ورد فيها الواو كما ترى .

ومما يجيء - بالواو - وغير - الواو - الماضي ، وهو لا يقع حالاً إلا مع
« قد » مظهرة أو مقدرة .

أما مجيئها بالواو فالكثير الشائع كقولك : « أتاني وقد جهده السير » وأما
بغير - الواو - فكقوله :

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليل قد مزقت عنه السرايل

وقول الآخر :

فآبوا بالرماح مكسرات وأبنا بالسيوف قد انحنينا

وقال آخر ، وهو لطيف جداً .

يمشون قد كسروا الجفون إلى الوغى

متبسمين وفيهم إستشار

ومما يجيء - بالواو - في الأكثر الأشيع ، ثم يأتي في مواضع بغير - الواو -
فيلطف مكانه ، ويدل على البلاغة - الجملة قد دخلها « ليس » تقول : أتاني

وليس عليه ثوبه ، ورأيتـه وليس معه غيره ، فهذا هو المعروف المستعمل .
وقد يجيء بغير - الواو - فيكون من الحسن على ما ترى ، وذلك كما في
قول الأعرابي :

لنا فتى وحيداً الإفتاء تعرفه الأرسان والدلاء
إذا جرى في كفه الرشاء خلى القلب ليس فيه ماء
أما إذا كانت جملة الحال مبدوءة بمضارع مثبت مجرد من قد نحو :
« جاء زيد يضحك امتنعت الواو وعلّة إمتناعها أن المضارع يشبه إسم الفاعل
في الزنة والمعنى ، والواو لا تدخل اسم الفاعل فكذلك ما أشبهه .

وما ورد من ذلك وفيه الواو قول عنترة العبيسي :
علقتها عرضاً وأقتل قومها زعماً لعمر أبيك ليس بنزع

وموضع الشاهد فيه قوله : (وأقتل قومها) فهي جملة مبدوءة بمضارع
مثبت فقيل : إن دخول واو الحال ضرورة ، وقيل : إن الواو عاطفة ، وليست
- واو - الحال ، والمضارع مؤول بالماضي والتقدير : (وقتلت قومها) فعدل
عن لفظ الماضي إلى لفظ المضارع قصداً لحكاية الحال الماضية ، ومعناها
أن نفرض ما كان في الزمن الماضي ، واقعاً في هذا الزمان ، وقيل : هي
- واو - الحال والمضارع في موضع خبر مبتدأ محذوف ، أي : (وأنا أقتل
قومها) والجملة من المبتدأ والخبر هي الحال ، فتكون الحال جملة إسمية .

ومثل ما سبق قول بعضهم : (قمت وأصك عينه) وقول الشاعر :
فلما خشيت أظافيرهم نجوت وأرهنهم مالكا

فيقال في : (وأصك عينه ، وأرهنهم مالكا) ما قيل في جملة : (وأقتل
قومها) من التخريج على الضرورة ، أو على تأويله بالماضي ، وجعل - الواو -
عاطفة ، أو على تقدير : مبتدأ دخلت عليه - الواو - فتكون جملة الحال إسمية
وهكذا يقال في كل ما ورد على هذا النمط من الأساليب .

هذه أحوال الجملة الحالية والتي يجب على الأديب والمتلقي أن يكونا
على ذكر منها وذلك ليأتي الكلام مطابقاً لمقتضى الحال محققاً الغرض الذي
قيل من أجله .

الفصل الثامن

الإيجاز والإطناب والمساواة

الأديب أو البليغ وهو ينقل المعاني التي تجول بخاطره - إلى قرائه أو مستمعيه لا تخرج حاله عن ثلاث صور :

١ - أن يكون تعبيره مساوياً للمعنى الذي يريد أن ينقله إلى قرائه أو مستمعيه وهذا يسمى (بالمساواة) .

٢ - أن يكون أسلوبه الذي ينقل به ما في نفسه قليل اللفظ كثير المعنى وهذا يسمى (بالإيجاز) .

٣ - أن يزيد الأسلوب عن مقدار المعنى ، بشرط ألا يكون في هذه الزيادة عبث ، وهذا يسمى (بالإطناب) .

ولا يكون الكلام بليغاً في إحدى هذه الصور إلا إذا كان مطابقاً لمقتضى حال السامع أو القارئ أو المتلقي ، فخطاب الذكي يخالف الغبي ، وخطاب المنكر يخالف حال غير المنكر .

والبليغ هو الذي يعرف مقتضيات الأحوال ، ويقف على نفسيات قرائه ومستمعيه ، ويضع الكلام موضعه ، ويصيب به هدفه ، فيوجز في مقام الإيجاز ويطنب إذا استدعى المقام الإطناب وإليك تفصيل هذه الصور .

الإيجاز

الإيجاز في اللغة العربية أصل وروح وطبع ، لأنها لغة أمة صافية الذهن ، دقيقة الحس ، سريعة الفهم ، تشعر بقوة ، وتعبر بقوة ، وتفهم بقوة ، والبلاغة الإيجاز ، والإيجاز إمتلاء في اللفظ ، وقوة الحبك ، وشدة في التماسك^(١) .

وكان سيد البلغاء محمد بن عبد الله عليه السلام يكره أن يجاوز الكلام مقدار القصد به ، فقد تكلم رجل عنده فأطال ، فقال له : (كم دون لسانك من حجاب ؟ قال : شفتاي ، وأسناني ، فقال له الرسول : إن الله يكره الانبعاث^(٢) في الكلام ، فنضّر الله وجه رجل أوجز في كلامه واقتصر على حاجته) .

وقيل لإياس : (لا عيب فيك إلا أنك تطيل) ، قال : (أخيراً تسمعون أم شراً ؟ قالوا : خيراً . قال : فالزيادة في الخير خير) روى ذلك الجاحظ وعلّق عليه بقوله : (وليس الأمر كما قال إياس ، فإن للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن مقدار الاحتمال ، ودعا إلى الاستئصال والملال ، فذاك الفاضل الهذر ، وهو الخطل ، وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيونه^(٣)) .

والإيجاز معروف لدى العلماء والنقاد منذ بدء نشأة مسائل البلاغة العربية وتكوينها .

فقد أشار إلى موضعه كل من سيويه المتوفي سنة ١٨٠ هـ وأبي عبيدة معمر بن المثنى سنة ٢١٠ هـ والفراء سنة ٢٠٨ هـ .

(١) أنظر دفاع عن الهلافة العربية ص ١٠٥ للمرحوم أحمد حسن الزيات نشر عالم الكتب .

(٢) الانبعاث : الاندفاع .

(٣) البيان والتبيين ح ١ ص ٩٩ بتحقيق هارون .

حتى جاء الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥هـ وعرفه بقوله : لو أن قائلًا قال لبعضنا ما الإيجاز ؟ لظننت أنه يقول : الاختصار^(١) .

والإيجاز عنده ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ ، بل لا بد أن يكون مطابقاً لمقتضى الحال ، وأن يكون السامع على علم به .

ويقول : « ولإطالة موضع وليس ذلك بخطئ ، ولإقلال موضع وليس ذلك من عجز » ، ويقول : « ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب ، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف ، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً ، وزاد في الكلام »^(٢) .

على أن الجاحظ قد عرف الإيجاز بنوعيه : إيجاز الحذف ، وإيجاز القصر .

أما إيجاز الحذف فقد فتح له باباً في كتابه « البيان والتبيين » بعنوان « باب من الكلام المحذوف » وذكر له أمثلة كثيرة منها : « أن المهاجرين قالوا يا رسول الله : إن الأنصار قد فضلونا بأنهم آووا ونصروا ، وفعلوا وفعلوا ، قال النبي عليه السلام : أتعرفون ذلك لهم ؟ قالوا : نعم ، قال : « فإن ذاك » . ليس في الحديث غير هذا » يريد : أن ذاك شكر ومكافأة^(٣) .

وأما إيجاز القصر ، فقد تعرّض له من غير تسمية ، فقد علق على قول الإمام علي رضي الله عنه : « قيمة كل امرئ ما يحسن » بقوله : « فلو تقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية مجزئة مغنية ، بل لوجدناها فاضلة عن الكفاية ، وغير مقصرة عن الغاية ، وأحسن الكلام ما كان

(١) الحيوان للجاحظ ج ٣ بتحقيق هارون .

(٢) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٩٤ .

(٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٧٨ الطبعة الثانية .

قليله يغنيك عن كثيره^(١) .

وتحدث عن إيجاز القصر مرة أخرى في كتابه : « الحيوان » فقال : « وقد ذكرنا أبياتاً تضاف إلى الإيجاز وقلة الفضول ، ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن ، لتعرف بها فضل ما بين الإيجاز والحذف ، وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز ، والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبه لك في باب الإيجاز ، وترك الفضول . فمنها قوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة : ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾^(٢) ، وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا ، وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة : ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾^(٣) ، جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني ، وهذا كثير قد دللتك عليه ، فإن أردته فموضعه مشهور »^(٤) .

فإيجاز القصر عنده هو الجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة ، وهو أحسن الكلام وأبلغه والإيجاز بوجه عام البلاغة كلها^(٥) .
وكان ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ عرض للإيجاز بنوعيه : إيجاز الحذف وإيجاز القصر .

أما إيجاز القصر فقد تعرض له في صدر كتابه : « تأويل مشكل القرآن » من غير تسمية عندما وصف « النظم القرآني » بأنه جمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه - وسماه الاختصار - وذكر أمثلة من القرآن الكريم ومن كلام العرب^(٦) .

(١) البيان والتبيين ص ٨٣ ج ١ .

(٢) سورة الواقعة الآية ١٩ .

(٣) سورة الواقعة الآية ٣٣ .

(٤) الحيوان ج ٢ ص ٨٦ .

(٥) أنظر البيان والتبيين ج ١ ص ٩٦ .

(٦) أنظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٧ بتحقيق الأستاذ صقر .

أما إيجاز الحذف فقد فتح له باباً في كتابه السابق بعنوان « باب الحذف والاختصار » حشد فيه كثيراً من الأمثلة تناولت حذف الكلمتين والجملة وحذف الحرف والاسم والفعل ، هذه الأمثلة كانت المدد الذي لا ينضب لمن أتى بعده من البلاغيين والنقاد .

ويشترط ابن قتيبة والجاحظ وأبو عبيدة لإيجاز الحذف أن يكون معلوماً لدى السامع ، وألا يخل الحذف بالمعنى المراد ، وأن يكون في الكلام ما يدل عليه ويرى ابن قتيبة أن ظاهرة الحذف من مذاهب العرب في فن القول ومن مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز ، ومن مذاهبهم أيضاً التكرار : إرادة التوكيد والإفهام ، ولأن افتتان المتكلم والخطيب في الفنون ، وخروجه عن شيء إلى شيء أحسن من إقتصاده في المقام على فن واحد^(١) .

وفي القرن الرابع الهجري تناوله العالم الفذ علي بن عيسى الرماني المتوفى سنة ٣٨٦هـ في رسالته « النكت في إعجاز القرآن » وقسمه إلى قسمين : إيجاز حذف وإيجاز قصر وله هذه التسمية .

وقد قفز الرماني بدراسة الإيجاز ، إذ بين السر البلاغي له ، حتى جاء الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي تعمق في فهم أسرار الإيجاز بنوعيه ، وذلك في كتابه القيم « دلائل الإعجاز » .

ثم تناوله البلاغيون من بعده ، محافظين تارة ، ومقصرين تارة أخرى .

تعريف الإيجاز

قالوا في تعريفه : إنه عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة مع الإبانة والإفصاح ، ليسهل تعلقها بالذهن ، وتذكرها عند الحاجة إليها في المناسبات المختلفة ، وقالوا : إن الإيجاز نوعان ، إيجاز قصر ، وإيجاز حذف .

(١) المرجع السابق ص ٨٢ .

إيجاز القصر

ويأتي إذا تضمنت العبارة القليلة معاني كثيرة ، دون أن يكون في تركيبها لفظ محذوف ، كما في قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾^(١) فقد جمع في هذه الآية جميع مكارم الأخلاق ، لأن في العفو : الصفح عمن أساء . والرفق في كل الأمور والمسامحة .

وفي قوله : (وأمر بالعرف) صلة الأرحام ، وصون اللسان والعين عن كل محرم .

وفي قوله : (وأعرض عن الجاهلين) الصبر والاحتمال وكظم الغيظ ، فهذه الألفاظ القليلة قد أعطتنا معاني كثيرة كما ترى .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾^(٢) . ففي هذه الآية إيجاز قصر في كلمة « الأمن » يدخل تحتها كل أمر محبوب ، ويستفي بها كل أصناف المكارة من خوف أو فقر أو جور أو زوال نعمة .

وقوله تعالى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾^(٣) فيه إيجاز قصر ، فقد دل سبحانه بكلمتين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للناس من العشب والشجر والحطب واللباس والنار والماء .

ومن إيجاز القصر قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾^(٤) فهذه العبارة القصيرة ، قد أحاطت بجميع الأشياء والشئون على وجه الاستقصاء ، حتى لقد روى أن ابن عمر رضي الله عنه قرأها فقال : « من بقي له شيء فليطلبه » .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٨٢ .

(٣) سورة النازعات ، الآية ٣١ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية ٥٤ .

ومن المشهور في ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (١) ،
لأن معناه أنه إذا قتل القاتل امتنع غيره عن القتل ، فأوجب ذلك حياة الناس .
ويتضح لك الإعجاز البلاغي لهذه الآية ، إذا قارنتها بما كانوا يعدونه أوجز
كلام قيل في معناها ، وهو قولهم : « القتل أنفى للقتل » .

والآية الكريمة معجزة ببلاغتها ، ودقة نظمها ، وتفوق ذلك القول من
وجوه :

- ١ - فيما قالوه تكرر ، والنظم القرآني لا تكرر فيه .
- ٢ - أنه ليس كل قتل نافياً للقتل إلا إذا كان على حكم القصاص وهذا ما
تدل عليه الآية ، فإن في كل قصاص حياة .
- ٣ - في الآية الكريمة لون من البديع لطيف ، وهو الطباق بين القصاص
والحياة - وقولهم خال من هذا اللون .
- ٤ - جعلت الآية الكريمة القصاص كالأصل للحياة بإدخال « في » عليه ،
فكان أحد الضدين ، وهو - الفناء - محل للحياة وفي ذلك ما لا يخفى من
المبالغة الجميلة ، والتخييل العجيب إذ يكون الفناء محلاً للحياة .
- ٥ - في الآية الكريمة : « في القصاص حياة » هو الذي يناظر قولهم
« القتل أنفى للقتل » لأن قوله تعالى : « ولكم » لا مدخل له في المناظرة
لكونه زائداً على معنى قولهم : « القتل أنفى للقتل » ، وعلى ذلك تكون الآية
الكريمة تمتاز بقلّة الحروف - عن قولهم : « القتل أنفى للقتل » ، فحروف
« في القصاص حياة » أحد عشر حرفاً - إن اعتبر التنوين - وإلا فعشرة .
- وحروف « القتل أنفى للقتل » أربعة عشر حرفاً ، والمعتبر الحروف
الملفوظة لا المكتوبة ، لأن الإيجاز إنما يتعلق بالعبارة دون الكتابة .

(١) سورة البقرة الآية ١٧٩ .

٦ - في تنكير كلمة « حياة » ما يفيد التعظيم والتشويق ، أي : لكم في القصاص حياة عظيمة ، ونوع من الحياة الحاصلة للمقتول والقاتل ، وذلك بالارتداع عن القتل ، لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل ، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه - فارتدع ، سلم صاحبه من القتل ، وسلم هو من القود .

٧ - اطراده بخلاف قولهم ، فإن القتل الذي ينفي القتل هو ما كان على وجه القصاص لا غيره ، لأن الاقتصاص مطلقاً سبب للحياة بخلاف قولهم : فإن القتل الذي هو أنفى للقتل ما يكون على وجه القصاص لا مطلق القتل ، لأن القتل ظلماً ليس أنفى للقتل بل أدعى له .

٨ - سلامة الآية الكريمة من لفظ « القتل » المشعر بالوحشة وعكسه الحياة .

٩ - إبانة العدل بلفظ القصاص .

١٠ - ملأمة الحروف في الآية الكريمة . لأن الخروج من القاف إلى الصاد أعذب من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعده اللام من الهمزة ، والخروج من الصاد إلى الحاء أعذب من الخروج من اللام إلى الألف .

١١ - سلامة الآية الكريمة من تكرير قلقة القاف الموجب للضغط والشدة وبعدها عن غنة النون .

١٢ - إشتمال الآية الكريمة على تكرير الصاد المستجلب باستعلائها وأطباقها مع الصفير للفساحة .

ومن إيجاز القصر قول الرسول ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار في الإسلام » ومعناه : لا ينبغي لأحد أن يضر غيره ، ولا ينبغي لك أن تضر أحداً ، ولا ينبغي له أن يضرك .

ومن هذا قوله ﷺ : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وعودوا

كل جسم ما اعتاد ، فهذه الجمل الثلاث قد جمعت من المعاني الحكيمة .
والأسرار الطبية ما لا يحيط بوصفه إلا الله . ومنه قول الشاعر :

وإن هو لم يحمل عن النفس ضيمها
فليس إلى حسن الثناء سبيل

فالشاعر قد جمع في هذا البيت جميع مكارم الأخلاق من سماحة
وشجاعة وكرم ومروءة ونجدة وإغاثة ملهوف ، وغير ذلك ، فإن هذه الأخلاق
من ضيم النفس ، لأنها تجد بحملها مشقة وعناء .

إيجاز الحذف

قالوا في تعريفه : هو التعبير عن المعاني الكثيرة في عبارة أقل منها ،
بحذف شيء من تركيبها ، مع عدم الإخلال بتلك المعاني ، ويشترط فيه علم
السامع به . يقول فيه الإمام عبد القاهر الجرجاني : وهو فن عجيب الأمر ،
شبيه بالسحر ، وذاك أنك ترى الحذف أفصح من الذكر . والصمت عن
الإفادة أزيد للإفادة ، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأنتم ما تكون مبيناً
إذا لم تبين ^(١) .

والمجذوف للإيجاز : إما مفرد أو شبه جملة ، أو أكثر من جملة .

والمفرد : قد يكون حرفاً كقوله تعالى : ﴿ تَاللّٰهِ تَفْتَوًا تَذَكَّرُ يُوْسُفُ ﴾ ^(٢) ،
أي : لا تفتأ .

وقد يكون اسماً ، وهذا الاسم قد يكون مبتدأ مثل قول الشاعر :

قال لي : كيف أنت قلت : عليل

سهر دائم وحزن طويل

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٥ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٨٥ .

فالتقدير : قلت : « أنا عليل » فقد حذف « أنا » لدلالة الكلام عليه .
وقد يكون مفعولاً به ، كقول البخري يمدح أبا الصقر الشيباني ، ويذكر
صيانته له ، ودفعه نوائب الدهر عنه .
كم ذدت عني من تحامل حادث . وسورة أيام حزنن إلى العظم
السورة : الشدة والبطش .

فالشاعر قد حذف المفعول في جملة : « حزنن إلى العظم » ،
والأصل : حزنن اللحم إلى العظم ، وفي حذفه مزية عجيبة وفائدة جليلة ،
فلو كان الشاعر أظهر المفعول فقال : وسورة أيام حزنن اللحم إلى العظم ،
لجاز أن يقع في وهم السامع قبل أن يسمع قوله : « إلى العظم » أن هذا
الحزكان في بعض اللحم دون كله ، وأنه قطع ما يلي الجلد ، ولم يته إلى ما
يلي العظم ، فحذف الشاعر المفعول « اللحم » لينبه السامع من أول الأمر أن
الحزم مضى في اللحم حتى وصل إلى العظم ^(١) .

وقال البخري أيضاً يمدح المعتز بالله :
قد طلبنا فلم نجد لك في السؤدد والمجد والمكارم مثلاً
السؤدد : رفعة القدر . وكرم المنصب والسيادة ، والمعنى : قد طلبنا لك
مثلاً في السيادة والمجد فلم نجد لك مثلاً .

فقد حذف الشاعر لفظ « مثلاً » مفعول « طلبنا » لأنه ذكره في الفعل
الثاني « نجد » وفي حذفه مزية وروعة ، لأنه لو قال : « طلبنا لك في السؤدد
والمجد والمكارم مثلاً فلم تجده » لم تر من هذا الحسن الذي تراه شيئاً ،
وسبب ذلك أن الأصل في المدح نفي الوجود عن المثل صراحة ، أي أن
النفي يقع صراحة على لفظ المثل لا على ضميره .

(١) أنظر دلائل الإعجاز ص ١١٣ .

فلو قال : طلبنا لك في السؤدد والمجد والمكارم مثلاً ، فلم نجده لكان نفي وجود المثل وقع على ضميره لأعلى لفظه - وفي هذا المقام ، أي : المدح يكون التصريح أبلغ من الكناية^(١) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴿٢﴾ ، ففي النظم القرآني حذف مفعول في أربعة مواضع ، إذ المعنى : وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم ، وامرأتين تذودان غنمهما ، وقالتا لا نسقي غنمنا ، فسقى لهما غنمهما . وسر بلاغة الحذف مع ما فيه من إيجاز توفر العناية على إثبات الفعل لفاعله ، وهو أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقى ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى . فأما ما كان المسقى غنماً أم إبلاً أم غير ذلك فخرج عن الغرض وموهم خلافه ، وذلك أنه لو قيل : وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما جاز أن يكون موسى لم ينكر الذود من حيث هو ذود بل من حيث هو ذود غنم حتى لو كان مكان الغنم « إبل » لم ينكر الذود ، كما أنك إذا قلت : « ما لك تمنع أخاك » كنت منكراً بالمنع لا من حيث هو منع ، بل من حيث هو منع أخ ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت إلا لأن في حذفه وترك ذكره فائدة جليلة ، وأن الغرض لا يصح إلا بتركه^(٣) .

وقد يكون المحذوف مضافاً قد أقيم المضاف إليه مقامه ، نحو قوله

(١) أنظر المرجع السابق ص ١١١ .

(٢) سورة القصص الآية ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) أنظر دلائل الإعجاز ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾^(١) أي أهل القرية ، لأن القرية لا تسأل ، ولعلك تحس التخيل العجيب وجذب الانتباه ، وتحرك المشاعر والعقول .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمِي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(٢) فإصل العبارة : ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينطق بما لا يسمع ، ثم حذف المضاف وهو « داعي » رفعة لشأنه في اللفظ ، عن أن يقرن بهذا الذي ينطق بما لا يسمع .

وقد يكون المحذوف مضافاً إليه كقوله سبحانه : ﴿ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَبِمِنْ بَعْدُ ﴾^(٣) فقد حذف فيه المضاف إليه اكتفاء بالمضاف ، والتقدير من قبل ذلك ومن بعده .

وقد يكون المحذوف موصوفاً كقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرَفِ أَتْرَابٌ ﴾^(٤) ، أي : حور قاصرات الطرف .

وقد يكون المحذوف الصفة كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَبْأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾^(٥) ، فقد حذفت الصفة بعد سفينة ، إذ المراد بها السفينة الصالحة لدلالة الآية على هذه الصفة .

وقد يحذف القسم من الجملة كقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً ﴾^(٦) والمعنى : لئن لم ينته المنافقون عما هم عليه

(١) سورة يوسف ، الآية ٨٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٧١ .

(٣) سورة الروم آية ٤ .

(٤) سورة ص الآية ٥٢ .

(٥) سورة الكهف ، الآية ٧٩ .

(٦) سورة الأحزاب ، الآية ٦٠ .

من النفاق ، والذين في قلوبهم شك وريبة عما هم عليه من الاضطرابات ، والمرجعون في المدينة عما يصدر منهم من الإرجاف بذكر الأخبار الكاذبة المتضمنة الأباطيل لتوهين جانب المسلمين ، وظهور المشركين عليهم . والمعنى : أن المنافقين قد جمعوا بين النفاق ومرض القلوب والإرجاف على المسلمين ، وذلك بأن هؤلاء المرجفين كانوا يخبرون عن سرايا المسلمين بأنهم هزموا ، وتارة بأنهم قتلوا ، وتارة بأنهم غلبوا ، ونحو ذلك مما تنكسر له قلوب المسلمين من الأخبار ، فتوعدهم الله سبحانه بقوله : (لتغرينك بهم) أي لنسلطنك عليهم فتتأصلهم بالقتل والتشريد بأمرنا لك بذلك ، وجملة لتغرينك بهم جواب القسم ، والقسم محذوف كما ترى .

وقد يحذف جواب القسم ، وذلك في قوله تعالى : « وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِقَاتِ سَبَاحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبَاحًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ » ^(١) والقول الكريم حذف منه جواب القسم ، لدلالة القرينة عليه ، دون إخلال بالمعنى ، والمعنى : أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها ، وهي : الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم كما ينزع النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد ، وكذا المراد بالناشطات والسابحات ، والسابقات والمديرات : يعني الملائكة ، هذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وفي الآيات تفسيرات غير ذلك ، والجواب المحذوف تقديره : « لتبعن » وحذف لمعرفة السامعين به .

وتقول الآية الكريمة : « وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » ^(٢) والمعنى : ساقى الملائكة المتقين ربهم سوق إعزاز وتشريف

(١) سورة النازعات ، الآيات ١ - ٧ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٧٣ .

وتكریم - إلى الجنة حتى إذا جاءوها وجواب « إذا » محذوف تقديره سعدوا .
« وفتحت » الواو هنا دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم
على الله .

وسر بلاغة حذف الجواب هنا : الدلالة على أنه شيء لا يحيط به
الوصف أو لتذهب فيه النفس كل مذهب ، ولو عين شيء لاقتصر عليه .

ومنه قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ
رَبِّهِمْ ﴾^(١) ، وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾^(٢) ، وقوله
تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ النَّارِ ﴾^(٣) ، جواب « لو » في الآيات
الثلاث محذوف تقديره : لرأيت أمراً عظيماً أو فظيماً ، فحذف من النظم
الكریم قصداً للتحويل والتفطيع .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ
أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾^(٤) ، وبلاغة حذف جواب « لو » هنا أنه يشير إلى وضوحه
وظهوره ، فلو أن قرآناً أوتي تلك القوة الخارقة ، لكان هذا القرآن جديراً أن
تكون له هذه القوة .

ومن حذف جواب « إذا » قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ
أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا
كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿^(٥) ففي الآية الكريمة حذف جواب « إذا » وكأنه قيل
لهم : اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . أعرضوا .

(١) سورة السجدة ، الآية ١٢ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٣٠ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٢٧ .

(٤) سورة الرعد ، الآية ٣١ .

(٥) سورة يس الآية ٤٥ ، ٤٦ .

وسر بلاغة الحذف في الآية : الإشارة إلى أنه معروف وواضح عند المخاطبين ، لا يكاد يحتاج إلى أن يذكر - وفي الآية الثانية دليل عليه ، وبيان أن هذا الإعراض سجية لهم ، فلا تكاد الآية تأتي إليهم حتى يعرضوا عنها .

ومن حذف جواب . « لما » قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ ونَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) ، والمعنى : فلما انقأ الخليل وولده لأمر الله وطرح الوالد ولده على الأرض كما تطرح الذبيحة . ووضع السكين على عنقه تجلى للملأ الأعلى صدق عزمته ، فأنعمنا عليه بالخلعة حتى لقب بخليل الرحمن ، وناديناه على لسان ملك قائلين له : يا إبراهيم قد وفيت الرؤيا حقها ، وبذلت جهدك في تحقيقها فجازيناك أحسن الجزاء ، لأن من شأننا أن نجزي كل محسن مثل ما جازيناك . وجواب « لما » محذوف ، وتقديره : ظهر صبرهما أو أجزلنا لهما أجرهما ، أوفدناهما بكبش هذا رأي البصريين ، وللكوفيين رأي آخر لم يسلم من الاعتراض (٢) وسر بلاغة حذفه لتذهب فيه النفس كل مذهب .

وقد يكون المحذوف جملة كما في قوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣) ، فالآية الكريمة تصور لنا مشهداً من قصة إبراهيم عليه السلام ، وهو يني الكعبة مع ابنه إسماعيل ، وكأنما نحن نشهدهما بينان ويدعوان الآن ، لا قبل اليوم بأجيال وأزمان .

نجد في الآية الكريمة حركة عجيبة في الانتقال من الخبر إلى الدعاء ، هي التي أحيت المشهد ، وردته حاضراً ، فالخبر : « وإذ يرفع إبراهيم

(١) سورة الصافات ، الآية ١٠٣ - ١٠٥ .

(٢) أنظر فتح القدير ج ٤ ص ٤٠ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٢٧ .

القواعد من البيت وإسماعيل... ، والدعاء : « ربنا تقبل منا.. » ، وكم في الانتقال هنا من الخبر إلى الدعاء من إعجاز فني بارز ، يزيد وضوحاً لو فرضت استمرار الحكاية . ورأيت كم كانت الصورة تنقص . لو قيل : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وهما يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » إنها في هذه الصورة حكاية ، وفي الصورة القرآنية حياة ، وسر الحركة والبلاغة الفائقة كله في حذف جملة : « وهما يقولان » وذلك هو الإعجاز (١) .

ومثله قوله تعالى : ﴿ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُتِّبِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ والمعنى كما قال العلماء : فعل ما فعل ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل :

فإحقاق الحق وإبطال الباطل سبب فيما حذف ، وهذا المحذوف مسبب عما ذكر - ومن بلاغته مع ما فيه من الإيجاز هو : أن تذهب النفس في هذا الفعل كل مذهب ، أو أنه فعل لا يسعه التعبير .

وقد يكون المحذوف جملاً كثيرة كقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلُونِ * يُوسُفَ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ (٢) ، والتقدير : فأرسلون إلى يوسف لاستعبيره الرؤيا فأرسلوه فأثاه ، وقال له : يوسف أيها الصديق .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْرنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ (٣) ، المحذوف ثلاث جمل ، تقديرها : فأتياهن ، فأبلغاهن الرسالة فكذبوهما فدمرناهن .

(١) أنظر التصوير الفني في القرآن ٤٩ ، ٥٠ للمرحوم سيد قطب .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية ٣٦ .

الحذف نوعان

والحذف على وجهين : الأول : ألا يقام شيء مقام المحذوف أي في مكانه ، بل يكتفي بالقرينة التي تشير إليه كما في قوله تعالى : ﴿وَاللَّائِي يَشْنَنُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعَدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾^(١) والقرينة اللفظية هي جملة : « فعدتهن ثلاثة أشهر » تشير إلى أن المحذوف بعد « واللائي لم يحضن » فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً - فالصمت عن الخبر ، وعطف اللائي لم يحضن على اللائي لم يحضن على اللائي يشن ، مؤذن باتحادهما في الخبر .

الثاني : أن يقام مقام المحذوف ما يدل عليه في مكانه ، وذلك كقوله سبحانه : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾^(٢) والمعنى : أراد الله سبحانه أن يسلي نبيه حتى لا يجزع لتكذيبهم فقال عز وجل : فإن كذبوك بعد أن جئتهم بالمعجزة الخالدة ، وهي القرآن الكريم الذي لو اجتمع الإنس والجن لما استطاعوا أن يأتوا بسورة منه ، فلا تحزن ، لأنه قد كذب رسل من قبلك جاءوا لأمرهم بالمعجزات الواضحات ، والمواعظ المؤثرات والكتب المنيرة بطريق النجاة .

فجملة « فقد كذبت... » ليست هي جواب الشرط ، وإنما هي علة لجواب الشرط المحذوف ، وتقديره « وإن يكذبوك فلا تحزن فقد كذبت رسل من قبلك » .

(١) سورة الطلاق الآية ٤ .

(٢) سورة فاطر ، الآية ٤ .

(٣)

أدلة الحذف

والحذف لا بد له من دليل يدل على المحذوف والأدلة الكثيرة منها العقل وحده نحو : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾^(١) والمعنى : جاء أمر الله ، لأن العقل لا يجيز مجيء الرب ، وإنما يأتي أمره ، فقد دل العقل على تعيين الحذف والمحذوف .

ومنها : أن يدل العمل على الحذف ، والعادة على التعيين ، نحو قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز : ﴿ فَلْيَكُنْ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ ﴾^(٢) ، فإن العقل دل على أن فيه حذفاً ، إذ لا معنى للوم الإنسان على ذات الشخص إذ لا يلام الشخص إلا على فعل من أفعاله ، ودلت العادة على أن المحذوف المرادة دون الحب ، لأنه أمر اضطراري لا يلام عليه صاحبة بخلاف المرادة فمن الممكن ومنها أن يدل العقل على الحذف ، ويدل الشروع في الفعل على تعيين المحذوف نحو « بسم الله » فيقدر ما جعلت التسمية مبدأ له ، ففي القراءة يقدر : بسم الله أقرأ وعلى هذا القياس .

ومنها : أن يدل العقل على الحذف ومقارنة الكلام للفعل على تعيين المحذوف كما تقول لمن تزوج : « بالرفاء والبنين » ، فإن مقارنة هذا الكلام لإعراس المخاطب دل على تعيين المحذوف ، أي : أعزست ، أو مقارنة المخاطب بالإعراس وتلبسه به دل على ذلك ، والرخاء : الالتئام والانفاق ، والباء للملابسة إلى غير ذلك من الأدلة التي لا يصعب عليك معرفتها .

الإطناب

لعل أول من أشار إلى موطنه من غير تسمية ، وبين بعض أغراضه هو :

(١) سورة الفجر ، الآية ٢٢ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٣٢ .

أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفي سنة ٢١٠ هـ في كتابه : « مجاز القرآن » ،
إذ يقول : ومن مجاز المكرر للتوكيد قال : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ يَا أَبَتِ إِنِّي
رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾^(١) ، أعاد
الرؤية ، وقال : ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴾^(٢) أعاد اللفظ^(٣) .

ثم جاء أدبينا الجاحظ وأطال عنه الحديث محدداً له الحال والمقام الذي
يستدعيه ، يقول : « وجملة القول في الترداد أنه ليس فيه حد ينتهي إليه ، ولا
يؤتى على وصفه ، وإنما ذلك على قدر المستمعين ، ومن يحضره من العوام
والخواص ، وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود ، وهارون
وشعيب وإبراهيم ولوط ، وعاد وثمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار ، وأمور
كثيرة ، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم ، وأكثرهم غبي
غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب »^(٤) .

ويقول : « وقد بقيت أبقاك الله » - أبواب توجب الإطالة ، وتحوج إلى
الإطناب ، وليس بإطالة ما لم يجاوز مقدار الحاجة ، ووقف عند منتهى
البغية .

وكان ابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هـ ، ونال أسلوب الإطناب على يديه
تقدماً إذ عقد له باباً في كتابه : « تأويل مشكل القرآن » تحت عنوان « باب
تكرار الكلام والزيادة فيه »^(٥) ، ويرى أن مذاهب العرب في فن القول -
التكرار إرادة التوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار وقد حدد ابن
قتيبة للإطناب المقام والغرض الذي يستدعيه ، وهو عنده - بعد وقوعه في

(١) سورة يوسف ، الآية ٤ .

(٢) سورة القيامة الآية ٣٤ .

(٣) مجاز القرآن ح ١ ص ١ .

(٤) البيان والتبيين ح ١ ص ١٠٥ .

(٥) تأويل مشكل القرآن ص ١٨٢ .

موقعه - التعبير عن المعنى بعبارة زائدة بحيث تحقق الزيادة فائدة ، فإن كانت الزيادة في اللفظ لغير فائدة ، فقد خرج الأسلوب عن مراتب البلاغة ، ولم يكن إطناباً ، بل كان الزائد تطويلاً أو حشواً وكلاهما عيب في الكلام .

والحق أن ابن قتيبة قد أبلى بلاء حسناً في معالجته لأسلوب الإطناب ، إذ ذكر له كثيراً من الأمثلة ، ووضح بعض الأغراض التي كانت عوناً ، وزاداً لا ينضب لمن أتى بعده من البلاغيين والنقاد .

ثم تناوله جميع البلاغيين تقريباً بعد ابن قتيبة ، ونوعوه إلى أنواع وحددوا كل نوع تحديداً دقيقاً .

تعريف الإطناب

وقد قالوا في تعريفه : هو عرض المعنى في عبارة زائدة بحيث تحقق الزيادة فائدة ، ومثلوا له بقول الله عز وجل على لسان زكريا عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾^(١) فزكريا يريد أن يقول : « ربي إني قد كبرت » فانت تلاحظ أن الألفاظ قد زادت عن المعاني ، ولكن هذه الزيادة لفائدة وهذه الفائدة ، لإظهار الضعف وتأكيده ، لأن كبرت إنما تدل على تقدم السن فقط ، وقد يكون زكريا مع تقدم سنه قوياً ، وهو يريد أن ينص على أنه ضعيف الجسم زيادة على كبر سنه ، وليس أدل على غرضه هذا من ضعف العظم وانتشار الشيب .

أما إذا كانت الزيادة في الكلام لغير فائدة ، فإن كانت بذكر شيء لا يمكن زيادته كالمترادفين في مثل : كذب ومين ، وحظ ونصيب ، وأقوى وأقفر ، كان الزائد تطويلاً .

(١) سورة مريم الآية ٤ .

ومنه قول عنترة :

حييت من طلال تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم
فقد عاب النقاد عليه ذكر كليتين بمعنى واحد ، وهما : « أقوى »
و« أقفر » إذ المعنى لكل منهما « خلا » وإحدى الكلمتين زائدة ، فلا يتغير
المعنى بإسقاط أيهما شئت ، وكقول عدي بن الرقاع :
وألفى قولها كذباً وميناً

فالكذب والمين بمعنى واحد ، ولا يتغير المعنى بإسقاط أحدهما .
وكقول الحطيئة :

قالت أمامة لا تجزع فقلت لها إن العزاء وإن الصبر قد غلبا
هلا التمسنا لنا إن كنت صادقة مالأ نعيش به في الناس أو نشبا
فالعزاء والصبر بمعنى واحد ، وكذلك المال والنشب .

أما إذا كانت الزيادة لغير فائدة ، وكانت متعينة ولا يفسد بها المعنى ،
سميت حشواً كقول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمى
فكلمة « قبله » حشو لأن الأمس لا يكون إلا قبلاً وهي متعينة .

ومنه قول الهذلي :

ذكرت أخي فعادوني صداع الرأس والوطبا

فذكر « الرأس » حشو ، لأن الصداع لا يكون إلا في الرأس .

ومن الحشوما هو مفسد للمعنى كلفظ « الندى » في قول المتنبي :
ولا فضل فيها للشجاعة والندى^(١) وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

(١) الندى : الكرم .

فإن لفظ « الندى » في البيت حشو يفسد المعنى ، لأن المعنى ، ولا فضل في الدنيا للشجاعة والصبر والندى لولا الموت .

وهذا حكم صحيح بالنسبة للشجاعة والصبر ، لأنهما إنما يكونان من الفضائل فيهما من الإقدام على الموت ، لأن الشجاع إذا علم أنه خالد ولا يصيبه الموت فيكون إقدامه وشجاعته لا فضل فيهما ، لأنه أقبل على البطولة وهو عالم بأن الموت لا يصيبه ، وكذلك الصابر إذا علم أنه خالد فيكون صبره لا فضل فيه ، لأنه يعتقد أنه لا يصيبه الموت ، أما الشجاع والصابر إذا علما أن الموت أمامهما وأقدا عليهما ، فيكون الصبر والشجاعة حينئذ من الفضائل .

أما الندى أي : الكرم لا يكون فضيلة إلا إذا اعتقد صاحبه بأنه خالد في الدنيا ، فإن فضل جوده وكرمه يظهر . وذلك لأن الخلود يوجب الحاجة إلى المال ، ويدعو إلى الحرص عليه ، فإذا بذله مع تلك الحال ، فإنما يقاوم في نفسه الشعور بهذه الحاجة ، ويتغلب على نزعة الحرص على المال بخلاف ما إذا علم أنه سيموت ، وأنه سترك المال لغيره هان عليه بذله وعطاؤه وحينئذ لا يكون له فضل أكبر في البذل والعطاء .

فواضح أن وضع كلمة « الندى » بجوار الشجاعة والصبر - حشو يفسد المعنى كما رأيت .

والحكم بزيادة كلمة من الكلمات ، وخلوها عن الفائدة مرتبط بالمقام والحال التي قيلت في جوه الكلمة .

فمثلاً قولنا : « رأيته بعيني » ، و « قبضته بيدي » ، و « وطأته بقدمي » ، و « ذقته بفمي » كل هذا قد يقال فيه : إن فيه زيادة لا حاجة إليها ، لأن الرؤية لا تكون إلا بالعين ، والقبض لا يكون إلا باليد ، والوطء لا يكون إلا بالقدم والذوق لا يكون إلا بالفم ، وليس الأمر كذلك ، لأن هذه الجمل إنما تقال في كل شيء يعظم مثاله ، ويعز الوصول إليه فيؤتى بذكر هذه الأدوات على

جهة الإطّباب دلالة على نيله ، وأن حصوله غير متعذر .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ^(١) معلوم أن القول لا يكون إلا عن طريق الفم ، ومن هنا قد يظن بادئ ذي بدء أن كلمة « بأفواهكم » مزيدة بدون فائدة ولكن حينما تعلم أن الآية الكريمة نزلت للمرد والإنكار على أهل الإفك في الرمي بفاحشة الزنا لمن هي ظاهرة العفاف والستر ، وكان هذا القول فيه افتراء وإثم عظيم ، سجل الله على قائله هذا التسجيل مبالغة في الإنكار .

وعليه قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ ^(٢) ، فانت ترى أن مساق الكلام أن الإنسان يقول لزوجته : « أنت علي كظهر أمي » ، ويقول لمملوكه « يا بني » ، فضرب الله مثلاً ، فقال . كيف تكون الزوجة أمّاً ؟ وكيف يكون المملوك ابناً ؟ والجمع بين الزوجية والأمومة ، وبين العبودية والبسوة في حالة واحدة كالجمع بين القلبين في الجوف ، وهذا تعظيم لما قالوه ، وإنكار له ، وكان في ذكر الجوف فائدة عظيمة ، لأن الكلام في حال الإنكار والتعظيم ، ففيه زيادة تصوير للمعنى المقصود ، لأنه إذا سمعه المخاطب به ، صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين فكان ذلك أسرع إلى إنكاره ^(٣) .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ فَخَسِرَ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ ^(٤) فلإن

(١) سورة النور ، الآية ١٥ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٤ .

(٣) أنظر الطراز ح ٢ ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٤) سورة النحل الآية ٢٦ .

المعلوم من حال السقف ، أنه لا يكون إلا من فوق - وأنت تجد أن الآية الكريمة ذكرت « من فوقهم » .

ومن ثم قد يظن أنها زائدة ، ولكن إذا علم أن الغرض المبالغة في الترهيب والتخويف والإنكار والرد زال هذا الظن ، وتحقق لنا أنها واقعة في موقعها . وأن لها فائدة لا توجد مع إسقاطها من هذا الكلام ، وأنت تحس هذا من نفسك ، فإنك إذا تلوت هذه الآية يخيّل إليك أن صفقاً خر على أولئك من فوقهم ، وحصل في نفسك من الرعب ما لا يحصل مع إسقاط تلك اللفظة^(١) .

طرق الأطناب وأغراضه

للأطناب طرق وأغراض بلاغية كثيرة ومن أهمها ما يلي :

١ - ذكر الخاص بعد العام وهو : أن يذكر الخاص أولاً داخلاً في عموم جنسه ، ثم يذكر ثانياً وحده تعظيماً له وتنويعاً بشأنه .

قال تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾^(٢) ، الروح : جبريل عليه السلام ، فانت ترى أن الآية قد ذكرت الملائكة ، ثم خصت الروح بالذكر وهو جبريل مع أنه داخل في عموم الملائكة تكريماً له ، وتعظيماً لشأنه كأنه جنس آخر ، ففي الآية اطناب طريقه ذكر الخاص بعد العام فجبريل ذكر مرة مع عموم الملائكة ثم ذكر مرة ثانية وحده ، وغرض الإطناب هنا التنويه بشأن الخاص .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾^(٣)

(١) أنظر المثل السائر ص ٣٦٠ ، ٣٦١ القسم الثاني تحقيق الحوفي ويدوي .

(٢) سورة القدر ، الآية ٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٨ .

فالصلاة الوسطى « العصر » داخلة في عموم الصلوات ، وخصها بالذكر لزيادة فضلها ، والتنبيه على مزيته .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ^(١) فالأمر بالمعروف داخل في عموم الدعوة إلى الخير ، ولكنه خص بالذكر للإشارة إلى مكانه من الشرف والفضل .

٢ - ذكر العام بعد الخاص : لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص كما في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ^(٢) فقد ذكر الله سبحانه المؤمنين والمؤمنات ، وهما لفظان عامان ، يدخل فيهما من ذكر قبل ذلك . لإفادة العموم ، مع العناية بالخاص لذكره مرتين : مرة بلفظه ، ومرة مندرجاً تحت العام .

٣ - التكرير : ويأتي لتقرير المعنى في النفس ، كما في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) ، فقد أكد الإنذار بتكريره ليكون أبلغ تأثيراً ، وأشد تخويفاً .

وقد يكون لاستمالة المخاطب به وترغيبه في قبول النصيحة والإرشاد ، كقوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هِيَ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ ^(٤) ففي تكرير « يا قوم » استمالة لأنفسهم وقلوبهم حتى لا يشكوا ولا يرتابوا في إخلاصه لهم في نصحه .

وقد تكررت في بعض سور القرآن آيات للمبالغة في التحذير ، كما في

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

(٢) سورة نوح الآية ٢٨ .

(٣) سورة التكاثر الآية ٣ ، ٤ .

(٤) سورة غافر ، الآية ٣٨ ، ٣٩ .

سورة « المرسلات » مثل : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وفي سورة القمر : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾

أو للتذكير بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى ، كما في سورة : « الرحمن » مثل : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

٤ - الإيضاح بعد الإبهام : وهو أن يذكر المعنى مجملاً ، ثم مفصلاً ، فيزيده ذلك رونقاً وبهاءً كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ؟ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ (١) فقد أبهم التجارة إبهاماً يدعو إلى الشوق إلى معرفتها ، ثم فسرها بقوله : « تؤمنون » .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ دَاوِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٍ مُصْبِحِينَ ﴾ (٢) فانت ترى أن الآية أبهمت في كلمة « الأمر » . لجذب الذهن إلى معرفة ذلك الأمر ، ثم وضحته بعد ذلك بقوله : « إن داوِر هؤلاء مقطوع مصبحين » تهويلاً لأمر العذاب ، وتقريراً للمعنى في ذهن السامع بذكره مرتين : مرة على طريق الإجمال والإبهام ، ومرة على طريق الإيضاح والتفصيل ، والشيء إذا ذكر مرتين على النحو السابق كان أكد في الذهن وأشد التصاقاً في النفس .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدُّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴾ (٣) ففي الآية إطناب بالإيضاح بعد الإبهام ، فقد ذكر الأنعام مجملة في قوله تعالى : « بما تعلمون » . ثم ذكرها مفصلة في قوله : « بأنعام وبين » ، وذلك تشويقاً إلى معرفتها ، وتنبيهاً إلى شرفها ونبيلها .

(١) سورة الصف ، الآية ١٠ ، ١١ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٦٦ .

(٣) سورة الشعراء ، ١٣٢ ، ١٣٣ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى ﴾ (١) فقوله سبحانه : « فوسوس إليه الشيطان » كلام مجمل فصل وبين ووضح بما جاء بعده .

ومن الإيضاح بعد الإبهام ، التوشيع : وهو في اللغة : لف القطن المندوف ، وفي الاصطلاح : أن يؤتى في عجز الكلام غالباً بمثنى مفسر باسمين . ثانيهما معطوف على الأول ، نحو قوله ﷺ : « يشب ابن آدم وتشب معه خصلتان : الحرص وطول الأمل » ، وقوله ﷺ : الخمر من هاتين الشجرتين : النخلة والعنب .

ومنه قول الشاعر :

أمسي وأصبح من تذكركم	يرثي لي المشفقان الأهل والولد
قد خدد الدمع خدي من تذكركم	واعتادني المضيئان الوجد والكمد
وغاب عن مقلتي نسومي لغيتكم	وخاتني المسعدان : الصبر والجلد
لا غرو للدمع أن تجري غوار به	وتحتنه المضربان : القلب والكبد
كأنما مهجتي شلو بمسبعة	يتتابها الضاريان : الذئب والأسد
لم يبق غير خفي الروح في جسدي	فدى لك الباقيات : الروح والجسد

فهذه الأبيات كل منها احتوى على إطناب بطريق التوشيع أو إذا شئت قلت بطريق الإيضاح بعد الإبهام .

ويقول ابن أبي الإصبع العلواني المصري : إن هذه الأبيات جيدة لو لم يقع في البيت الأول منها تقصير : عما يجب في مثله على الطريقة المحمودة من طرائق النسب حيث قال : « يرثي لي المشفقان » ، فإنه ليس من الكلام البليغ قول من يشكو محنة : « قد رثي لي المشفق منها » وأبلغ منه قول من

(١) سورة طه ، الآية ١٢٠ .

يقول : رثى لي العدو ، ورق لي الصخر وأشبه ذلك ^(١) .

٥ - التذييل : ويكون بتعقيب جملة بجملة أخرى مشتملة على معناها لتأكيد منطوق الأولى أو مفهومها ، وجملة التذييل على نوعين :

نوع لا يزيد على المعنى الأول ، وإنما يؤتى به للتوكيد والتحقيق ، وقسم يخرج المتكلم مخرج المثل السائر ليحقق به ما قبله :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ففي الآية الكريمة تذييلان : أحدهما قوله تعالى : « وعداً عليه حقاً » فإن الكلام قد تم قبل ذلك ، ثم أتى سبحانه بتلك الجملة لتحقيق ما قبلها .

والآخر قوله سبحانه : « ومن أوفى بعهده من الله » فخرج هذا الكلام مخرج المثل السائر لتحقيق ما تقدمه ، تذييل ثان للتذييل الأول .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ^(٣) ففي الآية : إطناب طريقه التذييل ، لأن جملة « إن الباطل كان زهوقاً » مؤكدة لمنطوق الجملة الأولى « زهق الباطل » وفائدته التسجيل على الباطل بأن الحق سينتصر عليه مهما طال الأمد ، وجملة : « إن الباطل كان زهوقاً » جارية على الألسن ، ومستقلة بمعناها عن الجملة الأولى : « زهق الباطل » ، ومن هنا يقولون إن التذييل جار مجرى المثل .

وعليه قول الحطيثة :

(١) أنظر تحرير التخيير لابن أبي الإصبع ص ٣١٥ - ٣١٨ بتحقيق شرف .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١١١ .

(٣) سورة الأسراء الآية ٨١ .

تزور فتى يعطي على الحمد ماله ومن يعط أثمان المحامد يحمد
ففي البيت تذييل جار مجرى المثل ، إذ أن جملة : « ومن يعط أثمان
المحامد يحمد » تؤكد لمنطوق الشطر الأول ، ومستقل بمعناه وجار على
الأسنة .

وفيه تعطف حسن في قوله : « يعطي ويعط » .

ومثله قول النابغة الذبياني :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب
فقوله : « أي الرجال المهذب » من أحسن تذييل وقع في شعر ، وجار
مجرى المثل .

ومثله قول الشاعر :

ودعوا نزال فكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل ؟
ففي البيت إطناب طريقه التذييل ، وهو جملة : « وعلام أركبه إذا لم
أنزل » وهو تذييل حسن خرج مخرج المثل .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ ذَلِكْ جَزِينَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا
الْكَفُورَ ﴾ ^(١) فقوله : « وهل نجازي إلا الكفور » تذييل لا يجري مجرى
المثل ، لأن معناه لا يفهم إلا بما قبله .

وعليه قول الشاعر :

لم يبق جودك لي شيئاً أو مله تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل
ففي البيت إطناب طريقة التذييل ، وهو جملة : « تركتني أصحاب الدنيا
بلا أمل » .

(١) سورة سبا الآية ١٧ .

٦ - الاعتراض : وهو أن يؤتى في الكلام ، أو بين كلامين متصلين في المعنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لفائدة زائدة كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقَسِّمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ (١) ففي قوله : « وإنه لقسم - لو تعلمون - عظيم » اعتراضان : أحدهما : « وإنه لقسم عظيم » والآخر : « لو تعلمون » ، أريد بهما تعظيم القسم وتفخيم أمره ، وفي ذلك تعظيم للمقسم عليه ، وهو : « القرآن الكريم » وتنويه برفعة شأنه ، وذلك يكون أوقع في النفوس ، وأدخل في البلاغة .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (٢) ، فقوله : « سبحانه » كلمة تنزيه أوردتها اعتراضاً بين الجملتين مبالغة في التنزيه عما نسبوه إلى الله سبحانه من اتخاذ البنات ، ومبالغة في الإنكار عليهم في هذه المقالة .

فانظر إلى ما اشتملت عليه هذه اللفظة ، وهي قوله : « سبحانه » من حسن الموقع بكونها واردة على جهة الاعتراض ، وما تضمنته من القوائد الشريفة والأسرار الجليلة ، من الإنكار والرد والتهكم ، وإظهار التعجب من حالهم وغير ذلك من اللطائف (٣) ، وهو إطناب طريقه الاعتراض .

وعليه قوله تعالى : (قالوا تالله - لقد علمتم - ما جئنا لنفسد في الأرض) ففي القول الكريم إطناب طريقه الاعتراض بجملة : « لقد علمتم » فقد وردت بين القسم « تالله » وجوابه . « ما جئنا لنفسد في الأرض » وفائدته تقرير علمهم بالبراءة عن الفساد ، والبعد عن تهمة السرقة .

(١) سورة الواقعة الآية ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) سورة النحل الآية ٥٧ .

(٣) الطراز ص ١٧٠ ح ٢ .

ومن ذلك قول كثير عزة :

لو ان الساخلين وأنت منهم رأوك لعلموا الناس المطالا

ففي البيت إطناب طريقه الاعتراض ، وهو جملة « وأنت منهم - اعتراض بين لو وجوابها ، وفائدته التصريح بما هو مقصود من ذمه ، وتأكيد انصراف الذم إليه .

ومنه قول أبي تمام :

رددت رونق وجهي في صحيفته رد الصقال بهاء الصارم الحزم
وما أبالي وخير القول أصدقه حقنت لي ماء وجهي أم حقنت دمي

ففي البيت إطناب طريقه : الاعتراض ، وهو جملة : « وخير القول أصدقه » وبلاغته تحقيق المماثلة بين صيانة الوجه وحقن الدم^(١) .

ومنه قول الشاعر :

إن الثمانين - وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان
ف قوله : « وبلغتها » دعائية أريد بها إثارة عطف الممدوح ، وإطناب طريقه الاعتراض .

٧ - وقد يأتي الإطناب بطريق الاحتراس : وهو أن يؤتى في كلام يومهم خلاف المقصود بما يدفع هذا الوهم ، كقول ابن المعتز يصف الخيل .
صبينا عليها - ظالمين - سياطنا . فطارت بها أيد سراع وأرجل
ففي البيت إطناب بطريق « الاحتراس » ، وهو بكلمة « ظالمين » وفائدته دفع ما قد يتوهم من أنها كانت بطيئة السير لا تجري إلا بالضرب ، وهذا خلاف المقصود ، لأنه في مقام المدح .

(١) المرجع السابق ص ١٧٤ ح ٢ .

ومنه قول طرفة بن العبد :

فسقى ديارك - غير مفسدها - صوب الربيع وديمة تهمي

ففي البيت إطناب بطريقة الاحتراس وهو : « غير مفسدها » ولما كان المطر إذا زاد عن حده سبب الخراب والدمار ، دفع هذا الوهم بقوله : « غير مفسدها » فأكد رغبته الصادقة في الدعاء لها .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ^(١) والمعنى : أن من يرجع إلى الكفر فسوف يأتي الله بقوم فيهم ست صفات حميدة : الأولى يحبهم الله ، والثانية : يحبونه . والثالثة والرابعة : أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين والخامسة : يجاهدون في سبيل الله باخلاص ، والسادسة : ولا يخافون لومة لائم .

والشاهد في الآية : أن فيها إطناباً طريقه الاحتراس ، وهو : بجملة : « أعزة على الكافرين » فلو اكتفت الآية الكريمة بقولها : « أذلة على المؤمنين » فقد يتوهم أن في ذاتهم ضعف ، ولذلك إحترس بقوله : « أعزة على الكافرين » ليزيل هذا الوهم .

٧ - وقد يكون الإطناب طريقه « التتميم » ، وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة : مثل مفعول ، أو حال ، أو نحو ذلك ، مما ليس بجملة مستقلة ، ولا ركن كلام ، وذلك يكون لفائدة كالمبالغة في المدح كما في قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ السَّعْيَاءُ عَلَى حُبِّهِمْ مَسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ ^(٢) ، فإن إطعام الطعام على حبهم له ، وحاجتهم إليه ، أدل على

(١) سورة المائدة الآية ٥٤ .

(٢) سورة الإنسان الآية ٨ .

الكرم مما لو كان عن غنى - هذا إذا كان الضمير في « حبه » يعود على الطعام أي : ويطعمونه مع حبه والاحتياج إليه ، وإن جعل الضمير « لله » تعالى ، أي يطعمونه على حب الله فهو لتأدية أصل المراد .

ومن الإطناب بطريق التتميم قول زهير :
من يلق يوماً على علاته هرمأ يلق السماحة منه والندی خلقاً
فقوله : « على علاته » أي : على كل حال من غنى أو فقر تتميم جميل .

٨ - وقد يكون الإطناب طريقه « الإيغال » ، وهو : ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها ، كزيادة المبالغة في قول الخنساء :
وإن صخرأ لتأثم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
ففي البيت إطناب في قولها : « في رأسه نار » لأن قولها : « كأنه علم » واف بالمقصود ، لأنها شبهته بالعلم الذي هو الجبل المرتفع المعروف بالهداية ، وهو من تمثيل المعقول بالمحسوس ، فزيد عليه قولها : « في رأسه نار » لزيادة المبالغة في التشبيه .

وقول ذي الرمة :
قف العيس في أطلال مية واسأل رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل
أظن الذي يجدي عليك سؤالها دموعاً كتبذير الجمعان المفصل
العيس : الإبل يخالط بياضها سواد خفيف ، والأطلال : جمع طلل ، وهو الشاخص من الآثار ، بخلاف الرسوم . والأخلاق : جمع خلق وهو البالي ، والمسلسل الرداء النسج ، والتبذير : التفريق . والجمعان المفصل : اللؤلؤ المنظم والمعنى : أنها لا تجيب سؤاله ، فيبكي .
وأنت ترى في البيت الأول أنه شبه الرسول بالرداء البالي فتم له ما أراد

ولما أراد أن يزيد في المبالغة وصف الرداء بالمسلسل ، فكان إطناباً طريقه الإيغال .

وكذلك في البيت الثاني حيث وصف الدموع بالجمان ، فلما أراد أن يزيد في المبالغة وصف الجمان بالمفصل ، فكان إطناباً طريقه « الإيغال » .

ومنه قول امرئ القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يشق

والمراد بالوحش : الظباء وبقر الوحش التي يصيدونها ، ويرمون عيونها حول خبائهم ، والخباء ما كان من وبر أو صوف ، والأرحل جمع رحل ، وهو المنزل والمأوى ، والجزع خرز فيه سواد وبياض شكل دوائر .

فقد شبه عيون الوحش بالجزع ، وتم له التشبيه قبل نهاية البيت ، فلما احتاج إلى القافية أتى بزيادة حسنة في قوله : « لم يشق » ، لأن الجزع إذا كان غير مثقوب كان أشبه بالعيون فهذه الزيادة جعلت التشبيه دقيقاً ومحققاً ، فهي إطناب طريقه الإيغال .

ومثله قول زهير :

كأن فئات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم

الفئات اسم لما انفقت وتقطع من الشيء ، والعهن الصوف المصبوغ ، والفنا : غيب الثعلب ، شبه فئات الصوف المصبوغ الذي زين به الهودج بحب الفنا في حمرته قبل تحطيمه ، لأنه إذا حطم تزول حمرته ، والشاهد في قوله : « لم يحطم » حيث أتى بها بعد تمام التشبيه ليكون دقيقاً ومحققاً ، فهي إطناب طريقه « الإيغال » .

ومثله قول امرئ القيس :

حملت ردينياً كأنه سنا لهب لم يتصل بدخان

فقد شبه الشاعر السيف بضوء اللهب في البريق واللمعان ، ولما كان اللهب يخالطه شيء من الدخان وهذا لا يوجد في وجه الشبه ، أخرجه الشاعر بقوله : « لم يتصل بدخان » ، فجاء التشبيه دقيقاً ومحققاً ، فجملة : « لم يتصل بدخان » زيادة حسنة ، فهي إطناب طريقه « الإيغال » .

المساواة

يقولون عنها : إنها تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له ، بأن تكون الألفاظ على قدر المعاني ، لا يزيد بعضها على بعض ، ولا ينقص ، ويمثلون لها بقول طرفه بن العبد الشاعر الجاهلي :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويقولون : إن الألفاظ في هذا البيت على قدر المعاني ، لا تنقص عنها ، ولا تزيد ، ولو حاولت أن تزيد فيه لفظاً لجاءت الزيادة فضولاً ، أو أردت أن تسقط كلمة لكان ذلك إخلالاً .

ومن المساواة قوله جل وعلا : (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً) .

تم بحمد الله الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث الذي يبدأ بالبَاب الثاني الذي يتحدث عن البيان .

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مجلسه اول: ۱۳۹۸/۰۱/۰۱
موضوع: آشنایی با محیط و اهداف دوره

مجلسه دوم: ۱۳۹۸/۰۱/۰۸
موضوع: مبانی و اصول مدیریت

مجلسه سوم: ۱۳۹۸/۰۱/۱۵
موضوع: روش‌های تحقیق و جمع‌آوری داده‌ها

مجلسه چهارم: ۱۳۹۸/۰۱/۲۲
موضوع: مدل‌های نظری و مفهومی

مجلسه پنجم: ۱۳۹۸/۰۱/۲۹
موضوع: روش‌های تحلیل داده‌ها

مجلسه ششم: ۱۳۹۸/۰۲/۰۵
موضوع: روش‌های اندازه‌گیری و اعتبار سنجی

مجلسه هفتم: ۱۳۹۸/۰۲/۱۲
موضوع: روش‌های تجزیه و تحلیل آماری

مجلسه هشتم: ۱۳۹۸/۰۲/۱۹
موضوع: روش‌های مدل‌سازی و شبیه‌سازی

مجلسه نهم: ۱۳۹۸/۰۲/۲۶
موضوع: روش‌های ارزیابی و پایش

مجلسه دهم: ۱۳۹۸/۰۳/۰۵
موضوع: روش‌های گزارش‌دهی و انتشار نتایج

محتويات الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الفصل الخامس	
القصر	٧
الفصل السادس	
الإنشاء	٦٥
الفصل السابع	
الفصل والوصل	١٤٥
الفصل الثامن	
الإيجاز والإطناب والمساواة	٢١٥

مجلسه اول: ۱۳۹۸/۰۱/۰۱
موضوع: آشنایی با محیط و اهداف دوره

مجلسه دوم: ۱۳۹۸/۰۱/۰۸
موضوع: مبانی و اصول مدیریت

مجلسه سوم: ۱۳۹۸/۰۱/۱۵
موضوع: روش‌های تحقیق و جمع‌آوری داده‌ها

مجلسه چهارم: ۱۳۹۸/۰۱/۲۲
موضوع: مدل‌های نظری و مفهومی

مجلسه پنجم: ۱۳۹۸/۰۱/۲۹
موضوع: روش‌های تحلیل داده‌ها

مجلسه ششم: ۱۳۹۸/۰۲/۰۵
موضوع: کاربرد روش‌های آماری

مجلسه هفتم: ۱۳۹۸/۰۲/۱۲
موضوع: روش‌های مدل‌سازی

مجلسه هشتم: ۱۳۹۸/۰۲/۱۹
موضوع: روش‌های شبیه‌سازی

مجلسه نهم: ۱۳۹۸/۰۲/۲۶
موضوع: روش‌های بهینه‌سازی

مجلسه دهم: ۱۳۹۸/۰۳/۰۵
موضوع: روش‌های ارزیابی